إحسان الملائكة

@ketab_n
Follow Me
3.4.2016

جلال الدين الرومي

صائغ النفوس

المركز الثقافي العربي

إحسان الملائكة

جلال الدين الرومي
صائغ النفوس

المركز الثقافي العربي

Twitter: @ketab_n

إحسان الملائكة

جلال الدين الرومي
صائغ النفوس

Twitter: @ketab_n

الكتاب

جلال الدين الرومي

صائغ النفوس

تأليف

إحسان الملائكة

الطبعة

الأولى، 2015

عدد الصفحات: 240

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-731-5

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 212+ 522 305726

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01 750507 ـ 01 352826

فاكس: 961 1 343701+

Twitter: @ketab_n

مقدمة البحث

التصوف - جذوره - ثماره

للتصوف مفهومان أولهما المفهوم الاصطلاحي المعروف الذي يشير إلى المسلك الذي اتَّخذته لنفسها فئة من الناس ترى أنّ الحب الإلهي هو أسمى غاية للإنسان الكامل. ومن أجل تحقيق هذه الغاية أو بلوغ ذروتها المتمثلة في الاتحاد بالمعشوق الأسمى أنشأ هؤلاء المتصوّفة أو اصطنعوا «طريقةً» تقوم على أيديولوجيا خاصة وحرصوا على أن يكون لهم تكية (أو رباط أو زاوية أو خانقاه. . . إلخ) هي مكان تجمُّعهم وإقامتهم، ولهذه التكية ملحقات أهمها «المدرسة» التي يلقي فيها مؤسس الطريقة مواعظه ووصاياه على أتباعه الذين يهمه أن يجتذب قلوبهم ويأسر عقولهم من طريقها ومن طرق أخرى في مقدمتها «الكرامات» «والكشوف» فلا يملكون إلا أن يدخلوا في طاعته ويصدقوا «ولايته» ويتحولوا من بعد إلى «مريدين» منقادين له انقياد العاشق للمعشوق إن لم نقُل انقياد العابد للمعبود.

أما المفهوم الثاني للتصوف، فالمقصود به اتجاه أفراد من البشر إلى عشق الحياة والإعجاب بالكون بمجموع من فيه، وتوجيه كلّ محبتهم إلى كائناته دون تفريق أو تحيز، لكن هذا العشق غير مقنَّن بضوابط محدَّدة أو مذاهب خاصة، لأن الذين يشعرون بهذا الضرب

Twitter: @ketab_n

من الانفعال هم مجرد أفراد تفتحت قلوبهم للحياة التي هي في نظرهم منبع الجمال الأصيل فلا عجب أن يُفتتنوا بها حباً، وهم يستشفون معاني الجمال في كلّ ما أبدع عقل الإنسان من قوانين خلقية ومُثُل روحية وكلّ ما صنعته يداه من مبتكرات عظمى نافعة. ومن رأيهم أن أسمى غاية تليق بعظمة عقل الإنسان هي محاولة العلماء فكّ ألغاز الكون، وكشف أسرار الحياة. بهذا فهُم يقتربون من المتصوّفة الرسميين أشدّ القرب أحياناً «ويتباعدون عنهم أشدّ البُعد أحياناً أخرى».

الذي يجمع ما بين مفهومي التصوف هذين هو الحب، الضرب الأول من الحبّ هو الذي يتقيد بالنظريات الفلسفية المحددة التي قام عليها التصوف في كل زمان ومكان، والضرب الثاني هو ذلك العشق الذي لا تحدُّه حدود أو قيود لأن الحياة غير قابلة لأن تُصبّ في قوالب ساكنة جامدة، أهلُ العشق الإلهي إذن هم الصوفية وأهل الطرق بمختلف طبقاتهم وأصنافهم، أمّا عشاق الحياة والكون ففيهم الشعراء والكتّاب وأهل الفن والمفكرون والعلماء والفلاسفة، وكل مَن أرهفت أحاسيسه وتلوّنت أخيلته من مختلف أصناف البشر في كلّ العصور وعبر جميع الحضارات.

إنّ المتصوف لا بدّ له من المرور بتجربة روحية «عاطفية» معينة تقنعه بضرورة «خلع لباس الدنيا» كي تتهيأ له إمكانية ولوج عالم العرفان، كذلك لا بدَّ من تشكُّل البذرة الملائمة التي تُعدّه لسلوك الطريق الشاق. والمتصوّفة يؤكّدون على الاستعداد الفطري الذي لا يمتلكه في الواقع إلّا الأشخاص الذين لا ثقة لهم بالعقل البشري ولا يفتأون يجاهرون بعجزه وضعفه، منكِرين عليه كلّ قدرة أو عظمة!

Twitter: @ketab_n

إنّ انتقاص العقل ينتج في العادة عن فلسفة خاطئة تقوم على الثنائية العتيقة أو الانفصال بين العقل والعاطفة في حين أثبتَت الدراسات الحديثة أنّ العواطف والانفعالات والأحاسيس كلّها من وظائف الدماغ، وهي ليست مستقلّة عن العقل ولا خارجة عن نطاقِهِ وإنما الاختلاف راجع إلى تسميات، شأنها في ذلك شأن الذكاء والذاكرة والخيال ومختلف القدرات العقلية كالتحليل والتركيب والاستقراء والاستدلال. . . إلخ.

وقع التصوّف الإسلامي تحت تأثير الأفلاطونية الحديثة، فمنذ الفارابي ظهرت فكرة الفيض ومبدأ الصدور، وأكَّد ابن سينا على ثنائية النفس والجسد، ونجح أبو حامد الغزالي في إدخال الأفلاطونية الحديثة في دم الفكر الإسلامي ذاته ثم أضاف ابن عربي ما أضاف من شطحات خيالِهِ الواسع ممّا شجع الصوفية المتأخرين مثل فريد الدين العطار وابن الفارض وجلال الدين الرومي والحاج بكتاش ولي وغيرهم على الاقتباس من الأديان القديمة كالمانوية والبوذيّة والمزدكية، ما شاء لهم مزاجهم، بل إن تأثيرات فلسفية إغريقية مختلفة تجسدَت في النتاج الأدبي الذي أبدعه هؤلاء، ومنها الفلسفة الرواقية والكلبية فضلاً عن التأثيرات الفيثاغورية والأورفية وهناك أيضاً الأفكار المسيحية والمبادئ الإسماعيلية، كلّ هذا المزيج مصوغ بأسلوب إقناعي حاول به المتصوفة أن ينازلوا أعداءهم من المفكرين الإسلاميين بسلاحهم ذاته وهو (المنطق)، فكان أن وقعوا في تناقض مفجع أضعفَ موقفهم الفكري بكلّ تأكيد، فلا عجب أن تقع الجماهير والكتل الشعبيَّة الضخمَة تحت سحر التصوّف في حين تجفوه وتتنكر له الفئات المتنورة المثقفة.

Twitter: @ketab_n

إنّ الاعتقاد بالثنائيات العتيقة كالنفس والبدن، والعقل والهوى، وما إلى ذلك من تقسيمات لفظية غير علمية، قد أدّى بالمتصوفة إلى المناداة بإبادة حواس الإنسان وقتلها لأنها في رأيهم تُقيم حجاباً غليظاً بينه وبين الله، وهي دعوى اقتبستْ من الأديان العتيقة، وتجسَّدت في جميع أدبيات المتصوفة، لا سيما الحلاج الذي يقول مثلاً في بعض أشعاره الشهيرة:

اقتلوني يا ثقاتي إنَّ في قتلي حياتي
ومماتي في حياتي وحياتي في مماتي
أنا عندي محو ذاتي من أجلّ المكرمات
وبقائي في صفاتي من قبيح السيئات

ومثل ذلك ورد في شعر ابن الفارض، فهو يقول:

حليف غرام أنت لكنْ بنفسه
وأبقاكَ وصفاً منك بعضُ أدلتي
فلم تهوني ما لم تكنْ فيَّ فانياً
ولم تفنَ ما لا تُجتلى فيك صورتي
وجانبْ جنابَ الوصل هيهات لم يكنْ
وها أنت حيٌّ إنْ تكنْ صادقاً متِ

أليستْ هذه الدعوة إلى قتل الحواس من أجل بلوغ مرتبة الاتحاد بالله تتناقض تماماً مع نظرية وحدة الوجود التي هي الركن الأساسي للفكر الصوفي كله؟ فحسب مضمون هذه النظرية لا يوجد في الكون إلا الله المتجلي في الإنسان الكامل (على الأقل)، وقد

Twitter: @ketab_n

قال قائلهم (ما في الجبَّة إلا الله) لكن لنصغِ إلى ما يعلنه ابن الفارض من رأي:

يشاهدُ مني حسنها كلّ ذرةٍ
بها كل طرف جال في كل مطرفةِ
ويثني عليها فيّ كل لطيفة
لكل لسانٍ طال في كل لفظةِ
وأنشقُ رياها بكل دقيقةٍ
بها كل أنفٍ ناشقٍ كل هَبَّةِ
ويسمع مني لفظها كل بضعةٍ
بها كل مسمعٍ سامعٍ متنصتِ
ويلثم مني كل جزء لثامها
بكلّ فم في لثمهِ كل قبلةِ
فلو بسطتَ جسمي رأت كلَّ جوهرِ
به كل قلب فيه كل محبَّةِ

يعترف ابن الفارض هنا بأنه لا يستطيع معرفة معشوقه إلا من طريق حواسه «البصر- النطق- الشم - السمع - الذوق- اللمس. . . إلخ» كيف إذن وما معنى الدعوة إلى إبادة هذه الحواس؟ واضح أنّ المتصوفة لم يجهِدوا أنفسهم بمناقشة أفكارهم ودراستها وتدقيقها وإنما انصبَّ اهتمامهم على إثارة خيال سامعيهم وإلهاب عواطفهم برفيع أشعارهم وجميل ألفاظهم، المهم عندهم اختلاب ألباب المريدين وليس إرضاء عقولهم بالفكر المنطقي السليم.

تتميز الأيديولوجية الصوفية عن غيرها من الأفكار الدينية

Twitter: @ketab_n

بتأكيدها أو تشديدها على مسألة العشق (والعشق عند الصوفية غايته الاندماج الكلي بالذات الإلهية)، كذلك تتفاخر بإعلانها معاداة العقل ومهاجمة المدافعين عنه من الفلاسفة والعلماء. إنَّ الصوفي حين يجحد ويحقِّر الجسد وينادي بمحو الأحاسيس لانشغاله بالروح وحسب، إنما يقف بجانب كبار زهاد وأتقياء المسيحية والإسلام، لكنه حين يتنكر للعقل ويقلِّل من شأنه، يكون قد ابتعد عن فلسفة أرسِطو وخرج بذلك عن أحد أهم أركان الأديان التوحيدية الثلاثة وهو (العقل) الذي تعدّه هذه الأديان جوهر الأخلاق وسببها ونتاجها في الوقت ذاته. ومن هنا يسهُل على الباحث المتتبع لآثار المتصوّفة أن يتبين الحبلَ المتين الذي يربط فكرهم كله بالأديان العتيقة خاصة البوذيَّة التي انتصر عليها الإسلام، ولولا ذلك ما كان للتصوف في تلك العصور أن يجد فرصةً للظهور بله الازدهار.

يتصف العشق الصوفي بالغلوّ وتتّقد آثار المتصوفة بلهب العاطفة المشبوبة الموجهة إلى كلّ ما في الطبيعة من كائنات تجسّد لهم ذات معشوقهم الأسمى: الله. وربما كانت أشعار ابن الفارض أجمل نموذج في هذا الميدان. يقول واصفاً تجلي معشوقه الإلهي في كل مظاهر الطبيعة:

تـراهُ إنْ غـاب عـنـي كـل جـارحـةٍ
فـي كـل مـعـنـى لـطـيـفٍ رائـق بـهـيـجِ
فـي نـغـمـة الـعـود والـنـاي الـرخـيـم إذا
تـألـفـا بـيـن ألـحـان مـن الـهـزجِ
وفـي مـسـاحـب أذيـال الـنـسـيـم إذا
أهـدى إلـيَّ سـحـيـراً أطـيـب الأرجِ

Twitter: @ketab_n

وفي مسارح غزلان الخمائل في
برد الأصائل والأصباح في البلجِ
لم أدر ما غربةُ الأوطان وهو معي
وخاطري أين كنا غير منزعجِ

ومع أنَّ ابن الفارض لم يقصد بضمير الغائب غير الذات الإلهية، لكنّ القارئ للأبيات لن يرى فيها إلا تعبيراً عن حالة حجبٍ إنساني، ممّا يؤكد ضرورة مرور الصوفي في مبدأ أمره بتجربة حبٍّ فاشلة تدفعهُ دفعاً لالتماس تجربة أنبل وأكمل فيتَّجه إلى المطلق.

وعلى هذا، فإننا نستطيع أن نعُدّ ظهور الشعراء العذريين في العصر الأموي مرحلةً مبكرة في تكوين الحركة الصوفية، وعدم الربط بين الحركتين يظلمهما معاً، ذلك أن الشعر الصوفي العربي اقتفى أثر الشعر العذري وأخذ منه، بل يمكن القول إنه قلده تقليداً تاماً في الشكل والمضمون. والصوفية لا ينكرون ذلك، بل يثبتونه بعبارات صريحة. فهم يعدون مجنون ليلى «رمز العشاق العذريين» بطلهم الأعظم، الذي ستكون سيرته إحدى أهم مفردات منهجهم الأدبي في تدريب المريدين والأتباع، وهم لا يكفّون عن سرد الحكايات والشواهد على تأثير أشعار العذريين في (التحول) الذي يطرأ على المتصوف في بداية سلوكه الطريق، وفي مفارقة بعضهم للحياة لمجرّد سماعهم بيت شعر عذريّ واحد.

على أن حركة الشعر العذري، شأنها شأن الحركة الصوفية، ذات صلة بمذهب الأفلاطونية المحدثة التي افترضت أنّ ما فوق الحسي أكثر حقيقة ممّا هو حسي، وأكّدت على صفات الطُّهر والعفة

Twitter: @ketab_n

والرقّة ودعت إلى تطهير النفس والترفُّع عن شواغل الجسد من أجل إمكان بلوغ مرتبة الاتحاد (بالمبدأ الأول) هذا إضافة إلى الجوّ الشعري الذي يغلِّف فكر الأفلاطونية الجديدة، ويُضفي عليها نكهة جمالية ظاهرة، كلّ ذلك يفسّر ويلقي الأضواء على سيرة العشاق العذريين، حتى أنه يصحّ القول بأنّ عدم الاطّلاع على الفلسفة الأفلاطونية المحدثة يجعل من ظهور الشعراء العذريين في العصر الأموي مسألة غريبة ولا تفسير لها.

ومما يؤكد الصلة القائمة بين الشعر العذري والأدب الصوفي لا سيما المتأخّر منه، ظهور قصة (ليلى والمجنون) في الآداب الإسلامية غير العربية بصيغة صوفية بحتة بعيدة كل البُعد عن سيرة قيس وليلى وعن قصص العشاق العذريين عموماً بحسب ما عرفناها في الروايات العربية المبكّرة، وعلى الأخص كتاب **الأغاني**، فهذه الروايات العربية وجهتْ عِنايتها نحو عاطفة الحب البشرية مؤكّدة في الوقت عينه على فكرة التسامي بالحب وتحقيق المثل الأعلى، تأثراً في ذلك بالمذهب الأفلاطوني المحدث، وهكذا فإنَّ الحرمان، الذي يؤول إليه جميع عشاق بني عذرة، هو الأمر الطبيعي والمعقول لأنه النهاية السعيدة التي تبتغيها الأفلاطونية المحدثة.

أما في الآداب الصوفية الإسلامية غير العربية فإن قصة قيس وليلى تتغير لتصبح تجسيداً لفكرة العشق الإلهي الذي يبدأ عادةً بتجربة حبٍّ إنساني مصحوب بالحرمان لأنه حادث في عالم النقص والمادة، ثم يؤول إلى تحقيق الهدف الأسمى وبلوغ السعادة القصوى من طريق الاتحاد بالمعشوق الأجمل (الواحد) في عالم المعنى. وعلى سبيل المثال أروي قصة ليلى والمجنون كما أوردها المتصوف

Twitter: @ketab_n

والشاعر (فضولي) 1480-1556م، الذي عاش في العراق «بغداد والنجف» تحت حكم الصفويين والعثمانيين. وأرجو من القارئ أن يلاحظ التباين الكبير بين حكاية (فضولي) وقصة مجنون ليلى «العربية» وينتبه إلى المقاصد الصوفية للحكاية:

(لمّا علمت والدة ليلى بأنَّ قيساً عاهد ليلى على الحب والوفاء قطعت ابنتها عن المدرسة لتمنع لقاء الحبيبين، فغلب الحزن واليأس على قلب قيس ولم يعد يدري بمكانه، وهام على وجهه، وانتهى أخيراً إلى الصحراء مرتضياً الجوع والعري، مصاحباً الوحش والطير، قاطعاً صلته بالناس والبلاد.

أما أهل ليلى فقد سارعوا إلى الموافقة على زواج ليلى من رجل تقدَّم طالباً يدها ويُدعى ابن سلام، لكن الخطبة لم تتمّ بعد أن عرف الرجل من ليلى بأنها أعطَت كلمتها لسيد آخر لا تزال على عهدها له، وأن زواجها بابن سلام سيعني الحكم على قيس بالموت أسىً وعذاباً. وانكسر قلبُ ابن سلام لفشله في تحقيق مرامه، ثم بلغهم نبأ موته.

أما ليلى فمضتْ إلى البادية تلتمس قيساً، لكنها لم تجده، بل رأت أمامها رجلاً فاقد الوعي، غريب الهيئة، يحدِّق فيها ولا يعرفها، وسمعتهُ يردد «أنا وليلى اتحدنا بالروح في عالم المعنى... ولا أطيق مشاهدة أية ليلى أخرى».

مرضت ليلى ولم تمضِ أيام حتى بلغ قيساً نعيها. وركض المجنون إلى ضريحها وسأل ربه أن ينعم عليه بالخلاص من عالم المادة، فاستُجيبَ له وسقط عند القبر ميتاً. وهكذا اكتملتْ سعادةُ الحبيبين في عالم المعنى).

Twitter: @ketab_n

ومثلما يغالي الصوفية في مسألة العشق، يغالون في قضية الجمال، بل يعدّون الحبّ والجمال قضية واحدة وهم في ذلك أفلاطونيون، على أنّ آماد الجمال لدى أفلاطون واسعة وهو لا يقتصر على الصورة أو المظهر، بل يمتد ليشمل المعنى والروح والأخلاق والشخصية أما الأفلاطونية المحدثة فتستشفّ الجمال في كلّ تجليات الواحد. والمتصوفة يرددون بشغف الآية الكريمة ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، ويولعون بالحديث النبوي (الله جميل يحبّ الجمال).

تلك طائفة من أهداف الصوفية وأقوالهم، ومع أن أغلب أهدافهم يمكن أن تُدرج تحت عنوان مكارم الأخلاق، إلا أنّ الإنسان لا بد أن يحسّ بالدهشة وربما الاستهجان عند تأمله لبعض تلك الأهداف، فمن ذلك نظريتهم في المعرفة، إذ يصرّون على أن المعرفة لا تتأتى للصوفي إلّا من طريق الحدس أو حالة الإلهام، أي أن المعرفة عندهم لا تقوم على التجربة والخبرة الحسية ومختلف أساليب التفكير. وكان من نتائج إيمانهم بهذه النظرية أنهم راحوا يعلنون العداء للعلماء والمفكرين ويوسعونهم ذماً وتجريحاً (مع ادِّعاءاتهم العريضة في قيام مذهبهم على توزيع المحبة على جميع الناس وبلا تفريق)، ولم يكتفوا بذلك، بل مضوا يفاخرون بأنهم يتلقون العرفان عن المجاذيب والبلهاء والمتخلفين عقلياً، على أساس أن هؤلاء أقرب إلى الفطرة ومن ثم فهم يتلقون الإلهام من الطبيعة مباشرة، وليس كذلك العالِم الذي (فسدتْ) فطرته بعد امتلاء رأسه بحشود المعلومات المنقولة والمسموعة والمجرّبة هذه النظرية الوخيمة العواقب، أدّت من ناحية أخرى إلى التفاف العامة أي الكتل الشعبية الأمية حول المتصوفة،

Twitter: @ketab_n

وانصراف العلماء وجميع أهل الرأي والفكر والثقافة عن الفكر الصوفي ونبذه، حتى أن المعريّ، الذي يقدِّس العقل والتفكير، شَنَّ حملةً شعواء على المتصوفة، وهو المعروف بالإنصاف والتفهّم والعطف على جميع الكائنات الضعيفة، يقول المعريّ:

أرى جيل التصوف شرَّ جيلٍ
فقلْ لهمُ وأهوِنْ بالحلولِ
أقال اللهُ حين عبدتموه
كلوا أكلَ البهائمِ وارقصوا لي

ولعل الفيلسوف باسكال استطاع أن يفحم المتصوفة بمقولته الجميلة «الاستهزاء بالفلسفة هو تفلسفٌ أيضاً» وقد رأينا آنفاً كيف قام الفكر الصوفي كلّه على نظريات فلسفية معروفة مشهورة، جُمعتْ لهم، وقُدِّمت طبخةً ناضجة، استمرأوا أكلها كما يبدو، ولم يشبعوا منها أبداً!!

من أهم أسباب العداء الذي أبداه المتصوفة نحو الفلاسفة وأهل الفكر، تحريض الفقهاء للسلاطين والحكام ضدّ الصوفية، فالفقهاء هم الذين أفتوا بقتل الحلاج والسهروردي وغيرهما من شهداء المتصوفة، وهم الذين ظلوا طوال عصور الحضارة الإسلامية يشنون الحرب على الفلاسفة من جهة، وعلى القوى التي تخضع لتأثيراتِ الفلسفة، وفي مقدمتها الحركات الصوفية ذاتها من جهة أخرى. وتلك مفارقة عجيبة؛ ومن المعلوم أنّ الفقهاء أنفسهم استعانوا بسلاح الفلسفة الأول: منطق أرسطو، في دفاعهم عن معتقداتهم وحملاتهم الدعائية المتواصلة في الذود عن تلك المعتقدات.

Twitter: @ketab_n

ومن أسباب العداء بين المتصوفة والفقهاء، لجوء المتصوفة إلى التأويل في تفسير القرآن والحديث، واتخاذهم الأسلوب الرمزي الذي جعلوه قناعاً يسترون به الأمور التي رغبوا أن يخفوها عن أعين الفقهاء، واعتمادهم أسلوب التقية، وعدم التصريح بمعتقداتهم، وكلّ هذه الأمور مخالفة لأفكار الفقهاء الدينية.

على أنّ هذا ليس مجال نقد الفكر الصوفي، ومَن شاء التوسع في ذلك فإني أحيله إلى بعض المراجع التي وفت الموضوع حقه، ومنها:

1- **نحن والتراث الفلسفي** - د. محمد عابد الجابري
2- **بواكير الفلسفة قبل طاليس** - د. حسام الآلوسي وبقية مؤلفاته
3- **أسطورة الحلاج** - الأستاذ سامي خرطبيل

مسألة واحدة لا بد من إيلائها العناية اللازمة قبل أن نختتم هذا الفصل، وهي موقف الإنسان المعاصر من التصوف، وقد كان من حسن الحظ أن أجد تحت يدي مؤلفاً صغير الحجم كبير القيمة درس فيه مؤلفه حركة التصوف وصلتها بعصرنا الحاضر بشكلٍ علمي محايد ودقيق. وقد ترجمتُ الصفحات المفيدة من الكتاب لفائدة القارئ.

يقول المؤلف (لورنس كولبير): «غرضي من كتابة هذا البحث مناقشة جملة آراء للكاتب الشهير الدوس هاكسلي، دافع بها عن التصوف. يرى الدوس هاكسلي أنّ الكون وحدة كاملة منسجمة، وواجب الإنسان هو الاستغراق أو الذوبان في هذه الوحدة، وذلك يعني الخير الأسمى، أما الشر فهو كلّ ما يدعونا إلى الانفصال عن الوحدة الكونية هذه. وبحسب هذا الرأي يكون الهدف الأساسي

Twitter: @ketab_n

للأخلاق هو تحطيم الفردية أو ذاتية الإنسان، من أجل الوصول إلى حالة النرفانا البوذية.

والواقع أنه لا يوجد سندٌ علمي أو فلسفي للنظرية التي ترى: أن الكون وحدة، بالمعنى الذي يوردهُ السيد هاكسلي، فلقد أعلن أخو الدوس هاكسلي (جوليان)، فيما مضى، بأنه لا يعرف برهاناً علمياً على أنّ الكون كاملٌ أو عاقل. كما أننا نتذكر رأياً شهيراً لبرتراند رسل يقول بأن نظرية وحدة الكون هراء وسخف. فما الكون إلا كتل منفصلة، وطفرات غامضة ليس ثمة ما يجمع بينهما، ولا دليل على قدرتها على الاستمرارية المنظّمة، أي أن برتراند رسل لا يجد في الكون تنظيماً أو تناسقاً بالمعنى الذي تبغيه مربيات الأطفال. إن وجود القوانين الرياضية والفيزيائية التي تربط ما بين الظواهر الكونية ليس دليلاً على وحدة الكون بالمعنى الأخلاقي الذي نتمناه. أما اعتقاد السيد الدوس هاكسلي بالوحدة الروحية غير الشخصية للكون، الوحدة التي يدّعي المتصوفة بأنهم يدركونها بالحدس أو بالإلهام فمجرد وهم. ولقد سعى المتصوفة دائماً أن يحللوا (خبراتهم) الصوفية بتجرد كامل، فماذا كانت النتيجة؟ يبدو لنا من اعترافاتهم بأنَّ تلك الخبرات (الكشوفات) لم تزوِّدهم بأية بيّنة توضح طبيعة (الاتحاد) الذي حققوه، ولم يتوصلوا إلى معرفة الله ولا العالم ولا أي شيء آخر، كلّ ما حصلوا عليه أو غنموه هو انفعال، أي حالة من حالات العقل والشعور ولا شيء آخر.

علينا أن نعرف بأنّ معضلة «الشر» لا تعود إلى نقص العدالة في الطبيعة، وإنما إلى توقع الإنسان من الطبيعة الاهتمام به وبمقاييسه،

Twitter: @ketab_n

أو أن تعمل بوعي وانسجام مع أخلاقياته، وهذا منتهى البلادة، والفلاسفة القدامى يختلفون في هذه المسألة، فالرواقيون اعتقدوا بأنَّ الثناء على أي من العواطف الإنسانية بما في ذلك الحب والشفقة وهلم جراً، هو خطأ كبير، حتى عاطفة الفرح أو الابتهاج، من الواجب أن نكبحها لأنّ السرور يسبِّب إزعاج الروح! أمّا أفلوطين مؤسس الأفلاطونية المحدثة، فكان يرى أن سعادة الإنسان تتوقف على الانجذاب الصوفي، ولم يكن لديه الشيء الكثير الذي يستطيع قوله عن مسألة الأخلاق، وخلاصة دعوته أن تكون مثل الله في كماله، أما الفضائل النبيلة التي اختارتْ البشرية فوائدها على مدى العصور، فإنها لم ترد على لسانه، وعلاوة على ذلك فإنه اعتبر جسم الإنسان بَشراً حقيقياً. ومن آراء أفلوطين أن الرجل الحكيم ينبغي أن ينظر إلى أحداث الحياة وآلام الناس بعين المتفرج في المسرح، ينظر إلى ما يجري بحياد وبرود تامّين.

ينتج من هذا أن المتصوفة الذين يدْعون إلى اتخاذ هذه المواقف اللامبالية، لا يمكن أن يكونوا أخلاقيين، لأنّ الأخلاقي لا يستطيع أن يقف متفرجاً، وهو يرى أهله أو قومه في شدةٍ أو خطر. ثم أننا نُسائل السيد الدوس هاكسلي: هل استطاع معلِّمو البوذية أن يغيروا شروط الحياة البائسة التي عاشها الإنسان الهندي وهو يهتدي بأفكارهم الصوفية التأملية تلك؟ وذلك السجل الأليم للمجاعات والطواعين ومظالم الحكام وكوارث الطبيعة ذلك السجل هل تأثر بحضور (أولياء) الصوفية، وظهورهم واحداً تلو الآخر، زمناً بعد زمن؟ ولماذا عجز المتصوفة أن ينقذوا أخوانهم أبناء قومهم، من تلك الفواجع المرعبة ما داموا يمتلكون قدراتهم الخارقة

Twitter: @ketab_n

(الكرامات)؟ ثم لماذا يحاول الصوفية مساعدة الناس وهم الذين يحثونهم على أن يكونوا كالأحجار الصماء، لا تتأثر بالكوارث، ولا تدري بما يقع خارج كتلتها الباردة؟

على أن إعجابنا ببعض مبادئ التصوف الناجمة عن إيمانهم بنظرية وحدة الوجود، مثل التحرر من التعصب الأعمى، ومن التزمُّت الديني، ومن التحيز العرقي، ثم دعوتهم إلى التسامح واحترام جميع معتقدات البشر، نقول إنّ إعجابنا بمثل تلك المبادئ الصوفية لا يجوز أن يُنسينا الثمن الغالي الذي يريدنا المتصوّفة أن ندفعه من أجلها، فالتسامح واحترام معتقدات الغير هما من المُثل الخلقية للروح الأوروبية العصرية، وليس ذلك وقفاً على المتصوفة، ولو وجدت تلك المثل الأخلاقية الأوروبية مجالاً للتطبيق والتحقيق لأنتجت التسامح ذاته بدون الحاجة للوقوع تحت شرور الحياد الصوفي، واللامبالاة البوذية، والبرود الرواقي، ذلك أنّ أحسن ما في الروح الأوروبية العصرية، هو الإيمان العميق بالقيمة المعنوية لفردية الإنسان وشخصيته، في حين تضع الصوفية في مقدِّمة مبادئها مَحْق الشخصية الفردية والقضاء عليها بكل ثمن. والحق أن الأديان القديمة دعتْ إلى الفضائل السلبية دون الإيجابية، والعشق الإلهي يعني أن نتجاوز عواطفنا البشرية وننفعل بعاطفة غامضة الاتجاه تنتهي دائماً إلى الاستغراق في عبادة الذات ليس إلا، ثم إن الدعوات المثالية المذكورة تسعى إلى غرس مشاعر الكراهية للحياة والناس من ثَمَّ، والحال أنّ الرجل ذا الخُلُق الكريم أولى به أن يكون شديد الشغف بالناس وبالحياة وكبير الإعجاب بجمال العالم وقوانين الكون، وأن يساهم في تحسين ظروف الحياة وحلّ مشاكل الناس من

Twitter: @ketab_n

حوله، باختصار هو محتاج إلى الفضائل الإيجابية والعمل الإيجابي، وكل ما عدا ذلك خيال ووهم.

ولو ألقينا نظرة فاحصة على آلهة الشعوب البدائية لاستطعنا أن ندرك بسهولة أنها كانت لاأخلاقية، ولم يعبدها الناس إلا لاعتقادهم بجبروتها وقدرتها على تحطيمهم والقضاء عليهم، فكانوا يتقربون إليها خوفاً وليس عن تعظيمٍ أو إجلال.

أمّا عن مسألة السعادة، فإنَّ الأخلاقي لا يستطيع أن يشعر بالسعادة والناس من حوله في أشدّ الألم والعذاب، ومن هنا فالسعادة غير منفصلة عن المجتمع، كما أن كل سعادة تُبنى على تعاسة الآخرين لا يمكن أن يُطلق عليها اسم السعادة، إذ ليست إلّا الشر والفساد.

يدلنا التاريخ على أنّ التصوف كان يزدهر في عهود الاضطرابات السياسة والاقتصادية، فقد ظهرتْ الحركة الرواقية مصاحبةً لعهد انقراض دولة المدينة الإغريقية، وتزامنَ احتضارُ الإمبراطورية الرومانية بانبثاق الأفلاطونية المحدثة، وواكبَ سقوطُ البناء الاجتماعي لكلّ العالم القديم بزوغ فجر المسيحية، ويمكن تقديم أمثلة كثيرة أخرى.

نحن، في عصرنا الحديث هذا، نعيش صراعاً اجتماعياً واقتصادياً، واضطراباً فظيعاً في كلّ ميادين الحياة، وأمام أعيننا تحدث تغيرات هائلة، دون أن نستطيع التنبؤ بنتائجها القادمة، ونحن مطوّقون بالشرور من كل جهة، ولكي نقهر الشرّ ونبني مجتمعات جديدة على أنقاض المجتمع الذي يتهدم فإننا بحاجة إلى روح مضادة تماماً لروح أفلوطين وأتباعه، روح مقطوعة الصلة بالرواقية وأضرابها

Twitter: @ketab_n

من الفلسفات السلبية، إنها روح الأمل والحيوية، روح قريبة من تنوير القرن الثامن عشر، روح الإنسايكلوبيديين العظام بكلّ أشكالها، أولئك الرجال الشجعان الذين جاهروا بلا خوف، بقذارة تجارة الرقيق، وشناعة استعباد الشعوب، لأنّ الأخلاق هي حبُّ جميع البشر بلا تفريق، والإيمان العميق بالمساواة والعدالة للجميع.

يقول الفيلسوف كانط: الإنسان هو غاية في ذاته، وإذا كنّا نؤمن بأنّ هدف الأخلاق هو تطوير شخصيات كلّ الرجال والنساء والأطفال، فليس أمامنا إلّا إدانة محاولات النازية والفاشية لفرض قوانين ظالمة تسلب الإنسان حقوقه الطبيعية التي وهبتها له الحياة.

إن معاملة كل إنسان على أنه غاية في نفسه يعني أن نمنحه فرصة تحقيق الفضيلة، وليس أن ندفعه إلى اقتراف الشرور».

(انتهت مناقشة لورنس كولبير للفكر الصوفي)[1]

(1) لورنس كولبير: مؤلف كتاب *Flight from conflict* أبوه (جون كولبير) وأمه (إيثل) بنت العلامة (توماس هاكسلي)، أما الدوس هاكسلي، وأخوه (جوليان هاكسلي) فهما أيضاً حفيدان لتوماس هاكسلي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

مدينة بلخ - حاضرة خراسان

1- الأرض والتاريخ:

بلاد تركستان الواقعة في أواسط آسيا، موطن التركمان الأشدّاء المعروفين بهوسهم الشديد بالخيل، وشغفهم الأبدي بالقتال والغارة، تحتلّ اليوم موقع الشمال الغربي من أفغانستان. وعند مقترب نهر جيحون أو (أمودريا) من حدود إيران، تقوم مدينة بلخ ذات التاريخ العريق، في الطريق التجاري الهام بين الصين وإيران. هذه المدينة -بلخ- ستكون مدار اهتمامنا لأنها مسقط رأس جلال الدين الرومي وموطن عائلته، هي إحدى حواضر إقليم خراسان الذي كان يضمّ إضافةً إلى بلخ، مدناً هامة أخرى مثل هراة ومرو ونيسابور وطوس، فضلاً عن مدن أقل أهمية ومنها إبيورد وبيهق ونسا وسبزوار... إلخ.

إن الموقع الجغرافي الخطير لخُراسان أهَّلها للتعرض دائماً إلى شتى التيارات الثقافية والاجتماعية والدينية، وكان عليها أن تهضم ذلك كله وتتمثله ليتجول إلى مذاهب فكرية ونزاعات روحية تصدّرها إلى جاراتها من البلدان المتمدِّنة وغير المتمدنة أيضاً. ومنذ العهد الأموي أصبحت خراسان الهدف الأول الذي يتنافس على بلوغه

Twitter: @ketab_n

جميعُ الحُكام الطامعين في امتلاك الأراضي والإقطاعيات.

وهكذا أزيحت معابد الوثنيين والمجوس وكنائس المسيحيين فيها لتتعالى منابرُ الجوامع وقباب المساجد، وتوافد على حواضرها علماءُ المسلمين من كلّ حدب وصوب، ولُقبتْ مدينةُ بلخ بقبة الإسلام وأمّ البلاد، وأصبحت مدن خراسان موطن أعاظم الشعراء والكتاب والمفكرين والمتصوّفة والفقهاء فضلاً عن رجال الدولة المشهورين، فإلى (بلخ) ينتسب جلال الدين الرومي، والصوفي المعروف إبراهيم بن الأدهم، ووزير السلاجقة الأشهر نظام الملك، وإلى نيسابور ينتمي العالم الشاعر عمر الخيام، وشاعر المتصوفَة فريد الدين العطّار، ورئيس الطريقة الحاج بكتاش ولي، والقشيري مؤلف **الرسالة الشهيرة**، كما ينتمي إلى نيسابور: الميداني مصنف كتاب **مجمع الأمثال**، والثعالبي صاحب **اليتيمة**، أمّا طوس فمنها قَدِم أبو حامد الغزالي وأخوه أحمد الغزالي وهي منشأ أكبر شعراء إيران (الفردوسي) كاتب **الشاهنامة**، وإلى طوس أيضاً ينتسب الفلكي الشهير نصير الدين الطوسي، والقائمة طويلة نكتفي منها بمن ذكرنا.

يُعد نهر جيحون (أمودريا) الحاجز الطبيعي بين قوميتين تتكلم إحداهما اللغة التركيّة، وتنطق الثانية بالفارسية، ويتباهى كلّ من هذين الشعبين بالمراكز الثقافية العظمى التي ازدهرتْ في المدن الواقعة على جانبي النهر، ومن أشهرها بخارى وسمرقند، وطشقند، وخوارزم، تلك البلدان التي ما زالت حتى اليوم تزهو بعلمائها المسلمين العظام وفي مقدِّمتهم ابن سينا والخوارزمي والبيروني... إلخ، فإذا عدنا إلى خراسان وجبَ أن نوجِّه الانتباه إلى ما عُرفت به من اعتدال المناخ وثراء التربة حتى عُدَّت بحقّ مخزناً ضخماً

Twitter: @ketab_n

للمحاصيل والغلال، فضلاً عن توفر مكامن الأحجار الكريمة لا سيما العقيق والفيروز، كلّ ذلك قد جعل هذه البلاد مطمعاً للغزاة وطلاب المال والسلطان ولو أضفنا إلى ما سبق ما عُرف عن مرتفعاتها من قلة العوائق الطبيعية التي يمكن أن تحمي أهلها عند الغزو، لأدركنا بسهولة العوامل المسؤولة عن انهماك خراسان أبداً بالحروب والصراعات والفتن الداخلية التي لا أوّل لها ولا آخر.

ولقد أدرك الساسانيون خطورة جبال خراسان على حدودهم الشرقية فبنوا سداً من الحجر الغليظ في ثغرات تلك الجبال وحرصوا على إدامته حفاظاً على سلامة بلادهم من الهجمات المباغتة للقبائل التركمانية المجاورة المشهورة باستعدادها للغارة والغزو وبراعتها في القتال على ظهور الخيل.

إنَّ خراسان بموقعها الجغرافي الخاص وطبيعة إقليمها تذكِّرنا بأذربيجان الواقعة غربي إيران، فهذه الأخيرة تبدو توأماً لتلك، فهي مثلها كانت الجسر الرئيس بين المشرق والمغرب في العصر الوسيط وما قبله، وأهلها أيضاً كانوا مزيجاً من مختلف القوميات والأجناس والأديان، وذلك بسبب تعرُّضها الدائم للغزو والاحتلال ممّا كان يحوِّلها في كثير من الأحيان إلى مسرح مرعب للصراعات الفكرية والقتال الشديد، شأنها شأن خراسان تماماً. وسوف ندرك أهمية هذا التشابه عندما نفتح كتاب حياة جلال الدين الرومي.

ثم إن وقوع خراسان وأذربيجان كليهما في الطريق التجاري ما بين الصين والعالم المتمدِّن في العصور القديمة، لا سيما إمبراطورية روما المستهلِكَة الكبرى للحرير الذي تنتجه الصين، قد أغرى الساسانيين بمضاعفة الاهتمام بصناعة الحرير، فاستجلبوا النسّاجين

Twitter: @ketab_n

من كلّ مكان، وعُرفتْ (تبريز) عاصمة أذربيجان بصناعة الأقمشة الحريرية بشكلٍ خاص، فضلاً عن نسيج الطنافس، الصناعة التي اشتهرت بها كثير من المدن الإيرانية من أقدم العصور.

بعد أن تكوّنت لدى القارئ، فيما أظن، صورة مصغَّرة عن المكان الذي نشأ فيه جلال الدين الرومي، لا بدَّ لنا أن نقدِّم له توضيحاً مختصراً للأحوال الدينية التي سادت تلك البلاد قبل الإسلام لكي يتهيأ له أن يتفهّم أو يهضم النزاعات الفكرية والروحية المميزة لأدبه. ذلك أن أيّ دارس لآداب الشعوب الإسلامية غير العربية، لا بد أن يلحظ وجود اختلاف جذري فيما بينهم وبين العرب لا سيما في الاتجاهات الروحية الطاغية على آدابهم، والأدب هو مرآة الشخصية، فيبدو الإسلام وكأنَّه بلا تأثير في ذلك الأدب في كثير من الأحيان، وليس في كل الأحيان بالطبع، ومن هنا نبعت الشعوبية، هذه المسألة أيضاً قد تجرّنا إلى جانب آخر للقضية، فالدين الإسلامي باعتماده اعتماداً كلياً على (بيان) اللغة العربية، لغة القرآن والشريعة جميعاً، قد جعل تعاليم الإسلام، فضلاً عن لغة القرآن العالية جداً، شيئاً غير مفهوم لدى عامة الشعوب الإسلامية غير الناطقة بلغة القرآن، فاقتصر فهم التعاليم وروحية الدين على (النخبَة المثقفة) وحدها، ممن يؤهلها ذكاؤها وثقافتها وحالتها المادية، على تعلم اللغة العربية لأجل التعرُّف التام إلى الدين الإسلامي المكتوب بها.

إن مسألة علاقة الدين الإسلامي باللغة العربية قريبة من مسألة علاقة المسيحية بلغة المسيح الأولى، التي لا يعرفها الغربيون مثلاً، فالملابسات قائمة في الحالتين، وهو ليس بالأمر الخاص بالعربية

Twitter: @ketab_n

وحدها على أية حال، لكن ما أودّ توضيحه في هذا المقام، ضرورة تذكّر كل هذه الأمور قبل الدخول في متاهات روح جلال الدين الرومي، لأنَّ إغفالها وعدم الانتباه إليها، قد يجعل الرومي شخصية شاذَّة غريبة، أو سفسطائية على أقلّ تقدير، أعني بالمعنى المبتذل للسفسطائية وليس المعنى الفلسفي الذي أراده سقراط، والواقع أنّ الروح الطاغية على الشعر الإسلامي غير المكتوب بالعربية، مخالفة ومباينة لروحية الشعر العربي وشخصيته، وكلّ مَن أتيح له أن يقرأ الشعر الإسلامي المكتوب بالفارسية والتركية والهندية، فلا بد له أن يلاحظ وقوعه تحت تأثيرات فكرية وعاطفية ومزاجية مغايرة لما عهدناه في شعرنا العربي، وكلّ ذلك طبيعي، فالشعوب تتباين، ولا يُنتظر منها أن تنصهر في بوتقة روحيَّة واحدة، حتى لو جمعتْها أيديولوجيا واحدة هي الإسلام في حالتنا هنا. ولماذا نذهب بعيداً وهذه المسألة هي فعلاً أهم أسباب (اغتراب) جلال الدين الرومي في أدبنا العربي، إذ تخلو مصادرنا جميعاً من أية إشارة إليه وإلى فكره وشعره وشخصيته، ولولا اهتمامُ المستشرقين به في هذا العصر الحديث، لظلَّ القارئ والمثقف العربي على تمام الجهل به، وهو مَنْ هو في المكانة الجليلة التي يحتلُّها بين عمالقة الشعر في العالم عَبر مختلف العصور والأزمان.

2- الأديان القديمة في إيران وخراسان:

عرف العهد الساساني ثلاثة أديان أولها الزرادشتيه وهو دين النخبة الأرستقراطية الحاكمة والكهنة المؤيدين لهم، ثم المانوية، وأخيراً المزدكية.

Twitter: @ketab_n

أ- تنتسب الزرادشتيه إلى نبي أسطوري وعدَ بأنه سيكون خاتمة أنبياء البشر، واعتقد بأنّ العالم محكوم بقوتين متصارعتين هما الخير، ويجسده الإله (أهور أمازدا) والشر ويجسده الإله (أهرمان)، والصراع ينتهي بانتصار الخير وهزيمة الشرّ. بعد الموت تقوم المحاكمة الربانية فيخلد الأشرار في الجحيم ويكافأ الأخيار في دار النعيم، أول واجبات الأخيار في وجودهم الدنيوي أن يخشوا البدع ويجتنبوها بكلّ ثمن، ومن ثم فالفلاح الكسول والعبد الآبق والحاكم الجبار والقاضي المرتشي، كلّ هؤلاء مآلهم الشواء في جحيم الآخرة. في مقابل هذه الأحكام (المعقولة) توجد في الدين الزرادشتي تشريعات شنيعة يأتي في مقدِّمتها، زواج الأقارب من الدرجة الأولى، بحجة الحفاظ على نقاوة الدم، لكن يبدو أنّ السبب الحقيقي لهذه العادة السيئة، حرص الزرادشتية على الاحتفاظ بالأموال والأملاك داخل الأسرة، واستفاد الساسانيون من هذه العادات البدائية في حروبهم المتصلة مع جيرانهم لا سيما الدولة البيزنطينية المنافسة لهم واعتمدوا في تغذيتهم صدور أفراد شعوبهم بروح الأحقاد والعداء ضد الشعوب الأخرى على ذلك الاختلاف الجذري بين التقاليد البيزنطينية المسيحية والتقاليد الساسانية الزرادشتية المذكورة.

ب- إن انتشار البوذية في الهند شجَّع (ماني) على إظهار دعوته المتأثِّرة بالبوذية في إيران، ففي عهد الملك سابور الأول مضى ماني يبشِّر بعقيدته الجديدة. كان ماني من المقرَّبين إلى الملك سابور ومن أصدقائه، وقد بدأ دعوته بالإعلان بأنها موجّهة إلى جميع الناس وليس إلى الإيرانيين وحدهم، ولم ينسَ أيضاً أنه خاتم الأنبياء مثل

Twitter: @ketab_n

زرادشت، كذلك أخذ عن زرادشت فكرة الصراع بين الخير والشر أو بحسب اصطلاحه: بين النور والظلمَة، وكان يرى أن روح الإنسان تمثِّل النور، جسمه يُمثل الظلام، ولذلك فالخلاص لا يقع إلا بتحرير الروح من سجن الجسد.

إنَّ أتباع ماني صنفان: الصنف الأول يمثله الكهنة أو رجال الدين المتبتلون المحكوم عليهم بالعزوبية تأثراً بالمسيحيين وبالامتناع عن أكل اللحوم وبضرورة التحلي بمكارم الأخلاق والنفور من الرذائل لا سيما الكذب والحسد. أمّا الصنف الثاني فهم عامة الشعب وهؤلاء يحلّ لهم الزواج وكسب المعاش من طريق العمل ويتعين عليهم التمسُّك بالفضائل كالقناعة والعفة والزهد في متاع الحياة الدنيا، والنبي عيسى مُصَدَّق عند المانوية وله قداسة خاصة. والصوم والصلاة إلزاميان، وعبادةُ الصور والتماثيل مُحَرَّمة، والتعميدُ واجب، وبهذا كله تقترب المانوية من المسيحية والبابلية، لكنَّ اختلافها عن المسيحية يتجلى بشكلٍ خاصّ في إنكار المانوية لأنبياء بني إسرائيل وكراهيتهم لهم إذ نسبوهم إلى آلهة الظلام والشر.

لم تطل أيام الهناء للمانوية، فبعد وفاة سابور الأول، تألّب جميع النبلاء ضد (ماني) وقيل إنهم أعدموه وبادروا إلى أتباعه فعاملوهم بمنتهى الشدّة والقسوة، مثلما حدث للمسيحيين من قبلهم، فاضطرّ المانويون إلى الفرار وتشرّدوا في الأراضي السورية والمصرية وتركستان وحتى جزيرة العرب، وفي كلّ مكان أقاموا به واصلوا نشر مبادئهم، ونجحوا في أحيان كثيرة في مسعاهم ذاك.

بعد انتهاء أمر (ماني) في إيران، استقرتْ الأمور للزرادشتية، وثبتت أقدام هذا الدين الذي كان معادياً لمصلحة الشعب إذ يقوم

Twitter: @ketab_n

على تحقيق مصلحة فئة محدودة وهي طبقة الحُكام على حساب أغلبية الرعية. وكان من نتائج الانتصار الأخير للزرادشتية، صدُّ العقيدة المسيحية عن بلاد بابل التي كانت يومئذٍ تحت حكم الساسانيين، فبقيتْ الوثنية هناك إلى جانب المسيحية حتى الفتح الإسلامي.

جـ- وفي عهد الملك قباذ (والد كسرى الأول)، ظهرتْ الحركة المزدكية أو الدين المزدكي المستند في كثير من مبادئه إلى المانوية أيضاً، فالمزدكية مثل المانوية تنادي بالفضيلة والعدالة والزهد في متاع الحياة الدنيا، والتخلي عن مشاعر الحقد والبغضاء، لكن أهمية المزدكية تتجلى بشكلٍ واضح إذا ما قورنت بمبادئ الزرادشتية، هذا الدين الذي يقوم أساساً على تحقيق مصالح الطبقة الحاكمة ولو بالتضحية بمصالح كافة أبناء الشعب، في حين تبدأ المزدكية من مبدأ اجتماعي اقتصادي يرى أن الناس متساوون في الحقوق من الناحية المادية، فالمال والأملاك والسلع يجب توزيعها بين الناس جميعاً، بحسب استحقاقهم وليس بحسب طبقاتهم وفي مجتمع مثل المجتمع الساساني حيث تتخذ كل طبقة مكاناً ثابتاً لا يمكن تغييره إطلاقاً وبحيث يستحيل على ابن أية طبقة أن يرتفع إلى الطبقة الأعلى منها بأيّ شكل من الأشكال، في مثل هذا الوضع صارت المزدكية تُعدّ ثورة حقيقية فلا عجب أن يصفها بعضُ المؤرخين المحدثين بالثورة الاشتراكية، على أنّ طائفة أخرى من الدارسين يفسرون هذه الحركة بأنها شكلٌ من أشكال ردّ الفعل، حقَّقه العبيد، والفلاحون وأهل المدن الذين تحولوا إلى شبه عبيد في عهد الساسانيين، للتحرر من نظام الإقطاع العبودي القاسي.

Twitter: @ketab_n

وممّا ساهم في نجاح المزدكية ذلك النجاح الكبير، مشاركة النساء في الثورة رغبةً منهن في التخلص من الدين الزرادشتي المعادي للنساء بشكل خاص، فالزرادشتية شرّعت نظام الحريم، وعنهم أخذه العباسيون، إذ لم يعرفه العرب في تراثهم وعاداتهم أبداً من قبل، ولم يوجد نظام الحريم في الدولة الأموية ولا الراشدية رغم السماح بتعدُّد الزوجات في الإسلام. وفي العهد الساساني تعرّضت النساء والأطفال إلى أقسى أنواع المعاملة الوحشية، وكان من النتائج المباشرة لذلك انحطاط الأخلاق، وتردي القيم، وسرعة تقبُّل الإيرانيين لمختلف الأديان التي راحت تفدُ عليهم تباعاً، فيتلقّفونها بلهفة، علَّهم يجدون فيها خلاصاً ممّا هم فيه من آلام وأوجاع، وكان آخرها الدين الإسلامي الذي تقبّله الإيرانيون، والشعوب التي كانت تحت حكمهم، بحماس وفرح آملين أن تُرفع عن كواهلهم مظالم الساسانيين ودينهم الزرادشتي الصارم المتزمّت المفروض عليهم بحدّ السيف أي بالإكراه وبدون رضاهم ولا اختيارهم.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

القرن السابع الهجري أو الثالث عشر الميلادي
عصر جلال الدين الرومي

أدّى نجاح السامانين في إنشاء دولتهم المستقلة بخراسان وما وراء النهر، في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، إلى توالي ظهور الكيانات الإسلامية المستقلة ذات النزعات الانفصالية الظاهرة، كالدولة الفاطمية، والبويهية، والسلجوقية، والحمدانية، والزنكية «الأتابكة»، والأيوبية، والغورية، والخوارزمية، ثم بني عثمان، والمغول... إلخ. هذا في بلاد المشرق الإسلامي، أما المغرب الإسلامي فالدول أيضاً كثيرة، ربما كان أهمها دولة بني عباد، ودولة المرابطين ودولة الموحدين.

وفي عصر جلال الدين الرومي، موضوع بحثنا، تقسَّمت الساحة الإسلامية إلى أربعة أقسام واضحة على الشكل الآتي:

1- الدولة العباسية ومركزها بغداد.

2- الدولة الأيوبية في الشام ومصر واليمن.

3- الدولة الغورية ثم الخوارزمية وأخيراً دولة المغول والتتار، وقد حكمت الأوليان في خراسان وما وراء النهر وتركستان وإيران، أما المغول فحكموا كل تلك البلاد بعد أن أسقطوا حكامها

Twitter: @ketab_n

المذكورين وأضافوا إليها دولة بني العباس «بغداد» والأناضول، عدا اسطنبول وما جاورها إذ ظلتْ بأيدي الأوروبيين حتى الفتح العثماني. وأخذ المغول الأناضول من أيدي السلاجقة.

4- دولة الموحدين (بني عبد المؤمن) في الأندلس والمغرب.

وهناك إمارات صغيرة أخرى أغفلنا ذكرها منها بعض الولايات العربية، وإمارة بني ارتق في ماردين وما جاورها... إلخ، ضربنا عنها صفحاً لأننا لم نجد لها أية صلة بموضوع البحث.

في الصفحات الآتية أحاول أن أرسم صورة، أرجو أن تتّسم بالوضوح، لهذه الدول الإسلامية واحدةً بعد الأخرى لعلّها تكون خلفية مناسبة لإبراز ملامح بطل دراستنا: جلال الدين الرومي.

1- الخلافة العباسية في بغداد:

بمقتل السلطان طغرل بك في المعركة التي جرت في بلدة (الري) بإيران بينه وبين (خوارزمشاه تكش) سنة 590هـ، بتعضيد من جيش الخليفة العباسي الناصر لدين الله انتهى حكم السلاجقة لإيران والعراق، الذي استمرّ قرناً ونصف القرن تقريباً، تدهور في آخره الاقتصاد وخرب العمار وأفل نجم الشعر العربي، بسبب تأخر السلاجقة المتأخرين على العروش والأراضي، على أن العصر الذي سبق هذا العهد، أي عصر البويهيين، وهو القرن الرابع الهجري وبداية القرن الخامس، اقتضى أن تتواصل الدولة البويهية، لا سيما في عهد ملوكها الأوائل، مع المناخ الثقافي الحرّ الذي ساد العالم الإسلامي وقتئذٍ. ففي عهد البويهيين ومعاصريهم من الأمراء المسلمين في أطراف المملكة الإسلامية، نبغ ابن سينا والفارابي

Twitter: @ketab_n

ومسكويه والبيروني من المفكرين، وأبو حيان التوحيدي وبديع الزمان الهمداني، وأبو الفرج الأصفهاني، وابن شهيد، وابن رشيق القيرواني، وأبو بكر الخوارزمي، وأبو إسحق الصابي، وابن العميد، والثعالبي، والصاحب بن عباد، والقاضي التنوخي من الكُتاب، وأبو الطيب المتنبي وأبو العلاء المعري وابن نباتة، وابن هاني، وأبو فراس الحمداني، والسري الرفاة، ومهيار الدليمي، والشريف الرضي، وابن حجاج وغيرهم من مشاهير الشعراء، وفاخرتْ العربية بعلمائها الأعاظم: الأمدي، أبو علي الفارسي، أحمد ابن فارس، الجوهري، الزبيدي، الأشبيلي، السيرافي، القالي، الإهليلي، هذا فضلاً عن كبار المؤرخين كالمسعودي، وأبي نصر السراج، وابن النديم، والعتبي والهلال الصابي وابن حزم، والخطيب البغدادي والبيهقي، وابن حيان الأندلسي... إلخ. وقد اختار البويهيون وزراءَهم من بين كبار كُتّاب النثر الفني كابن العميد والصاحب بن عباد وأبي اسحق الصابي وبسطوا رعايتهم على الموهوبينَ من الشعراء والأدباء والمفكرين ممّا كان له الأثر الأعظم في تحفيز المواهب وتفجُّر القابليات الفكرية والفنية.

تميّز النصف الثاني من القرن الخامس الهجري بهيمنة العناصر غير العربية على جميع أراضي العالم الإسلامي، وكانتْ السيادة على الأخصّ للعنصر التركي، فالدولة السلجوقية وأجنحتها في الأناضول والعراق وإيران، والزنكيون (الأتابكة) وأتباعهم الأيوبيون، ودولة بني ارتق، ومماليك الأيوبيين وشاهات خوارزم وشاهات أذربيجان، كل هذه الممالك والإمارات كانت تركية، وأخيراً ظهر المغول على مسرح الأحداث وهم، وإن لم يكونوا من الجنس التركي إلا أنهم

Twitter: @ketab_n

سكنوا الأراضي المجاورة لتركستان في المشرق الأقصى ولعلّهم جنس من القبائل التركية أيضاً، لقد كان خضوع العالم الإسلامي لهذه الدول التي لا تزال في أطوار بداوتها نذيراً بزوال السيادة العربية وانحسارها نهائياً. فليس غريباً أن تنكمش اللغة العربية منذ القرن السادس الهجري وتتقيد آدابها بشكلية زخرفية ميتة وينتهي دور الإبداع في الشعر العربي.

من ناحية أخرى تميَّز هذا العصر بنبوغ كبار العلماء والموسوعيين، والمؤرخين والفقهاء وأبطال الرحلات الخطرة، والمتصوفة الذين صار لهم نفوذ هائل بين الطبقات الشعبية. على أنّ دور السلاجقة في كلّ هذا التطور لا يمكن نكرانه. حسبهم فخراً أنهم أسَّسوا المدارس النظاميّة الشهيرة، وأولها نظاميّة بغداد التي أنشأها وزيرهم الكبير نظام الملك.

في قائمة مشاهير مؤرخي هذه الحِقبة يمكن أن نُذَكّر القارئ بابن خلكان وابن الأثير وياقوت الحموي، وابن الأنباري، وابن النجار، وابن الدبيثي، وابن عساكر، والسمعاني، والكلبي، وابن الساعي، والعماد الأصفهاني، وابن خاقان، وابن الفقطي، وابن العديم... إلخ. ومن الفقهاء برزتْ أسماء ابن الجوزي وفخر الدين الرازي وأبو حامد الغزالي وأبو السعادات ابن الأثير وابن أبي حديد... إلخ. وفي علوم اللغة نبغ جار الله الزمخشري، وأبو البقاء العكبري، وابن الحاجب، والحريري، والميداني، وأبو نزار الملقب ملك النحاة وأبو منصور الجواليقي، وابن الشجري والخطيب التبريزي، وعبد القاهر الجرجاني... إلخ. في هذا العصر أيضاً تكامل أدبُ الرحلات وألّفت أحسن المصنفات في مغامرات

Twitter: @ketab_n

الأسفار، ومن أشهر الرحالة الكُتاب ابن جبير، والإدريسي، وناصر خسرو، والبيروني. ومن محاسن هذا العهد ظهور طائفة من أعظم العلماء والفلكيين والأطباء والرياضيين منهم نصير الدين الطوسي وعمر الخيام وابن دانيال والبديع الإصطرلابي وابن البيطار وغيرهم.

على أن التصوف، هو الذي حظي بالنصيب الأهم من عناية السلاجقة واهتمامهم، ولذلك عُدَّ عصرُهم عصر انتصار الحركة الصوفية. أشهر متصوفي العصر: أبو القاسم القشيري، وشهاب الدين السهروردي القتيل، وعبد القادر الجيلاني، وأحمد يسوى، وابن عربي، وابن الفارض الشاعر، وتاج العارفين الشيخ الحسن بن عدي، وأبو الحسن الشاذلي، والشيخ ابن الرفاعي... إلخ.

إنّ انطفاء شعلة الشعر العربي التي صادف وقوعها في هذه الفترة أعقبه، وذلك أمر طبيعي، ازدهار الأدب الإسلامي المكتوب بلغات أخرى غير العربية، ولأنَّ السلاجقة اتخذوا الفارسية لغةً رسمية لدولتهم، فإنَّ ازدهار الأدب الفارسي في هذه الحقبة كان شيئاً متوقعاً. ممّن نبغ من شعراء الفرس عمر الخيام، وسنائي، وفريد الدين العطار، ونظامي، وسعدي الشيرازي، ومن الكُتاب: كاتب جلبي وناصر خسرو، وكلهم كتب وألّف بالفارسية، على أنّ جلال الدين الرومي الذي كتب بالفارسية أيضاً، لم يكن فارسياً وإنما هو تركي، وقد تعصّب له السلاجقة وأحبّوه ربما لهذا السبب في جملة الأسباب الأخرى.

ومع أن الأدب في هذا العصر كُتب بالفارسية، فإنَّ المؤلفات العلمية تواصلتْ كتابتُها باللغة العربية مثلما كان الأمر في السابق إذ حافظت العربية على قوتها من طريق علمائها الأفذاذ المشار إليهم

Twitter: @ketab_n

وبواسطة قانون الاستمرارية الطبيعي. ومن الطريف أنّ بعض الموهوبين من غير العرب استعمل اللغتين في آنٍ واحد، إذ كتب شعره بالفارسية، ودوَّن أفكاره العلمية بالعربية وفي رأس هؤلاء: الشاعر العالم الرياضي عمر الخيام.

إنَّ قصيدة الطغرائي (أبي إسماعيل)، وزير مسعود السلجوقي الملقبة بلامية العجم (نسبة إلى عصر الأعاجم الذي كُتبت فيه) ربما عُدَّتْ أصدق وثيقة تاريخية لهذا العهد، لقدرتها على إزاحة الستار عن هوان الشعر العربي منذ القرن السادس أو نهاية القرن الخامس الهجري، وهي تعبّر عن مشاعر الاستيحاش والحزن اللذين صارا يحزّان في قلوب جميع الشعراء العرب في ذلك العصر. من (لامية العجم) نختار الأبيات الدالّة الآتية:

فيم الإقامةُ بالزوراء لا سَكَني
بها ولا ناقتي فيها ولا جملي
ناءٍ عن الأهل صفر الكف منفرد
كالسيف عُرّي متناهُ عن الخلل
فلا صديق إليه مشتكى حزني
ولا أنيس إليه منتهى جذلي
أريد بسطة كفٍّ أستعين بها
على قضاء حقوق للعلى قبلي
والدهر يعكس آمالي ويقنعني
من الغنيمة بعد الكدّ بالقفل
حبُّ السلامة يثني همَّ صاحبه
عن المعالي ويغري المرء بالكسل

Twitter: @ketab_n

أهبتُ بالخطّ لو ناديتُ مستمعاً
والحَظُّ عني الجهّال في شغل
غالي بنفسي عرفانيّ بقيمتها
فصنتُها عن رخيص القدر مبتذل

ثم إن الشاعر الملقب (حيص بيص) وكان أيضاً من المقربين إلى السلاجقة يعلن بصريح العبارة أنّ حكام عصره ينفرون أو لا يتذوّقون الأدب العربي الإبداعي مفضّلين عليه زخارف القول ومبهرجات الكلام:

عجبوا لعلمي كيف أكتمهُ والشعر عني سائرٌ يسري
فأجبتهم لم أخفه عبثاً لكنّ لمعنى غامض السر
ورأيتُها خدعاً مزخرفةً فطلبتُها بزخارف الشعر

وكذلك اشتدّت موجة التكلُّف والشكلية اللفظية في أدب العرب لتلك الفترة، حتى بلغتْ ذروتها في نثر القاضي الفاضل وزير صلاح الدين الأيوبي، وعُدَّ هذا العصر عهد اضمحلال الأدب عند العرب وازدهاره لدى الشعوب الإسلامية الأخرى التي أتاح لها تشجيع الحكام المسلمين من غير العرب أن تفجِّر قدرات لغاتها هي الأخرى، وبذلك تهيأ لتلك اللغات أن تقدِّم ضروباً جديدة من الأدب، لم يعرفها أدبنا العربي، لا سيما الشعر الذي يعبِّر عما وُصفَ بالعشق الإلهي اللصيق بالصوفية وشيوخ الطُرق، والذي انتقل إلى أدبنا من طريق التأثّر الثقافي، وقد تمَّ ذلك بعد ذيوع التصوف، بشَكله الأجنبي، في ثقافتنا وحياتنا العربية منذ القرن الثالث الهجري.

Twitter: @ketab_n

وعلى الرغم من سياسة الشدَّة التي أخذ بها السلاجقة في حكم الشعوب الإسلامية التي وقعتْ تحت أيديهم، فإنَّ ذلك لم يمنع من ظهور التصدُّع في أركان هذه الدولة منذ عهود نشأتها الأولى، وكان العامل الأساسي في ذلك تنافس أمرائها فيما بينهم على السُلطة ومن أجل جرّ المغانم والمكاسب، ذلك التنافس الذي كان يؤدي، في الأغلب الأعم إلى سفك الدماء ووقوع الفتن والاضطرابات وانتشار الفوضى وخراب البلاد. ويستطيع أيّ دارسٍ معاصر أن يراجع تاريخ (الكامل) لابن الأثير، الذي لم يُظهر أيّ عداء أو تحيّز ضدهم، ليطلّع على الأحوال والكوارث التي عانتها البلاد العربية والإسلامية على أيديهم. ويعتقد البروفسور برنارد لويس، وغيره من المتخصصين في الدراسات الإسلامية والعربية، بأنّ الخراب أو الدمار الذي أشاعه السلاجقة في أرجاء الأراضي الإسلامية كان المسؤول المباشر في تحفيز الصليبيين للهجوم عليها، وهو يعدّ الحملات الصليبية (تجربةً مبكرة للتوسع الاستعماري الغربي)، كذلك فإنّ الأوضاع السيئة المذكورة هي التي أثارت مطامع جنكيز خان فشرع بتوحيد القبائل المغولية، الباحثة بلهفة عن مراعٍ جديدة لمواشيها، ثم سارَ بها نحو الغرب الإسلامي منذ عام 616 هجري، في أكبر حملة تخريب عرفتها البشرية حتى ذلك الوقت، ولولا بطولة صلاح الدين يوسف بن أيوب، وخلفائه من الأيوبيين، ولولا حزم مماليكهم الذين أعقبوهم في حكم الشام ومصر، وتفانيهم في الدفاع عن أراضيهم التي امتلكوها بحدّ السيف، لكان في مستطاع الهجمتين الصليبية والمغولية، أن تقضيا على حضارة العرب الإسلامية القضاء المبرم النهائي. بعد تفصيل وضع السلاجقة، نعود إلى حديث

Twitter: @ketab_n

العباسيين الذين أغفلناهم حتى الآن، بسبب غلبة السلاجقة على الحُكم منذ احتلالهم بغداد في منتصف القرن الخامس الهجري. بحيث لم يبقَ للعباسيين من شؤون الحكم غير اسم الخليفة المضروب على السكّة، والدّعاء له على المنابر في خطبة الجمعة. ففي سنة 575هـ ولي الخلافة الناصر لدين الله، الذي تسلَّم السلطة والدولة السلجوقية آيلة إلى السقوط، والخلافة العباسية تحاول وتتحين الفرص للتخلص من سيطرتها. ولا شك أنّ الناصر عرف كيف يستفيد من الظروف لتحقيق ذلك الخلاص، وقد تمّ له ما أراد بمقتل طغرل بك السلجوقي عام 590هـ في إيران، على ما ذكرنا. ومن ذلك اليوم، دخلتْ الدولة العباسية في عهدٍ جديد استمر أكثر من عقدين من الزمان، ذلك أنّ الناصر، المشهور بالدهاء والمواهب الفكرية والأدبية، على ما تؤكّده كتابات بعض المؤرخين مثل ابن الساعي وابن الطقطقي والرحالة ابن جبير، وتؤكده دراسات المستشرقين المتخصِّصين في التاريخ الإسلامي مثل بروكلمان وبرنارد لويس وغيرهما، وقد وفّق إلى تجديد سيطرة الخلافة على كثير من المقاطعات الإسلامية المنفصلة أو نجح على الأقل في استعادة بعض أمجاد دولة العباسيين، بعد أن زالت وانطوت منذ قرنين من الزمان، أي منذ دخول البويهيين بغداد.

ومن الممكن التأكُّد من قدرات الناصر السياسية، بمراجعة تاريخ ابن الأثير «الكامل» وابن الأثير منحرف عنه أشدّ الانحراف، ومع ذلك فإنه لم يستطِع الإضراب عن سرد الأحداث الخطيرة التي وقعتْ في المملكة الإسلامية أيام الناصر، فعرف هذا كيف يحسِنُ تدبيرها، حتى أطلق عليه بعض المؤرخين لقب (أسد بني العباس)،

Twitter: @ketab_n

وشبَّهوه بأبي جعفر المنصور، باني دولتهم، وممّا يؤيد كل هذا أيضاً، الموقف المتحيز لأنصار السلاجقة ضدّ الناصر وعهده، وقد حذا حذوهم في هذا، الشيخ (أحمد أفلاكي)، كاتب سيرة جلال الدين الرومي في الكتاب الذي ألّفه عنه، وهو **رقاب العارفين** باللغة الفارسية، واطَّلعتُ عليه بكامله مترجماً إلى اللغة التركية فضلاً عن ترجمتي لأغلب فصوله، إلى اللغة العربية، إذ لا توجد له حالياً ترجمة عربية في أسواقنا(*) وقد لحظتُ فوراً أن (أفلاكي)، المنحاز جداً إلى السلاجقة، لا يفوّت أية فرصة لمهاجمة (خليفة بغداد) عند وصول عائلة جلال الدين الرومي إليها، في طريق هجرتها إلى الأناضول. وكان الخليفة يومئذٍ: الناصر لدين الله كما تؤكده كل المصادرة التركية والإنجليزية والعربية التي اطَّلعتُ عليها.

أخيراً، فإن أستاذنا الجليل المغفور له د. مصطفى جواد كان من أشد المؤرخين إعجاباً بالناصر، وإشادةً بحسن سياسته، ولا شك أن شهادة هذا العلامة، بما عرف عنه من دقّة التحقيق وشدة الحرص على الأمانة التاريخية، هي القول الفضل في مثل هذه الشؤون. ممّا نقمه ابن الأثير على الناصر صفة التذبذب، فهو يراه متقلباً لا يلتزم بمبدأ، من ذلك موقفه المتناقض في قضية عبد السلام، حفيد الشيخ الصوفي عبد القادر الكيلاني. كان عبد السلام هذا من عمال الناصر على بعض الولايات، ولمّا بلغ أسماع الفقهاء اهتمامه بعلم الأوائل (الفلسفة) ثارت ثائرتهم (إذ كانت الفلسفة في العصور الوسطى ترادف عند العامة، معنى الكفر والإلحاد)، وبعثوا إلى الناصر

(*) ترجمتُ الكتاب لنفسي وليس للنشر.

Twitter: @ketab_n

يطالبون بعزل عبد السلام ومعاقبته أيضاً، وممّن اشتد عليه في هذا، الواعظ الحنبلي الشهير أبو الفرج ابن الجوزي، وقيل إنه كان يطعن في جدّه الشيخ الجليل عبد القادر الكيلاني (والحنابلة كانوا في تلك العصور يعادون التصوّف). فاستجاب الناصر لهم وأمر بكبس دار عبد السلام واستخرج ما فيها من كتب وأحرقها علناً. يقول شاهد عيان أنه رآهم يحرقون مصنفات علمية نفيسة لا صلةَ لها بالفلسفة بحجة أنها (من الكفريات). ثم سيق عبد السلام إلى السجن، ولولا شفاعة والده (عبد الوهاب) ابن الشيخ عبد القادر الكيلاني لتعرَّض للموت. بعد مضي عام واحد أطلق سراح عبد السلام وأعيد إليه الاعتبار ورُفعتْ منزلتُه الوظيفية في الدولة، ولم يكتفِ الناصر بهذا وحسب، وإنما فوّض عبد السلام حقَّ محاكمة أعدائه الذين حرضوا عليه، وفي مقدمتهم ابن الجوزي ذاته على علوّ مقامه بين الناس يومئذٍ. وهكذا اكتمل انتقام عبد السلام من جميع أعدائه.

فهل كان الناصر متذبذباً حقاً؟

الواقع أنّ موقف الناصر إنّما يفسره اضطراره إلى مجاراة السلاجقة أثناء سيطرتهم على إيران والعراق في أوّل عهده بالخلافة. وما كاد يشعر بزوال ضغطهم عليه، حتى غيّر سياسته على ما أشرنا إليه سابقاً، وكان موقفه من قضية عبد السلام ضمن هذا الخط. ومثل هذه الأشياء تقع دوماً في عالم السياسة. والحال أنّ ابن الأثير يتوصل إلى التفسير ذاته في موضع آخر من الكتاب حين يعترف بأنَّ الناصر كان (يتشيع) وهو أمرٌ غير وارد بالنسبة إلى العباسيين. ومن المعلوم أنّ السلاجقة والأيوبيين الذين يواليهم ابن الأثير كانوا على

Twitter: @ketab_n

المذهب الشافعي، ويحدّثنا التاريخ بأنَّ بناء المدارس النظامية على عهد السلاجقة كان من أجل ترسيخ المذهب الشافعي بإزاء الحركات الإسماعيلية، والمذاهب الباطنية التي أراد الفاطميون وأهل الباطن إشاعتها في تلك الأزمان، ولذلك السبب عينه أصرّ الأيوبيون على مطاردة الدعاة الفاطميين وجميع مؤيديهم، وحرصوا على تحويل الجامع الأزهر إلى مركز لنشر المذهب الشافعي السني، في حين كان غرض الفاطميين من بنائه: ترسيخ المبادئ الإسماعيلية التي كانوا يعتنقونها.

قبل أن نودع أيام السلاجقة لا بدّ أن نلفت انتباه القارئ إلى مسألة هامة، وتلك هي تناقض الروايات المتعلقة بالحكم السلجوقي، فيما بين المؤرخين العرب من جهةٍ، وبين المؤرخين الأتراك من جهة أخرى، ففي حين يُعِد العرب، دولة السلاجقة، سبباً أساسياً في خراب ودمار العالم الإسلامي منذ منتصف القرن الخامس الهجري، حتى عهد سقوط السلاجقة أيام الغزو المغولي، يقف الأتراك موقفاً مغايراً تماماً، إذ كانوا وما زالوا مصرّين على إضفاء هالات المجد والعظمة على الدولة السلجوقية كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، ومؤلفاتهم في هذا الشأن خير دليل على ذلك، فما سرّ هذا التناقض؟

الواقع أن تاريخ التمدُّن التركي يمكنه أن يزيل الغموض الذي يكتنف هذه المسألة ذلك أن الدولة السلجوقية هي التي حفَّزت القبائل التركمانية، المُنْهَكة في القتال والتناحر على المراعي في سهوب تركستان بأواسط آسيا، قبيل القرن الخامس الهجري، على الانتقال من تلك الحالة البدائية إلى حالة مغايرة لها تماماً. فقد

Twitter: @ketab_n

انطلقت تلك القبائل في موجات متعاقبة، تقتفي آثار مواطنيها الجسورين المنتصرين وهم السلاجقة كلّما توسعوا في تقدُّمهم في البلاد الإسلامية غرباً. وهكذا تتركتْ مساحات شاسعة وبتشجيعٍ كامل من السلاجقة، من أراضي خراسان وما وراء النهر وفارس وأذربيجان والعراق، ولنجاح السلاجقة في طرد الروم من الأناضول راحوا يشجّعون التركمان القادمين من أواسط آسيا على الاستقرار في هذه البلاد الخصبة الغنية ذات الآثار البيزنطية العريقة، ونجح أعظم سلاجقة الأناضول: (علاء الدين كيقباذ) في توحيد الأناضول التركية تحت حكمه في القرن السابع الهجري جاعلاً من مدينة (قونيا) عاصمة له، ولم يبقَ للبيزنطيين من آسيا الصغرى غير القسطنطينية.

ومع الغزو المغولي وما رافقه من رعبٍ وهول، وفرار أهل خراسان وفارس وأذربيجان غرباً نحو أناضول السلاجقة، زاد تتريك هذه المناطق بتشجيع من المغول هذه المرة. حتى أصبحت أذربيجان تركية تماماً من ذلك الحين، بعد أن خرّبها جنكيزخان، ثم أعاد بناءها أحفاده وجعلوا من (تبريز) عاصمةً للمملكة المغولية كلها.

وعليه، فإنّ شعور الأتراك نحو السلاجقة لا يمكن أن يكون غير الإحساس بالتعظيم لهم وعرفان جميلهم والافتخار بهم كأعظم أبطالهم وكمؤسسين لدولتهم. أليسوا هم الذين نقلوهم من عهد البداوة والجهالة إلى عالم الحضارة والتمدن؟ بل جعلوهم أسياد العالم المتمدّن، وهم الذين كانوا قبل فترة قصيرة رعاة أغنام وخيول، لا يشغلهم غير البحث عن المراعي والكلأ شأن جميع البدو المترحلين.

من ناحية أخرى فإنّ المؤرخ التركي حين يكتب عن الدولة

Twitter: @ketab_n

السلجوقية فإنما يمجّد أسلافه، وتمجيد السلف طبيعة من طبائع البشر. أمّا العرب والمسلمون من غير الترك فهم لا يستطيعون إلّا أن يقيموا المقارنة بين ما كانت عليه حضارتهم الإسلامية قبل الغزو السلجوقي، وبين ما وقع عليهم من بعد ذلك، وشتّان ما بين الحالين.

بعد هذا نعود إلى سيرة الناصر لدين الله لنقول إنّ من بين الأمور التي بَغّضَتْ الناصر إلى ابن الأثير، ميل هذا الخليفة إلى علم الأوائل: الفلسفة! وممّا يدل على هذه النزعة لدى الناصر، ما ورد في **معجم أدباء ياقوت** في ترجمة الكاتب الضرير كامل بن الفتح بن سابور:

(كان ابن الفتح الضرير أديباً ذكياً جداً قرأ العلوم، وأخذ عنه أهل الأدب ببغداد شيئاً كثيراً، قيل إنه كان يدخل على الخليفة ويحاضره، وأنه علّمه علم الأوائل).

مسألة أخرى أثارت نفور ابن الأثير ونفور زملائه السلفيين من الناصر، وهي اعتراف الخليفة رسمياً بمؤسسات (الفتوة) المنتشرة وقتئذٍ في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وتنصيبه لنفسه رئيساً لها، ففي سنة 607هـ (وردت رسل الناصر لدين الله إلى ملوك الأطراف أن يشربوا له كأس الفتوة، ويلبسوا له سراويلها، وأن ينتسبوا إليه في رمي البندق ويجعلوه قدوتهم فيه) بحسب رواية ابن الأثير الذي يجعل من هذه الحادثة تهمةً تبيح له حقَّ الانتقاص من الناصر، فهو يصفُه بعد أن يخبرنا بوفاته سنة 622هـ، بما يلي (كان الناصر قبيح السيرة، منصرف الهمة إلى البندق، والطيور المناسيب، ويلبس سراويلات الفتوة)! ويحار الدارس المعاصر في تفسير انزعاج ابن

Twitter: @ketab_n

الأثير من انضمام الناصر إلى منظمات الفتوة، وهي المؤسسات الشعبية التي كانت في تلك العصور تمثل أصحاب الحرف والصُنّاع والأصناف في العالم الإسلامي وتمتلك القدرة الحقيقية على تنظيمهم وقيادتهم، في أيام الاضطرابات وهياج الفتن، وأثناء انفلات حبل الأمن وقت حصار المدن أو استبدال الأمراء أو مقتلهم، فكانت منظمات الفتوة تبادر، بدون أية أوامر حكومية، إلى تهدئة الناس وحلّ مشاكلهم، بحسب ما يحدثنا به المؤرخون الأتراك ويؤكدونه، كذلك فإن المستشرقين يجعلون لمؤسسة الفتوة دوراً خطيراً وحاسماً في قيادة أصحاب الحرف في البلاد الإسلامية، لا سيما خارج العالم العربي مثل تركيا وإيران وما جاورهما، وسوف نجد تأكيد هذا كله في سيرة جلال الدين الرومي. ويبدو أنّ ارتباط بعض منظمات الفتوة ببعض الجهات الإسماعيلية بشكلٍ أو بآخر هو الذي أثار غيظ ابن الأثير، لأن الإسماعيليين كما هو معروف كانوا يثيرون رُعْب جميع حكام ذلك العصر وابن الأثير لم يكن مستقلاً عن بعض أولئك الحُكام.

وينسب بروكلمان إلى الناصر الذكاء والدهاء لأنه بانضمامه إلى أهل الفتوة يكون قد ضرب عصفورين بحجر، فهو من ناحية سيكون مطلعاً على ما يجري في خفايا المواقع الشعبية مهما بعدتْ، وهو من ناحية أخرى يسترضي (الرعايا) بأن يكون عضواً فخرياً في منظماتهم. في هذا الموضع ربما كان من المفيد أن توضح بأن ابن الأثير معاصر للناصر، .وتوفي بعده بعقد واحد من السنين، كذلك فإن المؤرخ المتحمّس للناصر (ابن الساعي) معاصر له أيضاً، وما علينا نحن إلا الموازنة بين الجانبين لاستخلاص الحقائق.

Twitter: @ketab_n

2- الأوضاع في مصر والشام:

تعدّ موقعة حطين سنة 583هـ، أول انتصار حاسم حقّقه المسلمون على الغزاة الصليبيين، فكان له صدى عظيم في نفوس الجميع، والرسالة التالية التي كتبها الوزير العماد الأصفهاني باسم صلاح الدين الأيوبي، يزفّ فيها بشرى، الفتح الأكبر، إلى خليفة المسلمين الناصر، توضح شعور الابتهاج الذي عمَّ قلوب الناس بالنصر الباهر (الحمد لله الذي أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف، وقهَر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف... وذخر هذا الفتح الأسنى، والنصر الأهنى، للعصر الإمامي الناصري على يد الخادم أخلص أوليائه، والمختصّ من الاعتزاز باعتزائه وانتمائه، وهذا الفتح العظيم قد انقرضت الملوك الماضية والقرون الخالية على مسرة تمنيه، وحبرة ترجيه، فالحمد لله الذي أعاد القدس إلى القدس، وحقّق من فتحه ما في النفس، وجعل عزَّ يومهِ ماحياً ذلّ أمسه. وهو فتح الفتوح قد تعالى أن يحيط به وصف، وعبد اللّه في البيت المقدس سراً وجهراً، ومُلكتْ الأردن وفلسطين غوراً ونجداً وبراً وبحراً ... إلخ).

تبين هذه الرسالة أنّ البطل صلاح الدين يعدُّ نفسه (الخادم) المخلص للناصر وهو يعتز بانتمائه إلى دولته، ويعتبر انتصاره على الصليبيين ذخراً لعهد هذا الخليفة.

على أن معركة حطين الكبرى لم تكُن أولى إنجازات صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولا آخرها، فلقد استطاع قبل ذلك بسنين أن يقضي على الدولة الفاطمية، وعلى جميع مؤسساتها المتعاطفة مع الحركة الإسماعيلية، وذات الاتصال بدولة القرامطة في البحرين

Twitter: @ketab_n

والإحساء. فليس عجيباً أن يشعر العباسيون بأشدّ الامتنان للدولة الأيوبية التي خلّصتهم من أشدّ منافسيهم خطورةً، أي (الخلفاء) الفاطميين.

ومن المنجزات العظمى لصلاح الدين، تحقيقه للوحدة السياسية والاقتصادية بين مصر والشام أثناء حياته، لكن اختلاف أولاده وأولاد أخيه (العادل) على ميراثهم من الأراضي التي خلّفها لهم صلاح الدين وأخوه، أدّى إلى استئثار كلٍّ منهم بما في يديه من البلدان، وبذلك انفكّت الوحدة تلقائياً. على أنَّ هذه الوحدة قامت من جديد بين مصر والشام على عهد المماليك (مماليك الأيوبيين) الذين حكموا البلدين منذ منتصف القرن السابع الهجري، أي بعد وفاة صلاح الدين بستين عاماً تقريباً.

لكن الخدمة العظمى التي قدَّمها صلاحُ الدين للعالم الإسلامي كانت بدون ريب، وقوفه الشجاع الحازم في وجه الصليبيين، ونجاحه في تحقيق انتصارات متوالية عليهم، منعتهم فيما بعد من تحقيق بقية مخططاتهم. ثم إن صلاح الدين نجح، رغم ظروف الحرب المستمرة، في الحفاظ على اقتصاد مزدهر وأمين للبلاد التي يحكمها، فعاش المصريون والسوريون في رخاء وأمان بفضل السياسة الذكية التي اتبعها، ومن ذلك أنه كان يعقد المعاهدات المختلفة مع حكّام الدول القريبة والبعيدة لضمان أمن الطرقات، وتسهيل سفر الأفراد والقوافل التجارية، فكان الناس يلهجون بحمدِ سياسته، ومن أشهر أولئك السائح ابن جبير، الذي يفيض كتاب رحلاته بالثناء على بطل حطين، وتمجيد خصاله الشهيرة، من عدلٍ ونزاهةٍ وتقوى وعفة. وممّا يؤكد هذا كله اتفاق الكُتّاب الغربيين

Twitter: @ketab_n

الذين أرخوا للحملات الصليبية مع الكُتّاب المسلمين جميعاً في حسن رأيهم بصلاح الدين.

بعد وفاة صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة 589هـ حرص أخوه الملك العادل، ثم (الكامل)، ابن العادل، على لمّ شمل الأيوبيين والحفاظ على قوة دولتهم، ولكنَّ نجاحه في ذلك لم يدُم طويلاً، فما كاد (العادل) يفارق الحياة، حتى تداعت أركان الدولة الأيوبية وانقسمت إلى دويلات صغيرة، ضئيلة ضعيفة شجَّعتْ الصليبيين من جديد على شن الغارات، واستثارت مطامع المغول القادمين من الشرق، من أجل اقتسام المغانم والأراضي مع أيّ مالك جديد.

على أن ضعف الدولة الأيوبية يكمن في إعجاب مؤسِّسيها الأوائل بسياسة السلاجقة وسعيهم الدائم لاقتفاء آثارها. فمن المعلوم أن صلاح الدين، نشأ في خدمة الدولة الأتابكية الزنكية، وهي فرع من فروع الدولة السلجوقية، ومع أن نور الدين زنكي (أستاذ) صلاح الدين كان معدوداً من أقوى حُكّام العصر، فإنه إلى ذلك لم يشتهر كنصير للثقافة والعلم والشعر، بل بالعكس كان، شأنه شأن السلاجقة، سَلَفياً لا صلة له بمنتجات الحضارة الثقافية. كان همُّه محصوراً باستجلاب رضا العامة من طريق تشجيع الصوفية وتكريمهم، ولم يكن الأيوبيون مخالفين لزملائهم في هذا كله. فالزوايا والخانقاهات تُبنى في كلّ مكان، والأموال لا توقف إلا عليها، ومصر والشام تستقبلان الصوفية بالترحاب والتهليل، فليس عجيباً أن ينبغ (ابن الفارض) في أراضي مصر، ويلقى من المصريين كلّ ذلك التقديس، رغم أنّ شعره يفيض بكثير من معاني الحلول

Twitter: @ketab_n

ووحدة الوجود، التي قُتل وصلِب وعُذِّب بسببها الحلاج والسهروردي وغيرُهما من كبار المتصوفة، وليس صدفةً أن يختار ابنُ عربي الشام مهجراً، ليستقرّ فيه ليقضي السنوات العشرين الأخيرة من عمره هناك، معززاً مكرماً منصرفاً إلى التأليف ناعم البال من حدثان الزمان، مفضلاً هذه البلاد على موطنه البعيد: الأندلس التي كان يحكمها يومئذٍ الموحدون مع أنهم كانوا أيضاً يشجعون المتصوفة على عادة أهل ذلك العصر.

والواقع أن السلاجقة والأتابكة والأيوبيين جميعاً ثم المماليك من بعدهم، كانوا بعيدين عن تذوق الأدب عموماً فلا عجب أن يستبدلوا بالشعر الأصيل في عهودهم النظم المبهرج، وبالفلسفة التصوف، وبالنثر الفني الجادّ الحي، الإنشاء المزخرف التافه الميت، وكل ذلك أمر مفهوم يمكن العثور على تفسير له في كون مؤسسي هذه الدولة وجميع ملوكها وسلاطينها المهمين، هم من أصول غير عربية ولا يمكن أن يتذوقوا آدابها. وقد تحنطَّت اللغة العربية كما رأينا منذ القرن الخامس الهجري، على أيديهم. ومن المعلوم أن الأدب هو نتاج لغوي، يقول الأديب الإنجليزي المعاصر: الدوس هاكسلي (بأن الإنسان يسبح في اللغة)، والتفكير ذاتُه، لا يكون بدون لغة كما تؤكِّده مثلاً مؤلفات د. نوري جعفر. وموت اللغة لدى أمة من الأمم أو شعب من الشعوب لا يعني غير موت ثقافته وآدابه وحتى علومه. وهذا هو سرّ احتفاء الشعوب القوية اليوم بلغاتها واهتمامها بها اهتماماً جوهرياً، أعني أنه ليس ناشئاً عن تعصُّب عنصري وإنما عن حرص على عقول أبنائها وقدراتهم الروحية، فلقد أثبتتْ التجارب العلمية بأنَّ الإنسان غير الناطق يبقى

Twitter: @ketab_n

محروماً من التفكير، إلى أن يتعلم اللغة، والإنسان في الواقع يفكّر باللغة، حتى لَيُعرف التفكير بأنه كلامٌ صامت.

ولقد أشرنا فيما سبق إلى أنَّ موت اللغة العربية أو ضعفها، حتى في العالم العربي منذ القرن الخامس الهجري، أدّى فيما أدّى إليه إلى انتقال مراكز الإبداع الأدبي والفكري والفني، إلى الحواضر غير العربية، لا سيما في بلاد إيران، فهناك نبع الفردوسي، في العهد الغزنوي، وعمر الخيام في العهد السلجوقي الأول، إضافةً إلى سعدي الشيرازي، وفريد الدين العطار بعد ذلك وظهر حافظ الشيرازي، في أيام التيموريين، وبالطبع فإنّ جلال الدين الرومي نفسه هو نتاج الدولة السلجوقية التي شجَّعتْ اللغة الفارسية وجعلتْها لغة الدولة الرسمية، ويجب أن ننتبه إلى أن جميع نوابغ الشعراء الذين ظهروا أيام السلاجقة، هم نتاج الفكر الصوفي في الوقت عينه، وهو أمر منطقي ومفهوم، وله صلة شديدة بموضوع هذا البحث.

ومن أخطاء الأيوبيين التي كانت سبباً أساسياً في انقراض دولتهم، حماسهم في استجلاب المماليك بأعدادٍ كبيرة، وقد جمع آخر سلاطينهم (الملك الصالح) عدداً ضخماً منهم أطلق عليهم فيما بعد اسم (مماليك البحرية) نسبةً إلى نهر النيل الذي يسمى في مصر بحراً، ربّاهم (الصالح) على الشجاعة والتفاني في خدمته، ليعينوه على الدفاع عن مصر ضد أعدائها الصليبيين والمغول وبعد وفاة الملك الصالح نجحت جاريته شجرة الدرّ في تدبير أمور الدولة أحسن تدبير، وخصوصاً أثناء هجوم الصليبيين على مصر، ممّا ساعد على انتصار المصريين على العدو، وبعد ارتقاء شجرة الدرّ عرش مصر تزوّجت أحد المماليك ذوي النفوذ الكبير بين المماليك

Twitter: @ketab_n

البحرية، لكنَّ هذه الزيجة كانت شؤماً على الاثنين فيما يظهر، بمقتلهما في تفاصيل لا موضع للتطرّق إليها هنا. بهذا تمَّ انتقال الحكم في مصر إلى أيدي المماليك، كان العددُ الأكبر من هؤلاء المماليك، من الترك والشركس، لكن كان هناك أيضاً عددٌ من الأكراد واليونان والأرمن وغيرهم، وكان الأيوبيون يفضلون الأتراك والشركس على البقية، ويقربونهم ويعتمدون عليهم.

بعد انقراض الدولة الأيوبية خُيِّل للمغول أنّ الوقت قد حان لمهاجمة مصر واحتلالها، وأرسلوا يهدِّدون ويتوعدون المماليك بضرورة الاستسلام. وكان من عادة المغول مع أهل البلاد التي يجتاحونها، أن يبعثوا إليهم مسبقاً برُسلهم، طالبين منهم بلهجة الآمرين إعلان الخضوع وقبول الهزيمة. وذلك حقناً للدماء، فمَن وافق على هذه الشروط، دفع الأموال المطلوبة ورضي بالمذلّة، ومن رفض تعرضَ لنقمة المغول التي تعني استباحة المدن ونهبها وحرقها وقتل جميع أهلها دون تفريق بين ذكور وإناث، أو بين شيوخ وأطفال. وقد نسبوا تخريب خراسان وأذربيجان إلى إصرار سلاطينها الخوارزميين على المقاومة، ورفضهم الخضوع والاستسلام. وفيما سبق أشرنا إلى انقراض دولة الخوارزشاهات على أيدي المغول.

لم يبدُ على المماليك أيّ أثر للخوف أو الرعب من وعيد المغول، بالعكس فإنهم أخذوا رسول المغول وقتلوه، زيادةً في التحدي وإيذاناً بابتداء الحرب. ووصلت الأخبار بأنّ المغول قد حشدوا جيشاً هائل الأعداد متألفاً من جميع الأمم التي خضعتْ لحكمهم خلال النصف الأول من القرن السابع للهجرة، وتقدم جيشهم بقيادة (الخان) كتبغا ابن هولاكو. والتقى المغول بالجيش

Twitter: @ketab_n

المملوكي الذي يقوده القائد (قطز) والقائد (بيبرس) في (عين جالوت بفلسطين سنة 659هـ) فدارت الدائرة على المغول وهُزموا هزيمة منكرة، وسقطت أسطورة الجيش الذي لا يقهر، وتمرغت سمعةُ المغول بالتراب على أيدي أبطال المماليك.

رَفعت معركةُ (عين جالوت) الكبرى منزلة المماليك في عالم المسلمين، من أقصاه إلى أقصاه، وشعر الناس بأنهم مدينون لأولئك الشجعان بالولاء والوفاء، فلقد أعادوا للإسلام كرامته، وانتصر من جديد على الوثنية والكفر، وهيأت هذه المعركة المجيدة للمسلمين أن يأخذوا ثأرهم من عدوهم الهمجي الذي طالما عانوا على أيدي جنوده الظالمين ما عانوا من عذاب وقهر. هكذا حصل المماليك على حق شرعي في حكم مصر وسوريا بلا منافس وفي لحظة الانتصار العظمى ضرب المملوك (بيبرس) ضربته! وقتل زميله المملوك (قطز) كي يستأثر وحدهُ بحكم البلاد، فأثبتَ من جديد أنه الممثل الشرعي لهمجية القرون الوسطى.

قيل إنّ سر انتصار بيبرس على المغول هو انتسابه إلى قبائل تعيش بجوار المغول في شمالي الصين، فهو أدرى بوسائلهم العسكرية وطرقهم القتالية، وقيل إنّ شجاعته في قتالهم تعود إلى أنه كان من ضحاياهم، فلقد كانوا هم الذين خطفوه من أهله، في عهد طفولته، وباعوه مع الغلمان، حتى وصل إلى الأيوبيين، الذين درّبوه على القتال وأكرموه حتى بلغ ما بلغ.

أسرع (بيبرس) بعد تلك الأحداث إلى مصر كي ينفرد وحدهُ بقطف ثمار النصر العظيم، وهناك حصل على لقب (السلطان) ولُقب بالملك الظاهر، ودخل اسم (الظاهر بيبرس) في صميم الأساطير

Twitter: @ketab_n

الشعبية الإسلامية التي أصبحت جزءاً أساسياً من تاريخ الإسلام.

بعد هذا التاريخ تحول مركز الإشعاع الحضاري العربي إلى مصر (القاهرة) عاصمة المماليك الذين احتفظوا باللغة العربية، لغةً رسمية لدواوينهم، على عكس المغول الذين جعلوا (الفارسية) لغتهم الرسمية. وحاول الظاهر بيبرس بدهائه السياسي المعروف أن يضفي مزيداً من الشرعية على حكمه، فاستقدم إلى مصر رجلاً قيل إنه من أبناء الخلفاء العباسيين، فنصَّبه خليفةً للمسلمين. وهكذا بدأت خلافةُ الظلّ العباسية بعد انقراض دولتهم في بغداد. أما بغداد فقد أضاعت أهميتها تماماً منذ استسلامها للمغول. وتحولت الأبصار نحو (تبريز) عاصمة الإمبراطورية المغولية منذ النصف الثاني من القرن السابع الهجري.

3- شرقي الدولة الإسلامية:

نحن الآن في الساحة الهامة التي جرتْ عليها الأحداث المتصلة بسيرة جلال الدين الرومي، وما نقصده ببلاد المشرق الإسلامي هو تركستان وما وراء النهر والغور والصفد وخراسان وأذربيجان وفارس وخوارزم وأرمينيا، تلك الأراضي التي ظلّت طوال العصر العباسي أشبه ببحر متلاطم الأمواج ما ينفكّ يفور ويغلي بالفتن والاضطرابات والصراعات الحادة، وربما كان بُعْدُ هذه المقاطعات عن مركز الدولة العباسية (بغداد)، عاملاً إضافياً ساعد على استمرار ظهور الحركات الانفصالية التي بدأت منذ القرن الثالث الهجري كردود فعلٍ على سوء تدبير وفساد سياسة العباسيين منذ انتهاء عصرهم الذهبي الأول.

Twitter: @ketab_n

ففي سنة 596هـ سار غياثُ الدين الغوري وأخوه شهاب الدين إلى خرسان، بعد أن وصلهما نبأ وفاة (تكش بن أرسلان خوارزمشاه) سلطان خوارزم والري، ونجحوا في احتلال بعض المقاطعات مثل نيسابور وطوس، لكن (خوارزمشاه محمد بن تكش) استطاع التغلب على الغوريين حالما تسلم السلطة بعد وفاة والده، واستردّ منهم المدن الخراسانية التي استولوا عليها.

بعد ذلك بفترة توفي غياث الدين الغوري ثم دبّر الإسماعيليون مؤامرة نجحوا من طريقها في اغتيال أخيه شهاب الدين الغوري الذي كان دائباً على مهاجمة معاقلهم والفتك بهم، كل ذلك هيأ لخوارزمشاه محمد بن تكش الفرصة لاجتياح بلاد الجبل وقزوين وهمدان وأصفهان، وغيرها من الأراضي الإيرانية التي كانت بأيدي الغوريين، وبهذا انقرضت دولة الغوريين التي يصفها ابن الأثير بأنها كانت (من أحسن الدول).

كان من نتائج اتساع سلطان خوارزمشاه ابن تكش أن خافهُ أمراء المقاطعات المجاورة، ومنهم شاهات أذربيجان الأتراك، الذين دخلوا في طاعته تفادياً لهجوم قد يشنّه على أراضيهم ودفعوا له الجزية. أما خوارزمشاه فقد امتدت أحلامه بعيداً وقرّ عزمه على خلع الناصر لدين الله، وتنصيب نفسه خليفةً للمسلمين بدلاً منه، ومن أجل تحقيق ذلك جهَّز جيشاً كبيراً وسار متوجهاً إلى بغداد، لكن تساقط الثلوج قبل موعدها، حال دون تنفيذ مخططه، فعاد مسرعاً إلى خراسان منتظراً قدوم العام المقبل.

لكن السنة الجديدة 616هـ غيّرت جميع أفكار خوارزمشاه، محمد، بل قلبتها رأساً على عقب، ففي هذه السنة المشؤومة على

Twitter: @ketab_n

المسلمين جميعاً كما سنرى، تحركتْ جيوش المغول بقيادة جنكيزخان نحو الغرب الإسلامي بحثاً عن مراعٍ جديدة لمواشيها، تماماً مثلما حدث للسلاجقة قبل ذلك بقرن ونصف، عبر جنكيزخان نهر (سرداريا) أي سيحون، واستولى بسهولة على بخارى، فما كان من خوارزمشاه محمد بن تكش إلا أن يسرع بجيوشه نحوه، لكن الهزيمة القبيحة كانتْ كلّ ما حصده من المعركة، واستسلم جنده، وعدَّ نفسه محظوظاً بنجاته وحيداً بعد مطاردة المغول له، واستطاع اللجوء إلى جزيرة صغيرة نائية في بحر قزوين اختبأ فيها، ومات بعد فترة قصيرة وحيداً مهموماً مقهوراً.

يعترف ابن الأثير في كتابه **الكامل** بأنّ قلمه لا يطاوعه على سرد الأحداث المريعة والنكبات الفظيعة التي حاقت بالعالم الإسلامي منذ تحرك جنكيزخان سنة 616هـ عازماً على ابتلاع الأراضي الإسلامية واحدةً بعد الأخرى، فبهزيمة خوارزمشاه، محمد، خلا الجو تماماً أمام المغول، فمضتْ جحافلهم الجرارة تجتاح البلدان دون أن تجدَ من يتجاسر للوقوف في وجهها وقد بذل (جلال الدين) بن محمد بن تكش خوارزمشاه محاولات كثيرة لردّ الاعتبار إلى سمعة والده، فظل لسنواتٍ عشر، يشنُّ الغارات على الجيوش المغولية، لكنه في النهاية لم يجد مفراً من الاعتراف بالهزيمة الكاملة بعد أن انفضّ عنه أغلب جنوده، واضطرّ إلى الاختباء في شِعب جبل معزول، وحيداً ذليلاً، مثلما وقع لأبيه من قبل. وقيل إنه مات مقتولاً على يدِ لصٍّ استأجره المغول لمطاردته في أيامه الأخيرة، وكان ذلك سنة 628هـ.

في (جلال الدين خوارزمشاه بن محمد بن تكش) تتباين آراء المؤرخين، ففي حين يُجمع المؤرخون العرب على انتقاده، وإلصاق

Twitter: @ketab_n

مختلف التُّهم به، يغالي الدارسون الأتراك في الثناء عليه وتمجيده، ورفعه إلى سماء المجد المعظمة. هذا كاتبنا ابن الأثير، يقول بعد تسجيل نبأ هزيمة جلال الدين خوارزمشاه سنة 628هـ، واصفاً سيرته (كان سيئ السيرة قبيح التدبير لمُلكه لم يترك أحداً من الملوك المجاورين له، إلا نازعه الملك وأساء مجاورته، من ذلك أنه حصر مدينة (شستر) وهي للخليفةْ، وسار إلى (دقوقا) فنهبها وأكثر القتل فيها وهي أيضاً للخليفة، ثم أخذ أذربيجان من (أوزبك)، وعادى الكرج وهزمهم، ثم عادى الملك الأشرف صاحب خلاط، ثم عادى علاء الدين كيقباذ، صاحب الروم «الأناضول»، وعادى الإسماعيلية وأكثر القتل فيهم، فكل من الملوك تخلى عنه ولم يأخذ بيده، وأضاف إلى ذلك أنّ عسكره اختلفوا عليه، وخرج وزيره عن طاعته).

ويكفُّ عز الدين ابن الأثير عن إكمال حكاية جلال الدين خوارزمشاه، بسبب اضطراره إلى إنهاء كتابه فجأة، بعد إصابته بالمرض الذي سيؤدي إلى وفاته سنة 630هـ، وننتقل إلى تاريخ (أبي الفداء) الذي سيعرِّفنا بتفاصيل أخرى عن الأيام الأخيرة لجلال الدين خوارزمشاه، فنعلم منه أن جنكيزخان أسر ابناً صغيراً لخوارزمشاه وقتله صبراً، «وهرب جلال الدين خوارزمشاه إلى نهر السند كسيراً فرأى والدته، وزوجته وجماعةً من نسائه وهنّ خائفات من الأسر، فأمر بهن جميعاً فغُرِّقن جميعاً في النهر!!» هذا الحادث الفظيع الذي لم يُسمَع بمثله في تاريخ الإسلام كله، وإنما نجد له نظائر كثيرة في حياة الهنود البوذيين بسبب معتقداتهم البدائية في ضرورة موت المرأة مع زوجها، وكذلك ضرورة موت جواريه أو عبيده، وهي عادة كانت

Twitter: @ketab_n

معروفة أيضاً لدى بعض الفراعنة، وكثير من الشعوب البدائية القديمة. نقول إن موقف جلال الدين خوارزمشاه هذا، إنما يثبت فقدانه لعقله في آخر أيامه، كما أثبته موقفه الآخر مع خادمه الميت (قليج)[1] هذا عن رأي مؤرخينا العرب في جلال الدين خوارزمشاه. أما الأتراك فإنهم يجعلون من سلطانهم التركي هذا بطلاً من أبطالهم القوميين العظام، ومسلماً من أشدّ المسلمين تقوى وفضيلة ورحمة، ومن هؤلاء الكُتّاب، الشاعر التركي القومي الحديث: نامق كمال الذي كتب عن جلال الدين مسرحيّة مؤثرة، رفعه فيها إلى سماء المجد والتضحية والفداء، وعدّه من شهداء الإسلام العظام. ولستُ أدري كيف يمكن التوفيق بين وجهتي النظر المذكورتين! المهم في كل هذا أن المغول مضوا من بعد ذلك يُكملون حملاتهم يخرّبون ويقتلون ويستبيحون المحرمات على حدّ وصف ابن الأثير لسيرتهم.

وفي عام 641هـ استطاعوا التغلب على مقاومة سلاجقة الأناضول الذين استسلموا بسرعة فاحتل المغول أراضي آسيا الصغرى، لكنهم عادوا فخرجوا منها، وعينوا (معين الدين براولة) نائباً عنهم في حكمها. وأبقوا الملوك السلاجقة كمجرد رموز لاستقلال مزيف.

---

(1) حدث في أثناء الهزائم التي عاناها جلال الدين خوارزمشاه أن مات خادم له يدعى (قليج) فأظهر من الحزن والهلع عليه ما يتجاوز الوصف، ثم أنه امتنع عن دفنه وأمر الجميع بإكرامه والعناية به، كأنه حيّ وراح يصطحبه حيثما حلّ وارتحل وكان يأمر خدمه بتقديم الطعام إلى (قليج) فيطيعون خوفاً من سيدهم المجنون حيث قتَل أحد خدمه لأنه تجاسر وقال أن قليج ميت، وظلت جثة قليج مع جلال الدين خوارزمشاه ، إلى أن اضطر إلى الفرار وحيداً، فأمر عندئذٍ بدفنه. هذه الحادثة يرويها ابن الأثير في **الكامل**.

Twitter: @ketab_n

وسقطتْ بغداد في يد هولاكو سنة 656هـ وتمّ انقراض الدولة العباسية. وانطوت صفحة عجيبة من صفحات التاريخ.

4- دولة الموحدين في الأندلس:

ليس في سيرة جلال الدين الرومي شيء ذو صلة بالأندلس وأهلها، لذا لم نجد ما يحوجنا إلى نشر صفحات التاريخ الخاص بهذه البلاد، ومع ذلك فإتماماً للفائدة نقول إن الأندلس خضعت لحكم دولة الموحدين منذ أوائل القرن السادس الهجري حتى منتصف القرن السابع الهجري. ويهمّنا من هذه الدولة موقفها من الفلسفة ومن التصوف.

جاء الموحدون إلى الحكم بعد دولة المرابطين أبناء وقرابة يوسف بن تاشفين. كان المرابطون قد عيّنوا الفيلسوف ابن باجة (المتوفى سنة 533هـ) وزيراً لهم، وكلّفوه بشرح أرسطو. وقد عرف ابن باجة ميله إلى الفارابي المعلم الثاني وتعصّبه له. كما عُرف عنه أنه كان ينتقد فكر أبي حامد الغزالي في كلّ مناسبة وقد تعرّضت مؤلفات الغزالي إلى الإهانة، بل التحريم في أيام المرابطين إذ اعتبروها من (الكفريات). ولما اجتمع المهدي بن تومرت، المؤسِّس الروحي لدولة الموحدين، بالغزالي في الشام، مضى الغزالي يلعن المرابطين ويدعو الله أن ينصر أعداءهم الموحدين عليهم، ليأخذوا له بثأره منهم.

وعندما هُزم المرابطون، وجاء الموحدون بالفعل إلى الحكم، أعادوا الاعتبار إلى مؤلفات أبي حامد الغزالي وبعكس ابن باجة مضى الفيلسوف ابن طفيل وزير الموحدين (المتوفى سنة 594هـ)

Twitter: @ketab_n

يهاجم الفارابي ويدافع عن الغزالي: ثم إن ابن طفيل مؤلف حي بن يقظان كان منحازاً إلى الفلسفة الإشراقية التي ظهرت أول ما ظهرتْ في مؤلفات ابن سينا، ونقلها عنه في القرن السادس الهجري المتصوّف السهروردي المقتول في الشام سنة 587 هجرية، وقيِّض لهذه الفلسفة أن تكتمل على يدِ الصوفي الأندلسي ابن عربي كما سيأتي في موضعه.

ثم إن ابن طفيل قدَّم صديقه الفيلسوف ابن رشد إلى مخدوميه الموحدين، فأكرمَه ملوكهم الأوائل أشدّ الإكرام، وبذلك استطاع أن يتفرّغ لشرح أرسطو، والإضافة إليه، وعُرف عن ابن رشد أنه كان يفضِّل أرسطو على بقية فلاسفة الإغريق، كما أنه حاول الابتعاد عن فكر أفلاطون بعكس الفارابي الذي حاول جهده أن يوفِّق بين أفلاطون وأرسطو.

حاول ابن رشد، مثل جميع الفلاسفة المسلمين، الذين سبقوه، أن يوفِّق بين منطق الفلسفة من جهة والوحي الديني من جهة أخرى، قائلاً مثلهم بأنّ الدين والفلسفة متّحدان في الغاية، مختلفان في الوسيلة. ففي حين تستند الفلسفة إلى (العقل) كوسيلة للمعرفة، يعتمد الدين على (الوحي) كواسطة للعرفان لأنه من الله. هذا عن الفلسفة فماذا نعرف عن التصوف في الأندلس أثناء القرن السابع الهجري؟

اعترف ابن عربي (المتوفى سنة 638هـ) بأنه أخذ التصوف أثناء مقامه أو نشأته في الأندلس على أيدي (55) شيخاً وشيخة من المتصوفة هناك. ويحدِّثنا في بعض مؤلفاته بأنه خدم إحدى أولئك العابدات مدة سنتين وانقطع إليها تماماً. وعلى هذا فإنَّ التكون

Twitter: @ketab_n

الروحي لابن عربي قد تمَّ أثناء نشأته في موطنه الأندلس، لكنه إلى ذلك درس مؤلفات المشارقة واطَّلع عليها لا سيما رسالة القشيري. ولعلَّ من المفيد أن نذكّر القارئ بأنّ ابن عربي معاصر لابن الفارض (سلطان العاشقين) وقد عاش كلاهما تحت رعاية الأيوبيين، وبين أدبيهما ومعتقداتهما وشائج قوية لا تحتاج إلى برهان، ويرى المستشرق الإسباني أثين بلاثيوس أن ابن عربي هو الذي ثبّت مذهب الأفلاطونية المحدثة في الفكر الصوفي الإسلامي، ثم إنه ساهم في ترسيخ كثير من المفاهيم الدينية المسيحية في التصوف الإسلامي، لكن هذا لا ينفي أيضاً ما تؤكّده رسائل ابن عربي في أنه أعلن العداء الصريح لبعض المسيحيين المشارقة الذين تعاونوا مع الصليبيين أثناء الحملات الصليبية. وقد حرص الحكام المسلمون على عدم التساهل مع أية فئة تقدِّم الدعم سراً أو علناً إلى أعداء المسلمين، وكان السلاجقة يُظهرون أشدّ الإعجاب لابن عربي ويكرِّمونه ويعظمونه تماماً مثلما فعل الأيوبيون. وقد عاش ابن عربي في قونيا فترة طويلة، وتزوج فيها من والدة الشيخ الصوفي صدر الدين القونوي، حين كان هذا طفلاً، وقام ابن عربي برعاية ربيبه وتوجيهه نحو عالم التصوف، فلم يخيِّب ظنه. فبفضل الصدر القونوي تهيأ لمؤلفات ابن عربي أن تذيع وتنتشر في جميع أرجاء العالم الإسلامي لا سيما في الأناضول وإيران والهند وحين وقعت آسيا الصغرى كلها وغيرها من البلاد تحت الحكم العثماني، واصل هؤلاء أسلوب أسلافهم السلاجقة في إظهار التعظيم والإجلال لمؤلفات ابن عربي وفكره وتصوفه. حتى أنهم نسبوا إلى بركات الشيخ الصوفي، انتصاراتهم على البيزنطينيين وخصوصاً عند فتحهم القسطنطينية في القرن

Twitter: @ketab_n

الخامس عشر الميلادي (التاسع الهجري). كان ابن عربي مثل أغلب المتصوفة يُظهر العداء الشديد للفقهاء وأهل النقل، ومع ذلك فإن أذاهم لم يمسّه، وذلك بفضل رعاية السلاجقة والأيوبيين له، هذا مع ما عُرفت به هاتان الدولتان من النزعة السلفية والتزمُّت الديني.

لكن ابن عربي، عرف كيف يموِّه ويُخفي أغراضه مثلما فعل كثير من الصوفية العرب، من طريق التلاعب بالألفاظ من جهة، والتأكيد الشديد على الكرامات التي تقع له من جهة أخرى مما كان له أعظم التأثير في نفوس العامة في تلك العصور. وقد ذكرنا أن الدولتين المذكورتين آثرتا بسط الرعاية على المتصوفة والمجاذيب والدراويش، وإبعاد الفلاسفة وأهل الفكر والمبدعين من الشعراء، لأسبابٍ أشرنا إلى بعضها، وربما نعود إليها فيما يأتي من الصفحات. وسوف نجد أن ابن عربي كان ذا تأثير هائل في متصوفة المشرق الإسلامي، إن سلباً أو إيجاباً، وفي مقدمتهم: جلال الدين الرومي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

سيرة موسوعية عابرة للزمان والمكان

1- مصادر سيرة جلال الدين الرومي:

على الرغم من انتساب الرومي إلى جذور تركية، فإن جميع المصادر الأولى التي دونت سيرته مكتوبة باللغة الفارسية، وسبب ذلك هو مولده ونشأته في مدينة (بلخ) حاضرة خراسان التي يتكلم أهلها ويكتبون باللغة الفارسية، ومن ثم فإن الفارسية ظلّت وسيلته الأساسية في التعبير عن نفسه، شعراً ونثراً، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنّ اللغة التركية في عصر الرومي لم تكن قد تطورتْ بعدْ إلى الحدّ الذي يمكنها أن تكون اللسان الرسمي للدولة. فمن المعلوم أن التركمان كانوا، حتى القرن الرابع الهجري، يعيشون في سهوب آسيا الوسطى في صورة قبائل بدوية مترحلة لا شغل لها غير البحث عن المراعي والكلأ لمواشيها، وأن الدولة السلجوقية التي ظهرت على مسرح التاريخ، في القرن الخامس الهجري، كانت الموجة التركية الأولى، التي خرجت تلتمس الأقوام التركمانية موقعاً بارزاً في الوجود الحضاري الإنساني، فليس لنا إذن أن نعجب من اتخاذ السلاجقة للفارسية، لغةً رسمية لدولتهم، لا سيما إذا تذكّرنا بأنّ الفرس والترك ظلوا طوال عهود الحكم العربي الإسلامي،

Twitter: @ketab_n

يحاولون بكلّ وسيلة، الانفصال عن جسم الدولة للحصول على استقلال ولو نسبيّ، ضمن إمارات وكيانات خاصة، إلى أن تهيأ للبويهيين الإيرانيين في القرن الرابع الهجري تكوين ذلك الكيان الذي امتدّ وتوسَّع حتى مكنّهم من الاستيلاء على عاصمة الخلافة العباسية بغداد. ثم نجح السلاجقة في إنشاء دولتهم في القرن الخامس الهجري واستطاعوا طرد البويهيين والحلول محلّهم مع الاستيلاء على أماكن لم تصل إليها أيدي البويهيين لا سيما بلاد الأناضول. وممّا شجع السلاجقة على اطّراح العربية وترجيح الفارسية صعوبة اللسان العربي واختلاف مخارج حروفه عن اللسان التركي اختلافاً شديداً، هذا فضلاً عن ارتقاء اللغة العربية وقتئذٍ، وبلوغها أوج عظمتها في عصرها الذهبي ذلك وليس من شكّ في أن التشابه الملاحظ بين مناخ كلٍّ من إقليمَي تركستان وخراسان كان له تأثيره الهام في تشكيل نفوس أبناء شعوب تلك البلدان، وصياغة طبائعهم، وذلك يستدعي وقوع التأثر والتأثير في الميادين الثقافية خصوصاً الأدب والفن، وهكذا تمّ نقل كثير من تقاليد الأدب الفارسي إلى الأدب التركي، وبما أن الأدب الفارسي ذاته تأثّر بالأدب العربي الإسلامي أشدّ التأثر، فليس من عجبٍ أن ينعكس هذا كله في الأدب التركي، الذي أصبح في النتيجة واقعاً تحت التأثيرين الفارسي والعربي في آنٍ واحد ومن ذلك أن العروض العربي الخليلي الذي تبنّاه الشعر الفارسي، مع التحوير والإضافة، نُقل على تلك الصورة إلى الشعر التركي، كذلك أُدخلت في جسد اللغة التركية عشرات الآلاف من الألفاظ الفارسية مع جميع المصطلحات الأدبية والفنية والعلمية والفلسفية التي ابتدعتها الحضارة العربية الإسلامية.

Twitter: @ketab_n

كتب جلال الدين الرومي إذن آثاره جمعاء باللغة الفارسية، وكان يطرِّزها باللغة العربية في كثير من المناسبات مثل غيره من الأدباء الفرس، وكانت معرفته باللغة العربية ممتازة، فقد حصل على إجازة كبار أدبائها وعلمائها أثناء دراسته في بَلخ، وفي الشام بشكل خاص، لكنه لم يكتفِ بتعلم اللغتين المذكورتين، بل تعدّاهما إلى اللغة الإغريقية لأنه كان يحسن التكلُّم باللغة اليونانية الدارجة، التي تعلَّمها من طريق علاقاته بنصارى الروم المقيمين في آسيا الصغرى منذ العصر البيزنطي، وقبله أيضاً حين كانت هذه البلاد مستقراً للإغريق كما هو معروف. وقد أدّت معرفتُه، للإغريقية الكلاسيكية وللّهجة اليونانية الدارجة أيضاً، إلى تعلق النصارى لا سيما الرهبان منهم به، وتأثرهم بفكره وطريقته الصوفية الخاصة. على أنّ التأثر لم يقتصر عليهم وحدهم فقد تأثر جلال الدين الرومي نفسه بالفكر المسيحي ومسالك الرهبان في الأديرة ممّا انعكس بشكلٍ واضح في فلسفته وطريقته الصوفية. فيما يلي نقدِّم قائمة موجزة بأسماء أهم المصنفات (المصادر) التي عُنيَت برواية سيرة جلال الدين الرومي، المدونة جميعاً باللغة الفارسية التي لا أحسن قراءتها، لكنني استفدتُ من معرفتي بالتركية، فاطلعتُ على بعض ما تُرجم إليها من تلك المؤلفات، كما سيتَّضح في الصفحات الآتيات:

1- كتاب **المعارف**: ويتضمن مجموعة أحاديث وآراء فلسفية ومواعظ أخلاقية لبهاء الدين ولد [سلطان العلماء] (والد جلال الدين) قيل إنَّ جلال الدين هو الذي جمعها في كتاب، بعد وفاة أبيه اعتزازاً بها وخوفاً عليها من الضياع.

Twitter: @ketab_n

2- كتاب **المقالات**: للسيد برهان الدين محقق الترمزي بيزيد بهاء ولد، وشيخ جلال الدين/ وهو من نوع الكتاب السابق.

3- كتاب **أقوال الشمس**: في أثناء وجود شمس الدين التبريزي في مدينة قونيا عاصمة الأناضول، عُني أحد المريدين بتسجيل أقواله وحواره مع جلال الدين الرومي وغيره من أصحابه ومحبيه، والمظنون أن سلطان ولد، ابن جلال الدين الرومي، وهو الذي قام بأداء هذه المهمة الصعبة. والكتاب غريب في بابه، إذ تسود الفوضى في جميع صفحاته ويبدو أن سلطان ولد، كان يسجِّل كلام شيخه شمس الدين أثناء الحديث، وبسرعة فائقة، ولم يقدَّر له فيما بعد أن يعيد تنظيم الكتاب، فبقي على حاله، غامضاً محيراً يحتاج إلى فكّ لألغازه وطلاسمه، واطَّلعتُ عليه في ترجمته التركية.

4- كتاب **مناقب مولانا جلال الدين**: تأليف أحد مريديه واسمه [سيبيه سالار]، وكان هذا الرجل قد صاحَب الرومي، مدة أربعين سنة، وتوفي سنة 1312م أي بعد وفاة الرومي بأربعة عقود من الزمن.

5- كتاب **مناقب العارفين**: لأحمد أفلاكي، ألّفه بأمر من شيخه الصوفي (أولو عارف جلبي)، حفيد الرومي. كان أحمد أفلاكي من علماء الفلك، وهذا هو منشأ لقبه. وبدأ بتأليفه سنة 1318م وهو يهتم بالمناقب أكثر من الحقائق العلمية، ويحفل بضروب الخرافات والأساطير ولا يخلو من أخطاء تاريخية أشار إليها مترجم الكتاب إلى التركية: البروفسور تحسين اليازجي، كما صحَّح كثيراً منها الأستاذ المتخصِّص بدارسات الرومي، المتصوف عبد الباقي غول بنارلي في كتابه **مولانا جلال الدين الرومي** ولأن

Twitter: @ketab_n

مؤلفات هذا العالِم هي المعوَّل عليها في العالم الشرقي والغربي اليوم في جميع الدراسات الخاصة بجلال الدين الرومي فقد اعتمدتُ على هذا الكتاب، وعلى كتابه الآخر **شرح المثنوي** بعد أن ترجمتُ منها مئات الصفحات إلى اللغة العربية، كي تتوضّح صورة جلال الدين الرومي في ذهني. كما ترجمتُ الكثير من حكايات **مناقب العارفين** لأحمد أفلاكي، لما فيها من طرافة، ولما تعكسه من أجواء القرون الوسطى وعقلية أبنائها.

6- مؤلفات جلال الدين الرومي، وهي:

أ. **المثنوي** الشهير الذي يُعدّ لدى المسلمين، خارج العالم العربي، الكتاب الأعظم بعد القرآن الكريم، والمثنوي قصيدة تعليمية مطوّلة يتجاوز عدد أبياتها خمسة وعشرون ألف بيت (25000) وهي من بحر الرمل، وقافيتها من المزدوج أو ما يسمى بالفارسية بالمثنوي، وفي اللغة العربية نُظمت أغلب القصائد التعليمية على هذا النسق، وأشهر ذلك ألفية ابن مالك في النحو، وابن مالك معاصر للرومي. والمثنوي صورة فنية أدبية جميلة للفكر الصوفي بحسب طريقة جلال الدين الرومي. ويقع في ستة مجلدات.

ب. **الديوان الكبير** أو **ديوان شمس الحقائق** ويشتمل على الأشعار العاطفية الملتهبة التي قالها الرومي في العشق الإلهي وأبياته تتجاوز ثلاثين ألف بيت (30000)، وأغلب المقطعات التي فيه مذيّلة باسم شمس الدين، وذلك بحسب تقاليد الشعر الفارسي. لأن شمس الدين يمثل (المحبوب).

ج. كتاب **فيه ما فيه**، وهو يضمّ المواعظ والدروس التي كان الرومي يلقيها على تلامذته ومريديه.

Twitter: @ketab_n

د. **رسائل الرومي** ويحتوي على 147 رسالة وجهها الرومي إلى القضاة ورجال الدولة وإلى أصحابه وأقربائه.

2- سيرة جلال الدين الرومي:

تسهيلاً للبحث تمَّ تقسيم حياة الرومي على ثلاث مراحل:

أ. مولده ونشأته في بلخ خراسان.

ب. فترة الأسفار.

ج. مستقره الأخير في قونيا بالأناضول.

وتقسم إلى ثلاث فترات:

1- عهد التدريس والوعظ والإفتاء.

2- اللقاء بشمس الدين التبريزي.

3- ما بعد غيبة شمس الدين (أ- الصائغ صلاح الدين. ب- حسام الدين جلبي)

أ- المولد والنشأة في بلخ:

في سنة 546هـ توفي بمدينة بلخ العالم الوقور حسين الخطيبي المنتمي إلى أجيال متعاقبة من العلماء الأفاضل، تاركاً وراءه طفلاً صغيراً في الثالثة من العمر، هو بهاء الدين ولد فتعهّدتْ الأرملة الحكيمة المتعلِّمة بتربية ولدهما، والإشراف بنفسها على تعليمه. وما كاد بهاء الدين يبلغ سنّ الحلم حتى أصبح مدرساً ناجحاً يتزاحم على دروسه الطلبة من جميع أنحاء المدينة، لكنَّ بهاء الدين هجر التدريس بعد فترة وانصرف إلى طريق التصوف، فمضى يجتاز المراحل

Twitter: @ketab_n

المعروفة واحدة بعد الأخرى حتى بلغ مرتبة الشيخ الكامل، وتضاعف عدد مريديه، وحصل على لقب سلطان العلماء في حكاية أو أسطورة طريفة تفرح بتصديقها عقول البسطاء في عصور الظلمات.

وفي عام 595هـ عُقد قرانُ بهاء الدين ولد على (مؤمنة) خاتون التي قيل إنها بنت أحد أمراء بلخ، ويلاحظ هنا أنّ الزيجة الأولى لبهاء ولد، هذه، قد تمت وهو قد تجاوز سن الخمسين، وذلك أمر يلفت النظر، فالمعروف أنّ المجتمع الإسلامي يأخذ بفكرة الزواج المبكر بحسب المنقول عن الرسول، لا بد إذن من سبب لذلك التأخر في الزواج. على أية حال، بعد سنة واحدة من الزواج، وضعتْ مؤمنة بكرها علاء الدين، وبعد علاء الدين بسنتين وضعتْ طفلها الثاني جلال الدين، الذي قدّر له أن يكون أحد أكبر مشاهير شعراء العالم الإسلامي القديم، لكن أحمد أفلاكي يثبت في كتابه **مناقب العارفين**، وجود أخت كبرى لعلاء ولجلال اسمها (فاطمة) خاتون، ويقول إن (فاطمة) هذه بقيت في بلخ، بعد هجرة والدها بهاء ولد إلى الأناضول لأنها كانت متزوجة برجل بلخي، وأنها كانت سيدة فاضلة تقوم بالإفتاء. وبحسب أفلاكي أيضاً فإنّ علاء الدين كان وقتئذٍ قد بلغ السابعة من العمر، أما جلال الدين فلم يتجاوز الخامسة. (سنشير فيما بعد إلى خطأ أفلاكي في تقدير عمر الصليبيين). المهم في هذا الموضوع هو السؤال الآتي:

إذا كانت فاطمة خاتون بنتاً لبهاء ولد، وهي أكبر سناً من أخويها، وإذا كان بهاء ولد لم يتزوج إلّا بمؤمنة خاتون كما يؤكّد جميع الدارسين فكيف يمكن التوفيق بين الخبرين؟ ليس هناك إلا

Twitter: @ketab_n

جواب واحد وهو أن فاطمة خاتون لا بد أن تكون بنتاً لجارية كانت عند بهاء ولد، قبل زواجه بمؤمنة خاتون، ووجود هذه الجارية هو التفسير المطلوب لتأخُّر زواج بهاء ولد. وهذا شيء وارد في العصور الوسطى. وفي عائلة (الرومي) سنجد أن ابنه، سلطان ولد، كان له جاريتان، عدا زوجته وإنهما ولدتا له عدداً من الأولاد، فضلاً عن أولاده من زوجته.

ومما يؤكد استنتاجي هذا أنّ الدارسين القدامى والمحدثين أيضاً، أهملوا فاطمة خاتون، ولم يشيروا إليها إلا في معرض تعدادهم لأولاد بهاء ولد. والظاهر أن صلتها بأسرة والدها قد انقطعت منذ هجرتهم. وذلك أمرٌ طبيعي ولا يثير شكاً خصوصاً إذا علمنا أن (فاطمة) لم تخلف نسلاً، والدليل نجده في شجرة عائلة (الرومي)، حيث ذكر أسماء جميع الذكور من الأبناء والأحفاد إلى حدّ عصرنا هذا، دون أن يكون هناك أية إشارة لوجود أبناء لفاطمة.

كان لبهاء الدين ولد مريدان أو صاحبان مقرّبان هما (شرف الدين لاله السمرقندي) و(سيد برهان الدين الترمزي)، وكان الثاني شديد التفاني في خدمة شيخه كما سنرى، وقد أخذ هذان الرجلان على عاتقهما مسؤولية تعليم جلال الدين الذي تبدّت عليه منذ الصغر مخايل ذكاء نادر مصحوب بأدب جمّ وخُلُق متين حبَّبه إلى قلوب جميع الناس، واعتاد جلال الدين أن يتوجه يومياً إلى مدرسة أبيه لينزوي في أحد أركان غرفة الدرس، مصغياً بكلّ جوارحه إلى ما يُلقيه والده من حِكَم ومواعظ وأفكار ومناقشات نظرية، ويضيف أحمد أفلاكي موضحاً بأنَّ مؤمنة خاتون كانت مع حرصها الشديد على تحلي ولديها بحلو الشمائل ونبيل الصفات، فإنها لم تُهمل

Twitter: @ketab_n

العناية التامة بحُسن مظهرهما وأناقة ملبسهما، وكانتْ أشدّ اهتماماً بإظهار رونق جلال الدين، لما امتاز به من وسامة ووضاءة. وهكذا نشأ جلال الدين على عشق الجمال: جمال النفس وجمال القلب وجمال الفكر وجمال الجسد. وكان أيضاً شديد الشغف بالنظافة في كل شيء ولهذا كان يصرح بأنّ الحمام هو أحد أحبّ الأماكن إلى قلبه.

منذ الطفولة تفتَّح قلب جلال الدين للحياة وللناس ولكل ما في الطبيعة من مظاهر ومخلوقات، كان شديد العطف على الحيوانات، وكان يربي القطط في المنزل، ويحمل الطعام بنفسه إلى إناث الكلاب المرضعات ويسير مسافات طويلة من أجل إيصال الطعام إليها، وكان يوصي أصحابه بمحبة الجمادات أيضاً، لأنّ كلّ ما في الحياة جزء من الطبيعة ويستحقّ الحب لهذا السبب. وكان كثير الاختلاط بأقرانه من الصبيان، في عهد الصبا، لكنه تميز عنهم بمسالك مخالفة لمسالكهم إذ كان صبياً صغيراً لا يعبث ولا يؤذي أحداً أو شيئاً، وأحياناً كانت تصدر عنه أقوال تثير دهشتهم وارتباكهم فلا يعرفون كيف يتعاملون معه، في أحد الأيام كانوا جميعاً يلعبون فوق أحد السطوح. فقال واحد من الأولاد:

- هيا نقفز من هذا السطح إلى السطح المجاور.

ابتسم جلال الدين ابتسامة غامضة وقال:

- لا! القفز فوق السطوح تَقدِر عليه أضعف القطط، لو كان لديك الشجاعة والجرأة، فرافقني لنحلِّق بين السموات السبع، ألا تريد أن تطّلع على خفايا العالم؟!

هذه الأفكار الغريبة بدأت تشغل بال جلال الدين منذ صباه

Twitter: @ketab_n

المبكر، وربما كان سبب انهماكه بها كثرة جلوسه مع أصحاب أبيه وإصغائه إلى مناقشاتهم، وقد شاع عنه في ذلك العهد أنه كان يشارك في بعض الأحيان في النقاش، على الرغم من حداثة سنة.

لقد اتضح لنا في الفصل السابق أن خراسان والمناطق المجاورة لها، ظلت منذ الربع الأخير للقرن السادس الهجري حتى نهاية الربع الأول للقرن السابع الهجري، أي مدة نصف قرن من الزمن، مسرحاً مريعاً للقتال المستمر بين أمراء الغورية وشاهات خوارزم، أولاً، ثم عند الهجمة المغولية، صار القتال بين جيوش جنكيزخان وجيوش خوارزمشاه حتى سقوط شاهات خوارزم على ما ذكرنا في الفصل السابق.

هذا يعني أن جلال الدين نشأ وترعرع في أجواء محمومة بالأحقاد، وقضى القسم الأول من حياته في الساحة المصبوغة بدماء ملايين الأبرياء من المسلمين الذين وقعوا ضحية جور الأمراء الذين انتابهم جنون الطمع فراحوا يتكالبون كالسباع الضارية على اقتسام ممتلكات الدولة العباسية المحتضرة.

ولم يكن أبوه، بهاء الدين سلطان العلماء بمنأى عن تلك الأحداث الأليمة، بل ربما كان انخراطه في سلك التصوّف، نابعاً من مشاهدته بوضوح لخراب العالم الإسلامي والسواد القائم المخيم على دنيا الناس يومئذٍ. وقد وضح لنا، فيما سبق، كيف صار الناس يدخلون في دين التصوف (والتصوف هو دين رابع في الواقع) زرافاتٍ ووحداناً خصوصاً بعد التشجيع الكبير الذي لقيته المتصوفة عند السلاطين والملوك وأصحاب النفوذ، ذلك أن ارتداء ثوب التُقى

Twitter: @ketab_n

والتظاهر بالورع أسهل على الغادرين من عمل الخير وتصفية النوايا. وفي ذلك العصر تحول بناء الزوايا والربط وإيقاف أموال الأوقاف عليها، وتوزيع المال على فقرائها، إلى ما نسميه اليوم (بالمودة) التي شاعت يومئذٍ بين جميع الحكام بلا استثناء. فالعباسيون والسلاجقة والأيوبيون والمماليك وحتى المغول، لم يقصّروا في إكرام الصوفية بكلّ وسيلة ممكنة وبالطبع فبقدر ما يزداد إكرام المتصوفة، تقل رعاية الفلاسفة، والنسبة في هذا الأمر دائماً عكسية بلا جدال ومن المعلوم أن التصوف لا يزدهر إلا في أشد عصور التاريخ ظلاماً ووحشية، ففي مثل تلك الأحوال يستأثر اليأس بالقلوب وتنطفئ الآمال في النفوس، فينسحب كلّ فرد إلى داخل روحه، بعد أن يفقد كلّ رغبة في تغيير الأوضاع أو تحسين الأمور. يقول المفكّر المعاصر د. آرثر ك. رودجرز «في الأوقات الرديئة تشغل الفلسفة نفسها بالطرق التي تمكّن الفرد من إرضاء نفسه وحلّ مشاكلها، وإذ تخرج ظروف الإنسان من يده، ويعجز عن تغييرها، أو عن معالجة شرور العالم الخارجي، فعليه أن يكون مستقلاً عن ذلك العالم، كي يولد في داخل نفسه تلك الطمأنينة الفكرية التي تهيئ له السرور، وتصونهُ من تقلبات الأقدار».

والتاريخ يمدّنا بكثير من الأمثلة على صحة هذا القول، فحين سقطت أثينا تحت أقدام المقدونيين في القرن الرابع قبل الميلاد، ظهرت المذاهب الروحية الكبرى: الأبيقورية والكلبية والرواقية وأخيراً الأفلاطونية المحدثة، وهي تتفق بينها جميعاً على ضرورة الانسحاب إلى داخل النفس والانسجام معها، والانصراف عن متاع الدنيا الغَرور ولا يتأتى ذلك إلّا بالقناعة والزهد والصبر على الآلام

Twitter: @ketab_n

والرضا بالكفاف وخشونة العيش وأن يتقبّل الإنسان العالم حوله كما هو وألّا يفكّر في المستقبل ولا يتحسر على الماضي، وأن يكون ابن ساعته، هذه الأفكار وأشباهها دخلتْ جميعاً في جذور التصوف، وكانت الحجر الأساس في بناء صرحه.

من المعروف أنّ ازدهار التصوف بالمشرق العربي في ذلك العصر واكب ازدهار علم الكلام أيضاً، ففي سنة 505هـ توفي أبو حامد الغزالي، الكلامي الصوفي الشهير، وفي سنة 538هـ توفي المتكلم المعتزلي جار الله الزمخشري، وفي سنة 548هـ توفي المتكلم الشهرستاني مؤلف **الملل والنحل**، وفي سنة 597هـ توفي أبو الفرج ابن الجوزي، وكلّ هؤلاء من أعاظم أهل الكلام والفقه ثم إن سنة 606هـ شهدتْ وفاة المتكلم الفيلسوف الواعظ فخر الدين الرازي الذي سنتوقف عنده.

والكلاميون هم الذين اتخذوا (منطق) الإغريق سلاحاً لهم في الدفاع عن الشرع والوحي، من جهة، وفي الهجوم على الفلسفة بسلاحها ذاته من جهة أخرى، لكن الكلاميين وعلماء الفقه كان لهم عدو أكثر جرأة وأعمق عداءً من الفلاسفة، ذلك العدو هو أهل التصوّف أنفسهم، وإذا كان الفلاسفة المسلمون قد تجنبوا جهد إمكانهم مهاجمة الكلاميين بشكل صريح، لأسباب لا محلّ لذكرها هنا، فإنّ المتصوّفة لم يكلّفوا أنفسهم تقديم هذا التنازل، لماذا؟ لأنّ المتصوفة ضمنوا دائماً وقوف العامة إلى جانبهم، فالصوفية يعلنون دوماً بأنهم، وحدهم، أهل الدين الحقيقي، والناس يرونهم باستمرار قائمين الليل، مُغالين في الصيام مواصلين السجود، مجتذبين الفقراء والمرضى والمجاذيب والشطار والآثمين بلا تفريق ولا استعلاء،

Twitter: @ketab_n

يفتحون تِكاياهم وربطهم للجميع ليل نهار، وصيفاً وشتاءً، ووقت الرخاء والضيق، لا يأنفون من مُعدم مسكين، ولا يأبهون لغنيّ متمكن، ولا يخافون سلطاناً متسلطاً، أو ملكاً جائراً. والواقع أنّ التصوف في القرن السابع الهجري أصبح مؤسَّسة شديدة القوة وقد ساعد على ذلك ظروف كثيرة ساهمت في تمتُّع المتصوّفة بذلك النفوذ، والاحتفاظ به حتى القرن التاسع الهجري حين تمّ انتصار العثمانيين على الأوروبيين، بفتح القسطنطينية في منتصف القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر ميلادي، وكان استقرار الحكم العثماني نذيراً بتقليل المتصوّفة، والقضاء على قسمٍ كبير من نفوذهم في المجتمع.

كان المتكلم الفيلسوف فخر الدين الرازي[1] قد حصل على

---

(1) فخر الدين الرازي أبو عبد الله بن عمر التميمي (543-606هـ) أهله من طبرستان ومولده، في الري، كان شافعياً يتكلم على طريقة الأشعري، أشهر مؤلفاته **لباب الإشارات والتفسير الكبير** ودرس على مجد الدين الجيلي، وعلى الكمال السمعاني، اتّصل بسلاطين الغورية ملوك غزنة، كما اتّصل بخوارزمشاه محمد بن تكش فَلَقِيَ من جميعهم الإكرام والحظوة، استوطن هراة فحاربته طائفة (الكرامية) وقيل إنهم أعطوه السمّ فمات به، قال الذهبي في حقه (هو رأس الذكاء والعقليات، له تشكيكات على مسائل من دعائم الدين تورث الحيرة). يروي المتصوف الشهير عبد الوهاب الشعراني أنّ الرازي سعى إلى أخذ الفيض من الصوفي نجم الدين الكبرى فلم يتحمل أن يترك علمه أو يواصل رياضة التصوف. ويروي بعض المؤرخين أن صلة الفخر الرازي بابن عربي كانت سيئة، بسبب انتقاد ابن عربي له.
قصده العلماء والشعراء من كل صوب، وممَّن مدحه الشاعر أبي حنين. من شعر الفخر الرازي:
المرء ما دام حياً يُستهان به ويعظم الرازي حين يُفتقد

Twitter: @ketab_n

مكانة عالية لدى غياث الدين الغوري وأخيه شهاب الدين، (حُكام غزنة وما وراء النهر وخراسان) حتى أن غياث الدين بنى له مدرسة خاصة في (هراة). في ذلك الحين كان أغلب سكان هراة على مذهب محمد بن كرام الخراساني[1]، في حين أنّ الرازي حثّ الغوريين على الأخذ بالمذهب الشافعي.

في أثناء سنة 595هـ حدث أن أقام غياث الدين مجلس مناظرة لفقهاء الكرامية والحنفية والشافعية، ورعى بنفسه ذلك المجلس، فلمّا تكلم الفخر الرازي، انبرى له القاضي ابن القدوة الذي يمثّل الكرامية، ولمّا طال الجدال قام غياث الدين وغادر المكان، ويدّعي ابن الأثير، المعروف بانحرافه عن الفلسفة أنّ الفخر الرازي تطاول، بعد ذلك، على ابن القدوة وأهانه، فما كان من هذا إلا أن يلصق بالرازي (تهمة) الانتماء إلى فكر أرسطو وآراء الفارابي وفلسفة ابن سينا وكلها في نظر العامة (من الكفريات) ثم إن ابن القدوة بكى واشتكى إلى السماء جرأة المتكلمين على المجاهرة بالكفر، وعند هذا هاج الناس وكادَت تقع الفتنة، فأرسل غيّاث الدين ينصح الرازي بمغادرة هراة حتى تهدأ الأحوال. غير أنّ غياث الدين ترك مذهب الكرامية، بعد ذلك عاد إلى مذهب الجماعة وصار يأخذ المذهب

(1) محمد بن كرام: ظهر في خراسان. كان يُجسِّد الخالق الذي هو عنده جوهر ذو حدود، لهذا أطلق على الكرامية لقب (المشبهة) ودعا إلى الزهد والتكفُّف بالتسول بدلاً من الكسب، كان في تشدُّده الديني قريباً من الحنابلة. انتشر مذهبه في إيران ما وراء النهر وخراسان، والظاهر أن حركته ارتبطت باتجاهات سياسية. كان أتباعه يرتدون خرقة الصوف ويغطون رؤوسهم بقلنسوة طويلة.

Twitter: @ketab_n

الشافعي، فاغتاظ المتصوفة، فضلاً عن الكرامية، إذ عدّ تحول غياث الدين عن مذهبه، انتصاراً شخصياً للفخر الرازي.

ولا بُدَّ أن مقتل شهاب الدين الغوري سنة 602هـ بيد الإسماعيلية قد أثلج صدور أعداء الرازي، على أنّ الرازي سُرعان ما انتقل إلى بلاط خوارزمشاه محمد بن تكش، وارث أملاك الغوريين، فاحتفى به خوارزمشاه مثل الغوريين، وبذلك استطاع مواصلة بثّ أفكاره ونشر علمه. من الواجب أن نُشير في هذا الموضع إلى أنّ الفخر الرازي لم يكُن من المُبدعين في ميدان الفلسفة إذ لم يأتِ بجديد، ولم يضفْ إلى الفلسفة الإسلامية ما يستحقّ التنويه، وإنّما كان يُحسِن الوعظ باللسانين العربي والفارسي، وله قدرة شديدة على التأثير في السامعين وإقناعهم.

وصادف أنّ (خوارزمشاه) حكم على الصوفي مجد الدين البغدادي بالموت تغريقاً في نهر جيحون (أمودريا) سنة 605هـ فتوجّهت أصابع الاتهام فوراً إلى الفخر الرازي على أساس أنه هو المُحرِّض للسلطان على قتل رجل التصوف. وفي ذلك الوقت، كانت دولة خوارزمشاه قد توسّعت وامتدت حتى أخذه الغرور، وبدأ يُمنّي نفسه بأن يحكم البلاد الإسلامية جميعاً. وبحسب العادة المُتّبعة في القرون الوسطى، استخرج خوارزمشاه من أصحاب الفتوى حُكماً بعدم شرعية الخلافة العباسية وضرورة إرجاع الحقّ إلى أبناء الإمام علي، وبهذه الذريعة أعلن الحرب على الدولة العباسية في عهد الناصر لدين الله الذي وجدناه في الفصل السابق، يتشيّع، بحسب ابن الأثير، وينتمي إلى أهل الفتوة المرتبطين من بعيد بالإسماعيلية،

Twitter: @ketab_n

ومرة أخرى اتُّهِم الفخر الرازي بتحريض السلطان على اتخاذ تلك الخطوة، أي محاولة إسقاط الخلافة.

وهكذا، بدأ بهاء الدين ولد، أشهر متصوفة (بلخ) وقتئذٍ بمهاجمة الفخر الرازي وانتقاد أفكاره الفلسفية وطرقه المنطقية، ولم يكتفِ بهذا، بل راح يُوجِّهُ اللوم إلى خوارزمشاه لرعايته إياه، وتشجيعه له على المضي في بثّ أو نشر طرائق النظر العقلي الذي يُبغضه المتصوفة، لأنّ العقل في نظرهم عاجز عن التوصيل إلى الله، وأنّ الاتحاد بالمعشوق الإلهي لا يتمّ إلّا من طريق السلوك الصوفي من أجل بلوغ مقام السُّكر والجذب والفناء وما إلى ذلك. كان (بهاء ولد) في كل هذا متأثراً بشدة بالشاعر الإيراني (سنائي) مؤلف **الحديقة**[1] الذي جاهرَ برفض الفلسفة، زاعماً أنها لا توصل العارف إلّا إلى الضلالة عن الهدف الذي هو عندهم الاتحاد بالله. وبعد وفاة الفخر الرازي سنة 606هـ واصل بهاء ولد هجومه على فلسفته، واستمرّ في انتقاد خوارزمشاه لاعتناقه مذهب الرازي في الوثوق بالفلسفة طريقةً للوصول إلى الحقيقة. ويدّعي أحمد أفلاكي بأنّ خوارزمشاه لم يغضب على بهاء ولد، بل بالعكس بالغ في استرضائه بكل وسيلة.

لكن (بهاء ولد) كان قد صمّم على أمرٍ كبير. ففي ذلك الوقت، كان كبير المغول جنكيز خان قد بدأ يمدّ مخالبه المُخيفة، إذ سارت

---

(1) سنائي، أبو المجد مجدود بن آدم، الحكيم الغزنوي «العارف» الشاعر الصوفي الكبير، فرغ من نظم كتابه الشهير **الحديقة** سنة 555هـ، وتوفي في السنة ذاتها، كان جلال الدين الرومي شديد الإعجاب به، كثير الشغف بشعره.

Twitter: @ketab_n

عساكره في سنة 616هـ مجتازة نهر جيحون (أمودريا) واحتلت بخارى وبلاد ما وراء النهر، ناشرةً الذُّعر والرعب في كلّ مكان، مستعملة طريقة الدعاية وسيلةً مُساعدة على الحصول في أسرع وقت على أكبر الانتصارات، وحين نجح في قهر جيوش خوارزمشاه محمد بن تكش، أسقط في أيدي أهل خراسان، وبدأ الناس يستعدّون للفرار إلى الغرب نحو أراضي السلاجقة بعيداً، ولو في الأناضول، فقد خيّل لهم أنّ أكثر موضع آمنٍ آنئذٍ هو (قونيا) وما جاورها. أليست هي عاصمة الأناضول التي يحكمها علاء الدين كيقباذ، أقوى سلاجقة الأناضول حتى ذلك الحين؟ لقد كانت الأخبار تتوالى على آذان الأتراك الساكنين في خراسان بازدهار الأناضول تحت حكم (كيقباذ) وشدّة عنايته بالحصون والقلاع، ونجاحه في توحيد الأناضول وطرده لأعدائها ممّن كانوا يهاجمونها بين الحين والآخر، وبنائه لعدّة مدن على السواحل لا سيما مدينة (ألانيا) على البحر الأبيض «بحر الروم» لتكون عاصمةً ثانيةً له.

هكذا، اقتنع بهاء الدين ولد بضرورة الهجرة إلى الأناضول بدلاً من انتظار الموت على أيدي عسكر جنكيز خان المتعطشين للدماء.

ب- فترة الأسفار:

لم يُحدِّد الرُواة تاريخ مغادرة بهاء ولد مدينة بلخ، لكن المعروف أنّ هذا الحدث قد وقع خلال سنة 618هـ، وأنه اصطحب معه كلاً من زوجته مؤمنة خاتون، وولده جلال الدين البالغ من العمر ثماني عشرة سنة وعلاء الدين الذي يكبُره بسنتين، كما سافر معه أيضاً بعض أصحابه ومُحبيه.

Twitter: @ketab_n

وفي مدينة نيسابور، التقى بهاء ولد بصديقه الشاعر الصوفي الشهير فريد الدين العطار[1] وجرت بينهما مُناظرات في التصوّف والشعر، وكان جلال الدين يُشاركهما محاوراتهما، فأُعجِب بذكائه فريد الدين العطار، وتوقّع له مستقبلاً باهراً في عالم التصوّف، وأهداه كتابه **منطق الطير** تشجيعاً له. كان العطار في ذلك الوقت أحد أقطاب الطريقة الصوفية الكبروية (نسبة إلى مؤسسها المعاصر للعطار: نجم الدين كبرى). ومن المفيد الإشارة في هذا الموضع إلى أنّ هذا الصوفي نجح في اكتساب قلب الطاغية المغولي جنكيز خان، حتى قيل إنه صار من مُريديه (أعني نجم الدين كبرى المتوفى سنة 619هـ).

هذا اللقاء بفريد الدين العطار، ترك في نفس الرومي أثراً ثابتاً تجلّى بعد ذلك بكلّ وضوح في آثاره كافة، فليس من عجب أن يُولي دارسو الرومي الاهتمام الشديد بالعطار إنساناً ومتصوفاً وشاعراً: وآثار العطار تُجسّد الفكر الباطني، فلقد تأثر بداعية الإسماعيلية الأشهر (ناصر خسرو)، وانعكست آراؤه في شعر العطار وحكاياته، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن العطار لشدّة افتنانه بشخصية

---

(1) فريد الدين العطار: من مواليد نيسابور سنة 523هـ تقريباً، متصوّف وشاعر عظيم في الفارسية، لقب بالعطار لأنه كان يكسب رزقه عن طريق بيع الأدوية والعمل في الطبابة. من أشهر مؤلفاته: **منطلق الطير**، **الرسالة الإلهية**، **تذكرة الأولياء**... إلخ. يُقال إن أحد الجنود المغول قتله من طريق الخطأ. كان للعطار منزلة عظيمة في نفس الرومي ووصفه قائلاً (العطار روح!). قيل إن العطار عند وفاته سنة 627هـ كان قد تجاوز المائة سنة من العمر.

Twitter: @ketab_n

الحلاج أعلن أنّ روح الحلاج قد حلّت فيه، وممّا له دلالة في هذا الباب أنّ المولوية تجعل الحلاج ضمن السلسلة التي أخذ منها جلال الدين الرومي الفيض الصوفي. وسلسلة الفيض لدى جميع الصوفية، على ما هو معلوم، تنطلق أساساً من الإمام علي الذي يُعدّ عندهم الولي الأول.

بعد نيسابور اتّجهت القافلة نحو بغداد دار السلام وعاصمة العباسيين، وكان الخليفة يومئذٍ الناصر لدين الله. ومضت الأيام طويلةً متعبة، وأخيراً ظهرت منائر بغداد. يروي أحمد أفلاكي أنّ حراس أسوار المدينة استوقفوا القافلة قائلين:

- من أين جئتم وإلى أين تذهبون؟

أخرج بهاء الدين ولد رأسه من خلف ستارة المحمل مُجيباً:

- من الله جئنا وإليه نذهب، جئنا من اللامكان وسنتوجه إلى اللامكان!

ويمضي أفلاكي في روايته الطريفة زاعماً أن الصوفي الشهير (شهاب الدين السهروردي) المُقرّب إلى الخليفة، هرع للقاء بهاء ولد، وتوسّل إليه أن يحلّ ضيفاً على الخليفة في قصره، لكن بهاء ولد أعلن أن العلماء لا يُقيمون إلّا في المدرسة. وهكذا، أنزلوه في إحدى المدارس بحسب رغبته، على أن (عبد الباقي غول بنارلي)، المتخصّص بدراسة الرومي، يرفض هذه الحكاية جملةً وتفصيلاً، لأنه لم يجد لها أي تأكيد في المصادر التاريخية، وينسبها إلى سذاجة أحمد أفلاكي ورغبته في تعظيم شأن جلال الدين وعائلته بأيّ ثمن.

Twitter: @ketab_n

لم تَطُل إقامة بهاء ولد وعائلته في بغداد، فاتجهوا إلى مكة، إذ كان موعد الحج قد أزف. مضت القافلة نحو الكوفة فالنجف، ثم أوغلت في الصحراء إلى أن بلغت مكة بعد لأيٍ، وحالما فرغوا من أداء فريضة الحج، خرجوا من مكة وساروا إلى المدينة، حيث زاروا ضريح الرسول، ثم اتّجهت القافلة نحو الشام. في دمشق زاروا الجامع الأموي ثم غادروا إلى حلب، ومنها مضوا إلى الأناضول، وأول مدينة زارها في الأناضول كانت (مالاطيه)، وبعدها دخلوا أذربيجان. ويزعم أحمد أفلاكي أن الأمير (فخر الدين بهرام) وعقيلته السلطانة (عصمت خاتون) هرعا إلى بلدة (آق شهر) خصيصاً ليكونا في استقبال القادمين الأجلاء. بعد ذلك وصلوا إلى (سيواس) ومنها إلى (قيصري) وأخيراً حطّت القافلة رحلها في مدينة (لارندة) أي (كرمان).

ولمّا بلغ سمع والي لارندة الأمير السلجوقي: موسى، نبأ وصول بهاء ولد، خرج مع أفراد حاشيته لاستقباله عند حدود المدينة، بحسب ادِّعاء أحمد أفلاكي، ثم أمر فوراً ببناء مدرسة خاصة لبهاء ولد، يسكنها مع أفراد عائلته، ويُلقي فيها دروسه ومواعظه، وبعد فترة قصيرة تمّ بناء المدرسة فانتقلت إليها العائلة المهاجرة من بلخ، واستقر بها المقام.

كان لمريد بهاء ولد: شرف الدين لإله السمرقندي الذي صاحبه في رحلته من بلخ إلى كرمان، بنت جميلة اسمها جوهر خاتون في سنّ جلال الدين، ودرست معه على يد والدها وعلى يد بهاء ولد أيضاً. وفي هذا الوقت قرّر الوالدان أن يتمّ زواج جلال الدين بجوهر خاتون، وكان ذلك سنة 623هـ.

Twitter: @ketab_n

في بلاد الشرق لا تدوم الأفراح طويلاً، فبعد الزفاف بوقتٍ قصير، انتقلت مؤمنة خاتون إلى رحمة الله، وجاءت الضربة الأقسى حين أصيب علاء الدين بعِلّةٍ مفاجئة لم تُمهله طويلاً، ففارق الحياة، مودعاً من شقيقه الأصغر جلال الدين، بقلبٍ معذّب، ودُفِن بجانب والدته. ثم اقترب الموت من عائلة شرف الدين للّه السمرقندي فسلبه زوجته أم جوهر خاتون. وهكذا، لم تعُد (لارنده) إلّا مدفناً للأحباب وموطناً للأحزان.

لكن الأيام عادت تبتسم لجلال الدين وهو لا يزال في لارنده، فقد ولدت جوهر خاتون بكرهما سلطان ولد بهاء الدين، وجاء أخوه بعده، فأطلق عليه جلال الدين اسم (علاء جلبي) إحياءً لذكرى شقيقه الفقيد. وهكذا، أمضى سلطان ولد وعلاء جلبي سنواتهما الأولى في لارنده تحت رعاية أبيهما، وجدّهما بهاء ولد.

في تلك الأثناء، كانت أسماع العائلة البلخية تمتلئ بأخبار أمجاد قونيا على عهد سلطانها السلجوقي علاء الدين كيقباذ الذي حكم بين عامي 618-634هـ.

لقد أدّت إنجازات هذا السلطان، على الرغم من قصر مدة حكمه (16 سنة) إلى ترسيخ وحدة الأناضول، وازدهار هذه البلاد ازدهاراً لم تعرفه في أية فترة أخرى من العصر السلجوقي، لكن موته المفاجئ مسموماً سنة 1236م أدّى إلى إسعاف الأناضول، ممّا هيّأ الفرصة للمغول بعد سنوات للسيطرة عليها، والتلاعب بمقدّراتها على ما سنرى.

لكن، أهم ما حبّب قونيا إلى بهاء ولد، رعاية سلاطينها لكبار

Twitter: @ketab_n

رجال الصوفية، فقد فاز محي الدين ابن عربي[1] أثناء إقامته في قونيا سنة 607هـ بمكانة عظيمة لدى السلطان السلجوقي كيكاوس عز الدين، حتى أنه جعله بمقام مستشارٍ شخصي في المسائل الدينية، كذلك حظي الصوفي نجم الدين داية[2] الهارب من خوارزم سنة 617هـ بعد اجتياح المغول لها، بترحيب السلطان علاء الدين كيقباذ نفسه.

---

(1) محي الدين بن عربي 560-638هـ: ولد في مرسيه بالأندلس ودرس في إشبيلية على العلامة ابن بشكوال، ثم انتسب إلى الصوفي أبي مدين المغربي، في قرطبة تعرّف على قاضيها الفيلسوف الشهير ابن رشد، بعد ذلك بفترة حضر في قرطبة أيضاً شعائر جنازة هذا الفيلسوف بعد وفاته، وترك فيه هذا المشهد أثراً لا ينسى.
في سنة 607هـ زار ابن عربي مدينة قونيا، وتزوج فيها بأرملة الشيخ مجد الدين إسحق، ووالدة صدر الدين القونوي. وكان صدر الدين يومئذٍ في الثامنة من العمر، فأولاه ابن عربي من الحب والحنان، ما جعله فيما بعد أعظم مريديه حماساً لنشر مذهبه بين الناس. في قونيا ألّف ابن عربي **رسالة الأنوار**، وسافر بعدها إلى قيصرى وسفاس وملاطيه، من مدن الأناضول.
في سنة 611هـ توجّه إلى مكة وأدى فريضة الحج، وألهم، كما يقول كتابه الشهير **الفتوحات المكية** ثم ذهب إلى المدينة المنورة، بعدها زار الموصل حيث ألّف **التنزلات الموصلية** ثم سافر إلى حلب في زمن السلطان الأيوبي الظاهر غازي الذي أكرمه أشد الإكرام. أخيراً ألقى عصا الترحال في دمشق سنة 620هـ حيث استقرّ حتى وفاته، تحت رعاية ملكها (المعظم) الأيوبي، فانصرف تماماً إلى التأليف، والوعظ في الجوامع.
خلّف ابن عربي ولدين هما: سعد الدين وعماد الدين، وبنتاً تدعى زينب، كانت (تأتيها الإلهامات والكشوفات) كما يؤكّدها أبوها.

(2) نجم الدين داية: المتوفى سنة 654هـ ولد في خوارزم وهو من تلاميذ الصوفي نجم الدين كبرى، ترك خوارزم عند اجتياح المغول لها سنة 617هـ، ورد إلى الأناضول والتقى بـ (مولانا) جلال الدين الرومي.

Twitter: @ketab_n

ولما علم الخليفة الناصر لدين الله بما للمتصوّفة من مقام كبير عند علاء الدين كيقباذ، بعث إليه المتصوّف شهاب الدين السهروردي[1] حاملاً معه هدايا نفيسة من الخليفة، فأعلن كيقباذ ذلك اليوم عيداً شعبياً في قونيا.

ج- المستقر الأخير في قونيا:

1- عهد التدريس والوعظ والإفتاء:

في سنة 626 هجرية حزم بهاء ولد وأهله جميع أمتعتهم، وألقوا على لارنده النظرة الأخيرة ثم ساروا نحو قونيا. ويدَّعي أحمد أفلاكي على العادة، أن السلطان علاء الدين كيقباذ هو الذي استقبل القادمين العظام على مشارف قونيا، ثم يشير إلى أن السلطان أذن لبهاء ولد بالإقامة مع أهله في إحدى مدارس قونيا، نزولاً عند طلبه، وفي هذه المدرسة كان يلقي على طلبته ومريديه الدروس والمواعظ.

كان سلطان العلماء بهاء ولد شيخاً صوفياً آمن بأنّ الحب الإلهي هو العلاج الأوحد لآلام البشر وشرور الإنسان، ثم إنه تمثل بالتأويل الباطني للدين وللشريعة، شأنه شأن أغلب صوفية القرن السابع للهجرة. ولما كان الفقهاء والمتكلمون يطالبون المسلم بتقوى الله وليس الوقوع في عشقه، كما أنهم يرفضون الفكر الباطني جملة وتفصيلاً، فقد أصبح ظهور الخلاف بينهم وبين بهاء الدين ولد أمراً

---

(1) شهاب الدين السهروردي: توفي في بغداد سنة 632هـ، التقى في مكة بالشاعر الصوفي ابن الفارض، أشهر مؤلفات السهروردي **عوارف المعارف**. وهو غير السهروردي المقتول.

Twitter: @ketab_n

لا مفرّ منه، لكن بهاء ولد استطاع أن يجتذب إلى صفه، عامة الناس في قونيا، ولا ريب أن الفضل في هذا يعود، من جهة، إلى رعاية السلاجقة له ولمريديه، كما يعود من جهة أخرى، إلى مواهب بهاء ولد الخطابية العظيمة، فقد كان في طاقه دائماً إثارة انفعال المستمعين إليه إلى حدّ البكاء أو الهيجان والغضب، بحسب الحاجة.

كان الأمير (بدر الدين جوهر طاش) أحد المعجبين بمواهب بهاء الدين ولد، وبمسالكه الصوفية، فأمر ببناء مدرسة له يلقي فيها دروسه، ويسكن فيها أيضاً مدى الحياة، وحالما تمّ البناء انتقل إليها بهاء ولد مع أهله، وهكذا استقرت حياته وانصرف لدروسه ومريديه.

في ذلك الوقت احتفلت قونيا باكتمال قلعتها التي أمر ببنائها علاء الدين كيقباذ، وكان فرح بهاء الدين ولد بالمناسبة مضاعفاً، فقد أهداه السلطان قطعة أرض صغيرة تقوم بجانب القلعة، فاتخذ منها بهاء ولد مقبرة خاصة.

في شتاء عام 628 هجرية ألمَّ ببهاء ولد مرض لم يمهله طويلاً فتوفي عن خمس وثمانين عاماً، فصلى عليه ابنه جلال الدين، ودُفن في المقبرة التي بناها قبل وفاته.

كان سلطان ولد يشبّه جده بهاء الدين ولد بحيدر الكرار في شدّة بأسه وضخامة عظمه، بينما يطيل أحمد أفلاكي حديثه عن قدرة بهاء ولد على فهم أخفى سرائر الناس، واستطاعته قراءة أفكارهم بمجرد النظر في وجوههم، ممّا كان يثير أشدّ استغرابهم، فلا يملكون إلّا التسليم (بكراماته) والدخول في سلك مريديه.

Twitter: @ketab_n

بعد وفاة والده استقر جلال الدين وزوجه جوهر خاتون وولداهما (سلطان ولد، وعلاء الدين جلبي) في المدرسة التي بناها المير جوهر طاش لبهاء ولد، والتفّ حول جلال الدين جميع تلامذة والده بعد أن رُشِّح للتدريس مكانه، فلم يقصّر عنه لا في التدريس ولا في الوعظ ولا في الإفتاء.

فيما سبق من الفصول أشرنا إلى ملازمة برهان الدين الترمذي لبهاء ولد في أثناء وجودهما في بلخ، وقيام الترمذي بالإشراف على تعليم جلال الدين في زمن صباه، ثم إنّ سيد برهان الدين انصرف إلى الزهد وعكف على العبادة، وبدأ يطيل فترات الخلوة، فكان يعتزل العالم مدّة أسبوع أو أكثر وقد يحبس نفسه في غرفة مقفلة مدة أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب ولا يكلم أحداً ويكتفي من الطعام بكسراتٍ من الخبز اليابس ومن الشراب بجرعات صغيرة من الماء، ولم يتحمّل جسده هذا النصب والحرمان (وليس كل إنسان قادراً على تحمُّل مشاقّ رياضة المتصوفة)، فاختبل عقله وهامَ على وجهه وفقدَ الناس له كلّ أثر مدة اثني عشر عاماً، قيل إنه أمضاها في البراري والغابات والجبال مستأنساً بوحش الحيوان ومتهيباً من الإنس والعمران. ثم استعاد عقله فرجع إلى أهله في ترمذ، فأطلق عليه لقب فخر المجذوبين، ثم زاد تقدير مريديه له فصاروا يلقبونه بالمحقّق، ويقصدون أنه ليس من أصحاب العلم المنقول، فهو ليس مقلداً، بل هو محقّق، أي ذو أصالة في العلم.

ولمّا علم أنّ شيخه بهاء ولد قد هاجر إلى قونيا شرع يفكّر بالهجرة إليها للقاء صديقه الحبيب. وفي أحد الأيام، بينما كان برهان الدين جالساً بهدوء وسكينة على عادته، هبَّ واقفاً على حين

Twitter: @ketab_n

بغتة وهو يصيح «ويلاه شيخي وصاحبي بهاء الدين ولد قد رحل عن هذا العالم الفاني»، ثم يسأل المحيطين به أن يصلّوا معه على الراحل العزيز، ولمّا علم أهلُ ترمذ بأنّ بهاء ولد قد توفي بالفعل في ذلك اليوم، كما تنبأ سيد برهان الدين، ازدادوا إيماناً بكراماته وبأنه عالم محقّق وعارف تقع له الكشوفات.

بعد هذا تراءى بهاء ولد لصديقه سيد برهان الدين في الحلم، وسأله أنْ يتوجّه إلى قونيا للعناية بجلال الدين، وفي قونيا سكن سيد برهان الدين في مدرسة جلال الدين ليقوم بتوجيه خطاه كما أراد بهاء ولد.

كانت النصيحة الأولى التي وجهها برهان الدين إلى (مولانا)، فلقيت لديه أذناً واعية، الطلب منه الرحيل إلى الشام لدراسة علوم الظاهر التي كانت تشتمل في ذلك العصر على اللغة والنحو والصرف والبلاغة والأدب وعلوم الدين من قرآن وتفسير وحديث وفقه... إلخ. وربما وقعت هذه الرحلة سنة 630 هجرية، ويبدو أنه سافر وحيداً. أمّا زوجه (جوهر خاتون) فأغلب الظنّ أنها كانت توفيت قبيل هذا التاريخ، إذ يغفل أحمد أفلاكي الإشارة إلى هذا الحدث لسببٍ لا نعرفه، ويشغل نفسه بتفاصيل الأحاديث عن توجّه جلال الدين إلى التصوف تحت إشراف شيخه برهان الدين، وحين يعود بعد ذلك إلى سرد أحداث السيرة الشخصية لجلال الدين، نسمعه يتكلّم عن زوجه الجديدة (كرا خاتون)، مشيراً باختصار إلى وفاة جوهر خاتون دون أن يُعنى بتحديد وقت الوفاة.

لبثَ جلال الدين في الشام أربعة أعوام، على الأغلب، وكانت حلب هي محطّته الأولى لأنها موطن الأديب الشاعر المؤرّخ الشهير

Twitter: @ketab_n

القاضي (ابن العديم)[1]، وكان من أصحاب بهاء ولد، ولهذا أبدى لجلال الدين كلّ ضروب الرعاية والمحبّة، وعني بتوجيهه إلى جميع ما يحتاجه من كنوز العلم والمعرفة، وليس من شكٍّ في أنّ مولانا مدين إلى ابن العديم بأشياء كثيرة أهمّها: شغفه الشديد بالشعر العربي، وحماسه لأبي الطيب المتنبي بشكل خاص، ومن ابن العديم تعلَّم أيضاً التسامح والإنصاف وعدم التعصّب وسعة الأفق وغير ذلك من الخلالّ الحميدة المتجلّية في مصنفات ابن العديم لا سيما كتابه الشهير في الدفاع الشريف عن أبي العلاء المعري، ضد الدارسين القدامى الذين اعتادوا التهجم عليه والتحيّز ضده، في حين وقف ابن العديم إلى جانبه بشجاعة العالِم الذي لا يهمّه غير إيضاح الحق مبيناً سخف الاتّهامات الباطلة التي وجّهت إلى أبي العلاء المعري ترضيةً لبعض حكام عصره، وفي مقدّمتهم الفاطميون الذين ناصبوه العداء بشكلٍ خاص لأسباب لا محلّ لتفصيلها في هذا المقام.

ومن المؤسف، بالنسبة لي على الأقل، أنني لم أعثر في آثار الرومي على أية إشارة إلى أبي العلاء، رغم تحمُّس أستاذه ابن العديم له، كلّ هذا الإغفال يجب أنْ لا يثير استغرابنا، ذلك أن الرومي أمضى جميع حياته الإنتاجية في قونيا التركية تحت الحكم السلجوقي المشهور بتحيُّزه ضد الشعر العربي بشكلٍ خاص، في حين بلغ الأدب العربي قمّة نضجه وأصالته في آثار أبي العلاء، هذا من

(1) ربما كان لقراءة ابْن العديم ديوان **ترجمان الأشواق** على مؤلفه ابن عربي في وقت سابق لهذا التاريخ صلة برحلة الرومي إلى حلب ودراسته على يد القاضي ابن العديم.

Twitter: @ketab_n

ناحية، ومن ناحية أخرى فإنّ المعروف عن أبي العلاء كراهيته الشديدة لمسالك الصوفية الذين لم يسلموا من هجائه وانتقاده لتوجّهاتهم المُعادية للعقل، وفي هذه الحالة فليس لنا أن نتوقع من الرومي الاهتمام بأبي العلاء أو الثناء عليه.

بعد حلب انطلق جلال الدين الرومي إلى دمشق التي كانت في ذلك الحين مقراً للشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، حيث كان يقضي الأعوام الأخيرة من عمره، ويدّعي بعض الدارسين أن الرومي التقى بابن عربي وناظره في مسائل الدين والفلسفة، لكنه خرج برأيٍ سلبي في محي الدين، ويقولون إنه لم يكُن مرتاحاً لإصرار ابن عربي على تقنين التصوّف، أي تحويل التصوف إلى علم له قواعده وضوابطه ومصطلحاته، وله فلسفة تقوم على المنطق الذي ينفر منه الرومي إرثاً عن والده، وعن شيخه برهان الدين. فالرومي يؤمن بأنّ التصوف ذوق وانفعال ووجد، وذلك كله بعيد عن العقل والتفكير والفلسفة. وما زاد في عمق الهوة بين الرومي وابن عربي، نزعة هذا الأخير نحو التظاهر بقدراته ومواهبه الروحية، والتباهي بالكرامات التي تقع له، وليس في ذلك ما يلائم عاشق الحقيقة الذي يجب أن يتحلى بأشدّ التواضع ويحرص على إخفاء (الكشوفات) التي تعنّ له، ليكون فعلاً حبيباً لله، وإلّا فما الفرق بينه وبين أهل النقل والتقليد؟

بعد ذلك، أي بعد حصوله على الإجازات العلمية في الشام، عاد الرومي إلى الأناضول، مختتماً فترة إقامته في الشام التي ظلّ مفتوناً بها إلى آخر حياته، كما تثبته أشعاره، على أنّ الأستاذ عبد الباقي غول ينارلي يرى أنّ الرومي ربما حصل على بعض إجازاته من الشام قبل هذا التاريخ، أي حين إقامته في لارنده، وربما قبل زواجه

Twitter: @ketab_n

بجوهر خاتون، لأنّ الدراسة تتمّ عادة في أيام الحداثة والصبا، أمّا في عهد النضج فالإنسان يحاول أن يكمل نواقص علومه من طريق التخصّص. المهم في كلّ هذا أنّ الشام علّمت الرومي كيف يحبّ العرب ويعشق أدبهم ويتفهم حضارتهم، ولم يكن بإمكان الأناضول أن توفّر له هذه الإمكانية.

بعد العودة إلى قونيا، كان على سيد برهان الدين محقّق أن يؤدي واجبه الأخير وهو أن يعيّن تلميذه جلال الدين على ارتقاء مقامات التصوف مرتبة تلو المرتبة، حتى بلوغ درجة الإنسان الكامل أو الولي. ومن المعروف أنّ الولاية حالة نادرة بين المتصوفة، فبين كلّ ألفي صوفي لا يظهر أكثر من إنسان كامل أو ولي واحد.

وبالفعل غرق جلال الدين في عالم الخلوات والصوم وتعذيب الجسد مما تمتلئ به صفحات (مناقب العارفين) لأحمد أفلاكي، إلى أن بلغ المراتب الرفيعة العليا التي لا تُوْهَب إلّا (للمعشوقين الإلهيين). عند هذا أحسّ سيد برهان الدين محقق أنّ واجبه قد انتهى وأنّ رسالته قد تمّت، ثم إنه نادى تلميذه جلال الدين وقال له: «بعد اليوم لن تكون في حاجة إليّ لأنّ القادم الجديد سيملأ لك دنياك الجديدة» على عادة سيد برهان الدين بالتنبؤ بظهور شمس الدين التبريزي.

في سنة 638 هجرية عاد سيد برهان الترمذي إلى بلدة قيصري وفي اليوم الأخير من العام المذكور استدعى خادمه وقال له: «لكَ أن تغادر الدار، اذهب واقفل الدار عليّ، ويمكنك أنْ تقول للناس ما يلي: الترمذي غادر دار الفناء في هجرة أبدية». وكان ذاك بالفعل يومه الأخير على سطح الأرض.

Twitter: @ketab_n

ولمّا بلغ نعيه أسماع أهل قونيا، هرع جلال الدين إلى قيصري وتوجَّه رأساً إلى ضريح شيخه وجلس عنده ساعات يبكي وينتحب ثم عاد إلى دار شيخه، حصل على جميع كتبه ودفاتره بحسب وصيته وأدى الفروض الدينية على روح شيخه المحبوب، وقفل راجعاً إلى قونيا.

أهمّ ما تعلمه جلال الدين الرومي من أستاذه سيد برهان الدين إعجابه الشديد بالشاعرين الحكيمين: سنائي ونظامي[1]، كذلك فإن كثيراً من الأفكار الإسماعيلية التي ستظهر في مثنوي الرومي، ترجع أساساً إلى إعجاب سيد برهان الدين بداعية الإسماعيلية ناصر خسرو[2] من ناحيةٍ أخرى، فإن الطريقة الصوفية التي اتّبعها جلال الدين الرومي أقرب ما تكون إلى (الملامتية) كما سنرى، وهذه الطريقة هي التي كان سيد برهان الدين ينتمي إليها. ولمّا كان هذا لا ينفكّ عن التحدّث عن الدراويش (القلندرية) و(الأبدال) وما إلى ذلك من مصطلحات (الطريقة) فإنّ هذه الألفاظ تتكرّر أيضاً في شعر الرومي متأثراً بأستاذه على العادة. وفيما عدا هذا كله، فإنّ تهجمات الرومي على الكلام والفلسفة إنما تعلّمها مباشرةً من شيخه المذكور.

---

(1) نظامي (1140- 1204م) شاعر وحكيم فارسي الأصل، اعتزل العالم منصرفاً إلى التأليف، أشهر مؤلفاته المعروفة كتاب **خمسة** الذي يحتوي على خمسة فصول منها خسرو وشيرين، ليلى والمجنون والإسكندر الأكبر... إلخ. كان لهذا الشاعر تأثيره الشديد في تطور الأدب الفارسي.

(2) ناصر خسرو (1003-1060م): من مواليد بلخ، فارسي الأصل، سافر إلى الحجاز وإلى مصر حيث اعتنق المذهب الإسماعيلي وأصبح من أشهر دعاته، له كتاب **سفرنامة** الذائع الصيت.

Twitter: @ketab_n

ومع ذلك، فإنّ سيد برهان الدين لم يكُن جاهلاً بالفلسفة، بدليل مناقشاته المتواصلة لفكر المعتزلة، ومراجعاته لآراء ابن سينا الفلسفية ونظريات (أخوان الصفا) ذات الصلة بالفكر الإسماعيلي.

2- اللقاء بشمس الدين التبريزي:

إلى يوم مقابلته لشمس الدين التبريزي، كان جلال الدين الرومي رجل دينٍ وتصوّف، لا يختلف عن الآلاف من أمثاله الحاضرين وقتئذٍ في كلّ مكان من العالم الإسلامي. كان معروفاً بالفضل والتقوى، يُحبّه تلاميذه لما يتميّز به من ألمعية وذكاء ومعرفة، إضافةً إلى جمال خُلُق، وحلاوة لسان، وسماحة طبع، كلّ ذلك كان سبباً لالتفافهم حوله وحرصهم على مرضاته، كان يكسب عيشه من طريق التدريس، والوعظ في الجامع أيضاً. وقد وُهب التوفيق في كلّ ذلك، حتى ذلك اليوم لم تكن ينابيع مواهبه قد تفجّرت بعد، فما زال في حاجة إلى الحافز المُحرّك، أي إلى (الكبريت الذي يبعث النار في العود الغض). وتلك كانت مهمة شمس الدين التبريزي: فمن هو هذا الإنسان؟

وُلد (محمد شمس الدين ابن ملك داد علي)، التركماني الأصل، ونشأ في تبريز عاصمة أذربيجان، ولأن معاصريه لم يُشغِلوا أنفسهم بتحديد تاريخ مولده، فإنّ الأستاذ عبد الباقي غول ينارلي يحدِّده بسنة 581هـ.

منذ عهد الطفولة، بدت على (شمس) إمارات ذكاء خارق، وأحوال مثيرة للعجب، جعلت والده في قلق شديد عليه، فكان يُظهر له الحنان والشفقة، وكأنما أدرك ما ينتظره من آلام وأهوال، ويعترف

Twitter: @ketab_n

شمس الدين في كتابه **المقالات** بأنه حين رأى قلق والده حاول التخفيف عنه بأن روى له حكاية الدجاجة التي احتضنت عدداً من البيض، فلما فقست، لم تلحظ الأم أيّ فرق بين الأفراخ. وفي يومٍ من أيام الربيع اصطحبت صغارها إلى الجدول لتُعلّمهم السباحة، لكن أحد الفراخ، سارع دون إذن الدجاجة ورمى بنفسه في الماء، فشرعت الدجاجة المذعورة بالاستغاثة واقتربت من الماء، فإذا بالفرخ الصغير يسبح بمهارة غير معروفة في الدجاج، ذلك أنه لم يكن من صنف الدجاج أصلاً.. كان من البط! «وذلك هو حالي أنا بينكم يا أبي: أنا أبدو مثلكم ظاهراً، لكنني في الحقيقة مُباين ومختلف عنكم».

هكذا، اتّضح لشمس الدين أنّ مكانه ليس بجانب أبيه، ففارقه حالما بلغ سنّ الرشد، والتحق بخدمة صوفي يُدعى: أبو بكر سلّه باف، وهذا اللقب يعني: حائك السلال ومن (سله باف) هذا تعلّم أصول الصنعة ليتكسّب بها، كما أخذ عنه مبادئ التصوّف، ثم جاء يوم أدرك فيه أن الصوفي المتواضع المذكور، لا يملك ما يعلّمه إياه، ففارقه مثلما فارق أباه من قبل، ومضى يطوف أرجاء العالم الإسلامي وحيداً، وقطع البلاد بلا رفيق ولا صاحب، إذ لم يكن يطيق صحبة أيّ إنسان. لا يعرف شمس الدين تأريخاً محدداً للوقت الذي نشأ لديه هذا الشعور بالاغتراب، فهل بدأ في الطفولة البعيدة، أم في الصبا الباكر! كذلك لم يستطع أن يُحلل أسباب هذه المشاعر المتناقضة التي تملأ نفسه، الشيء الوحيد الذي كان يحسّ به هو شعور مُبهم بالحاجة إلى التعرف بشخصٍ ما، صديق مُقرّب يعرفه جيداً ويستطيع أن ينسجم معه بسهولة ويُسر، شخص يختلف عن جميع البشر الذين عرفهم في

Twitter: @ketab_n

حياته. كان شمس قد قرأ كثيراً عن عظماء الناس، لكنه لم يكن يرى العظمة في كبار الفاتحين ولا عظام القواد ولا دهاة الساسة، فهؤلاء في ظنه لم يرتقوا سُلّم المجد إلا على أكوام من جثث البشر، فلولا مقتل الملايين ما كان محمود الغزنوي، ولا جنكيز خان، ولا حتى الإسكندر المقدوني. وكان (شمس) دائم البحث عن العرفان، كثير الدرس للفلسفة والكلام والفقه والشرع، ومع ذلك، فإنّ دياجير الشرّ التي رانت على بلاد الإسلام في عمره، القرن السابع للهجرة بحسب ما فصّلناه في الفصل السابق، جعلته يجحد العلم ويُنكر فضيلة العقل، لأنّ جميع طُغاة ذلك العصر كانوا يفذلكون مظالمهم ويدافعون عنها باسم العقل، كانت دماء الأبرياء تُسفح أنهاراً تحت ستار الدين الذي يؤكّد جميع الفلاسفة أنه لا يتناقض مع العقل، لأن الله هو العقل الكوني (فليس عقل الإنسان بقادرٍ إذن على الوصول إلى الحقيقة)، ذلك هو الاستنتاج الذي توصّل إليه شمس الدين الذي كان همُّه وشغله الشاغل أن يبلغ الحق ويُدركه ويفهمه، وكان شمس يلتمس الكمال (الذي هو تجلي الحق)، ولا شكّ أنه بحث عن الكمال في نفسه هو، على طريقة المتصوّفة المعاصرين له، والذين سبقوه، بعد أن يئس من البشر، ومع ذلك فقد عرف أنه في حاجة إلى العثور على الإنسان الكامل الآخر، الرفيق الذي سيُصاحبه في الطريق الطويل القاسي، طريق الرياضة الروحية التي تُفرض على (العارف). ومن الواضح أنّ شمس الدين كان قد اطّلع على نظرية أفلاطون التي نسبها هذا إلى سقراط كعادته، النظرية التي ترى أن الإنسان يبحث أبداً عن نصفه الآخر، ولا يرتاح حتى يجده، وأن كل فرد من البشر يشبه نصف تفاحة، ولكي يكتمل الفرد فلا بدّ له من الاتحاد بنصفه الآخر:

Twitter: @ketab_n

كما أن التفاحة لا تكتمل إلا باجتماع - نصفيها! وبهذا المفهوم الأفلاطوني مضى (شمس) يبحث عن نصفه الثاني وهو واثقٌ من أنه سيجده في مكانٍ ما من الأرض الواسعة. المهم هنا أن نعرف بأن شمس الدين لم يُشغِل نفسه بعالم الصور، كما يفعل الشاعر حين يتلهّف للقاء الحسناء الحبيبة، وإنما كان همّه العثور على النفس الجميلة التي تشتاق نفسه الاتحاد بها. فهل سيجد ضالته في عالم النساء؟ قطعاً لا: ذلك أن المرأة في القرون الوسطى، كانت محجوزة في خبايا سراديب الحريم، وقد فقدت إنسانيتها: وتحوّلت إلى كائنٍ لم تخلقه الحياة، وإنما شوّهته مجتمعات الطمع والبلادة، كائن عجيب يقع ما بين الإنسان والحيوان، لا هو بالإنسان ولا هو بالحيوان، مخلوق مُشوّه العقل، مترهل العضلات، يُستخدم لتحقيق غايات ليس منها الرفقة والصداقة والمصاحبة على أية حال! كان على شمس الدين إذن أن يلتمس خدينه بين أبناء جنسه، خصوصاً وأن أفلاطون يؤكد أن الصداقة (الروحية) لا يمكن أن تتم إلا بين الرجال في عالم لا تتوفر فيه أسباب المعرفة والثقافة إلا لهم وحدهم دون النساء.

وشرع شمس يجوب الآفاق، ولم يكن يستقر في أيٍّ موضع، كانت الخانات والنُزل، مقرّاته المؤقتة، فما يكاد يشعر بوجود إنسان على أقل معرفةٍ به، حتى يسرع بمغادرة النُزل. لماذا؟ يقول أحمد أفلاكي إنّ شمساً كان يخشى الأرصاد، والظاهر أنه كان مطارداً. ممّن؟ ولماذا؟ هل كان رجل سياسة؟ هل كان مطلوباً لثأر؟ هل كان على صلة بالإسماعيلية. لقد كان أجداد شمس من الإسماعيلية بالفعل، لكن والده تبرّأ من هذا المذهب، وأحرق كتبهم التي

Twitter: @ketab_n

يمتلكها، فهل كان فراقه لوالده ناشئاً عن هذا السبب؟ الذي نعرفه أنّ شمس الدين حين وصل إلى قونيا سنة 641هـ لم يكن على المذهب الإسماعيلي لسببٍ بسيط واحد وهو أنه كان متصوّفاً. والإسماعيلية ضد المتصوّفة، رغم أنّ المتصوّفة منذ القرن السادس اعتنقوا كثيراً من أفكار الإسماعيلية، لكن الفرق الجوهري بين الطائفتين أنّ الصوفية منسحبون من الدنيا عاكفون على الرياضة الروحية من زهد وخلوة وصيام وتعذيب للجسد، في حين تعدّ الإسماعيلية من أشدّ الطوائف حرصاً على متاع الحياة، لا سيما في القرن السادس والسابع الهجريين، حين صارت (قلعة الموت) الإسماعيلية تصدِّر الإرهابيين لاغتيال كبار التنفيذيين على طول الساحة الإسلامية وعرضها، فكانوا مصدر رعب للجميع، حتى للجنود الصليبيين القادمين من أوروبا. كان الإسماعيليون يُصرّحون بأنهم (عازمون على إقامة دولة العدل والعقل التي حقق الفاطميون المرحلة الأولى منها)، ثم اختلفوا مع الإسماعيلية، ووقع الانشقاق بين الجماعتين، وكلّ هذه الأهداف الدنيوية مباينة تماماً لأهداف المتصوّفة الذين يدْعون إلى إماتة الرغبات الدنيوية من أجل الوصول إلى مقام الاتحاد بالمطلق.

كانت الشام من أحب المواضع إلى (شمس الدين)، فهو يزورها دائماً، ويُقيم بها طويلاً، وهو يعرف مدنها وأهلها معرفة المواطن المقيم، وليس الضيف المترحّل، والشام في ذلك الحين كانت تفتح ذراعيها للصوفية، على ما ذكرنا، لكن الشام أيضاً كانت في الوقت ذاته مقراً لكثيرٍ من فدائيي الإسماعيلية، وربما كان في هذا التفسير المعقول لما يؤكده معارف شمس، في أنه كان شديد الحرص على

Twitter: @ketab_n

التخفي أينما حلّ في بلاد الشام، فكان لا ينزل إلا في خان لا يعرفه فيه جنس مخلوق! وكان يشتري أقفالاً خاصة لأبواب الغرف التي يستأجرها، ويرفض استقبال أي زائر في تلك الغرف، ويتجنّب تكوين الصداقات أو العلاقات مع الجيرة. في الوقت ذاته، كان شمس أثناء إقامته في الشام يظهر للناس بأنه صوفي، مستغرق أبداً في الرياضات وفي مقدّمتها الصوم والخلوة، وبذلك يبرّر وحدته ويقطع فضول الطفيليين. يروي (أفلاكي) أن شمس الدين توجه يوماً إلى دكان في حلب يبتاع شيئاً، فعرفه البائع، وأراد أن يبيعه أفضل ما عنده، لكنه حين استدار نحو شمس ليُسلّمه السلعة لم يجد أحداً، فكان قد انتهز فرصة انشغال البائع، وهرب، لأنه رأى البائع قد عرفه. في مناسبةٍ أخرى، كان شمس يقوم بتعليم القرآن لأطفال إحدى قرى أرضروم، فلمّا أدرك شمس أنهم يريدون أن يقدّموه لآبائهم كي يكرموه، أسرع يغادر أرضروم كلها، فلم يُعثَر له على أثر من بعد. أثناء ذلك كان شمس الدين يمضي قدماً في التماس المراتب العليا في عالم التصوف، وكان شعوره بضرورة العثور على الشيخ الحقيقي (المريد، المراد) على حدّ تعبير الصوفية، هذا الشعور ظلَّ يشتد ويشتد بحسب توضيح أبي الطيب المتنبي:

ولكن حباً خامر القلب في الفنا
يزيد على مرّ الزمان ويشتد

وكان العمر يجري به، وها هو يُقارب الستين، والفراغ يملأ عليه العالم، إذا صحّ التعبير: وهو في حركة دائبة لا يعرف موطناً ولا يسكن إلى أرض، حتى لقّبوه بشمس الطيار، وكان اللقب في موضعه تماماً، فقد ظلّ الغريب الصوفي في سياحة أبدية حتى

Twitter: @ketab_n

النهاية، في بغداد، زار شمس الدين صوفياً معروفاً كان يُقيم بها وقتئذٍ، اسمه أوحد الدين الكرماني، فسأله شمس عمّا يفعل في المدينة، قال أوحد الدين:

- أنا أراقب القمر في ماء الطشت: (يقصد أنه كان يتأمل جمال الوجوه بحثاً عن الجمال المُطلق).

قال شمس يُجيبه:

- إنْ لم يكن في جوف رقبتك ورم، فلا تخفض رأسك، بل ارفعه إلى الأعلى كي ترى قمر السماء، أما الحُسن، فالتمسه داخل نفسك!

عندها أمسك أوحد الدين ذراع شمس وقال:

- أرجوك أن تسمح لي بمرافقتك.

قال شمس:

إنك لن تطيق صحبتنا:

ولمّا طال إلحاح أوحد الدين، قال شمس:

- أقبل بشرط واحد، أن نتوسط أنت وأنا، سوق بغداد ونحتسي الخمرة أمام الملأ!

قال أوحد الدين مُستنكراً:

- أعوذ بالله، حاشا أن أفعل هذا.

عرضٌ آخر.. أنا الذي سأشرب، وعليك أنت أن تجالسني، وتتحدث معي على هذا الحال. ما رأيك؟

- هذا أيضاً ما لن أفعله أبداً.

- ما دمت كذلك، فابعد عن طريق الرجال: أنت لا تصلح لي

Twitter: @ketab_n

رفيقاً، واعلم أنني لا ألتمس مريداً ولا شيخاً، وما أبحث عنه هو العارف الولي المرشد، الهادي، لقد هجرت الأوطان وتغرّبت في البلدان وأنا أطلبه، لكني لا أجدُ في راحة يدي غير الهواء!

- من هو الإنسان الكامل في رأيك؟

- هو الذي إذا سمع انتقادات الناس لم يُبدِ انزعاجاً ولم يتميّز غضباً!

- ما أسهل أن نجد مثل هذا الإنسان.

- هل تظن ذلك؟ فاسمع إذن الحكاية الآتية: في مجلس من مجالس الصوفية راح أحدهم يُطيل حديثه عن الأسماك، فارتاب أحدُ الجلوس بمدى معرفته وقال له متسائلاً:

«أتعرف السمك حقاً؟» قال الرجل «كيف لا أعرفه وقد قضيتُ كل عمري في أسفار البحر»، قال السائل «فاشرح لنا أمره وفصّل لنا وصفه» قال الرجل: «ما أسهل هذا... السمك حيوان شبيه بالجمل وله قرنان!!» قال السائل: «صه أيها الأحمق، أنت لا تفرّق حتى بين الثور والجمل، فلا عجب أن تجهل صفة السمك»، وهكذا هُم الناس في العادة، إنهم بلا تمييز وبلا عقل، وبناء على ذلك كله، قرّ الرأي مني ألّا أطلب إلّا الإنسان الكامل. قال (شمس) وهو يُنهي حديثه: «وفكّرت بيني وبين نفسي: لا بد أن رفيقي موجود في مكانٍ ما على وجه هذه الأرض، فلا يُعقل أنّ العالم المحتشد بهذا العدد الهائل من البشر، يخلو من إنسانٍ واحد فقط، وهو الذي أتمنى لقاءه».

في تلك الأثناء، قارب شمس الدين سنّ الستين، وملأت الشعرات البيض فوديه ولحيته، كان يرتدي خرقة اللباد، ويحمل بيده

Twitter: @ketab_n

علماً، شأنه شأن دروايش ذلك العهد. أما رزقه فكان يأتيه من عرق الجبين، فقد جرّب العمل في مختلف الحِرف والمهن، اشتغل في الحدادة واحترف بيع سلال الخوص والخيزران، وحمل مشحذ سكاكين كان يحصل عن طريقه على بضعة قروش في اليوم، هذا إضافةً إلى قيامه في أحيان كثيرة بتعليم الصبيان القراءة والكتابة لقاء أجورٍ زهيدة. لم يستنكف من أيّ عمل ما دام يحفظ له ماء وجهه، كي لا يضطر إلى الاتكال على الغير، ولها عوّد نفسه على الجوع والصبر، وتحمّل الفاقة والحرمان بتحدٍّ وكبرياء...

من مناقب شمس الدين التبريزي ينقل أحمد أفلاكي الحكاية الآتية:

في طريقه إلى قونيا، مرّ شمس الدين ببلدة (آق سراي) وإذ لم يجد النزل المناسب، قرّ رأيه على المبيت في المسجد، بعد صلاة العشاء توجّه المؤذن إلى بوابة المسجد ليُغلقها، فرأى شمس الدين الجالس على الأرض فصاح به:

- مَن أنت؟ وماذا تفعل هنا بعد خروج جميع المصلين.

- أنا رجل غريب أيها الرجل الصالح، ولستُ أجد مكاناً لقضاء الليلة، فلتسمح لي بالبقاء هنا حتى الصباح.

احتدّ المؤذن وشرع يوبّخ شمس الدين ويهينه إلى أن فقد هذا صبره، فنهض، ومضى نحو الباب وهو يتمتم:

- الله قادر على أن يكتم هذا الصوت!

في الحال أحسّ المؤذن بلسانه ينتفخ، ثم بدأ يلتصق ببلعومه، وأخيراً وقع المسكين على الأرض وهو يُحتضر، فهرع إليه إمام المسجد وقال متعجباً:

Twitter: @ketab_n

- ماذا يجري هنا؟ ما بك أيها الشيخ؟

أشار المؤذن إلى شمس الدين الذي كان يسير مبتعداً قال بصعوبةٍ بالغة:

- الحق بذلك الشيخ واطلب منه المغفرة.

فهبّ إمام الجامع الموضوع وجرى خلف شمس الدين حتى بلغ موضعه، وقال له:

- أرجوك يا سيدي أن تعفو عن المؤذن التعس، فهو لم يكن على علم بمقامكم الجليل. اعذره، قبل أن يموت. قال شمس:

- أما الآن فقد قضي الأمر، والحكم لله وحده من بعده، فلقد استُجيب الدعاء. كلّ ما أستطيعه هو الدعاء له بأنْ يموت مؤمناً لا كافراً.

وحين عاد الرجل إلى المؤذن وجده قد فارق الحياة: لقد عدّ مريدو شمس الدين التبريزي هذه الواقعة من كراماته الأكيدة، والحال أنّ العلم الحديث اكتشف إمكانية وقوع مثل هذه الأمور استناداً إلى ظاهرة الإيحاء التي قد تصل إلى حالة التنويم المغناطيسي، ومن المعلوم الآن أن لبعض الناس قدرات خاصة على التأثير في الآخرين، قد تصل إلى ما يُشبه هذا الذي وقع للمؤذن المسكين، كما أن بعض الناس لديهم الاستعداد الشديد للوقوع تحت الإيحاء، أي الاستجابة له، وذلك شأنَ الوسيط مع المُنوّم المغناطيسي.

لماذا ارتحل شمس الدين إلى قونيا؟ ومتى كان ذلك؟

لمّا طال بحث شمس عن خدينه المنشود، وقع له ذات يوم شيء غريب، فقد رقد في إحدى الليالي، وأثناء نومه، سمع صوتاً يقول له:

Twitter: @ketab_n

- لو حققنا لك مرامك والتقيت بالشيخ الذي تسأل عنه، فماذا ستقدم مقابل ذلك؟ لم يتردد شمس، بل أجاب فوراً:

- مقابل ذلك سأقدّم رأسي.

عند هذا جاءه الأمر الآتي:

- فتوجّه إلى بلاد الروم، وهناك ستلتقي بمن تريد: يروي الرواة أنّ هذه الرؤيا تكرَّرت عدة ليالي، فحزم (شمس) متاعه وتوجّه إلى الأناضول، وهناك صار يسمع بأخبار (مولانا). وهو اللقب الذي يطلق عند العجم على العلماء والصالحين، لكنه صار لصيقاً بجلال الدين الرومي منذ أن شاع اسمه هناك. وظلّ شمس الدين يسمع بفضائل الشيخ الصوفي الكبير المُقيم في قونيا، وأحسّ شمس الدين بجاذب عميق لا يعرف مصدره يدفعه دفعاً إلى قونيا.

في يوم السبت 26 جمادى الآخرة من سنة 641هـ/ 1243م بلغ شمس الدين التبريزي ولاية قونيا عاصمة الأناضول، بدت له المدينة كبيرة، وأذهلته عظمة أبوابها المموهة بالذهب، والتماثيل الضخمة المشيّدة فوق الأبراج، ورأى القلعة الشهيرة التي تحمي المدينة والخنادق المحيطة بها من كلّ جانب والجسور المخصَّصة للعبور، فقال في نفسه: «ما أشدّ اعتزاز هؤلاء السلاجقة بعاصمتهم». وسار شمس الدين إلى مركز البلدة وسأل عن نزلٍ مناسب فأرشدوه إلى مكان يدعى (خان الذكر)، فاستأجر فيه غرفة قضى فيها ليلته تلك.

في مساء اليوم التالي بعد صلاة العصر، جلس عند عتبة الخان يُراقب أهل المدينة الجديدة عليه. فجأة تقدّم موكب كبير في الشارع الرئيس، ومن النظر أدرك شمس أن مجموعة من التلاميذ يُسايرون

Twitter: @ketab_n

مدرساً محبوباً لديهم، وإذ اقترب من الموكب سمع الناس يعلنون: «مولانا جلال الدين، مولانا!!!»

كيف بدا الرومي في عيني شمس الدين التبريزي؟

رجلٌ مهيب معتدل الطول، ذو وجه مستنير، تزينه لحية قصيرة، فجأة أدرك شمس أنه إزاء رجل مثير للاهتمام، فنهض من مكانه، وشقّ الزحام حتى بلغ موقع الفرس التي يمتطيها (مولانا)، ومدّ يده فقبض على ركبة الفرس، فوقفت، ونظر إليه (مولانا) متعجباً، قال شمس الدين بلا مقدمات:

- من هو الأعظم في ظنّك: محمد (ﷺ) أم بايزيد البسطامي[1]؟

قال مولانا:

- أهذا سؤال؟ بالطبع محمد هو الأعظم.

- إذن ما سبب قول محمد (ﷺ): «قلبي يغلط أحياناً فأستغفر عن غلطته سبعين مرة في اليوم» في حين يُجاهر بايزيد البسطامي بقوله (سبحاني ما أعظم شأني، ليس في الجبة إلا الله). ما تقول في هذا؟

أجاب مولانا:

- أقول إن محمد (ﷺ) كان يرتقي سبعين مقاماً في اليوم فكلّما

---

(1) بايزيد البسطامي: هو طيفور أبو يزيد بن عيسى المولود في بسطام بإيران، من أسرة مجوسية، أسلم على يد الإمام علي بن موسى الرضا الذي عني بتربيته، تميّز بالعاطفة الملتهبة والذكاء الحاد، ودرس الفقه الحنفي ثم انصرف إلى التصوف، وبلغ فيه أعلى مراتب العرفان، كانت تحدث له شطحات غير مرضية، حتى قال يوماً (سبحاني ما أعظم شأني)، وهو القائل أيضاً (ما في الجبة إلى الله!) لكنه كان يتوب عن أقواله، ويستغفر الله حالما يعود إلى وعيه، توفي سنة 874م.

Twitter: @ketab_n

ارتقى مقاماً استغفر عن المقام السابق، في حين أنّ بايزيد حين بلغ أولى تلك المقامات اختبل، فنطق بتلك الشطحات.

لما سمع شمس الدين هذا الجواب بدا عليه سرور شديد رآه مولانا وفهمه، فبين القلوب سَواقٍ كما يقول المثل، وتعانق العارفان وكأنهما صديقان التقيا بعد فراقٍ طويل. واصطحب (مولانا) صديقه الجديد إلى المدرسة التي يُقيم فيها مع أهله.

المولوية تعلّق على هذا اللقاء أهمية تاريخية عظيمة، ويصفونه بالآية القرآنية ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾، وقد وضعوا إشارة على تلك البقعة من قونيا، وصارت لديهم مقدَّسة، وتحوّلت إلى مزار يمرّ به كلّ زوار ضريح الرومي، ليتبرّكوا بقداسته.

اختلى الصديقان في إحدى قاعات المدرسة، ولم يُسمح لأيّ إنسان أن يُقاطع خلوتهما إلا (سلطان ولد) وحده، ودخلا في محاورات ومناظرات لا تنقطع إلا لتتجدّد، واستمر ذلك ستة أشهر بطولها، ممّا اقتضى أن يهجر (مولانا) تلامذته، ومريديه، ولم يعُد يزور المدرسة، ولا يُلقي المواعظ، ولا يُصدر الفتاوى.

وبعد أن وقع التعارف الأول، قال الرومي للتبريزي:

- يا شمس تبريز، يا لؤلؤة عالم المعنى، داري هذه لا تليق بمقامك الرفيع، لكن عبدك هذا الماثل أمامك، يُقدِّم لك كلّ ما يملك: بيته وأولاده، وبناته وجميع مَن فيه وما فيه!!

ويبدو أن تغييراً عظيماً قد وقع في حياة الرومي بتأثير شخصية ذلك القادم الغريب. كان عمر شمس وقتئذٍ كما وضّحنا قد تجاوز الستين، والرومي قد تجاوز الأربعين على أية حال، وكان بين الشخصيتين فروق واختلافات واضحة. فشمس الدين كان رجلاً حادّ

Twitter: @ketab_n

المزاج، فاقد الصبر، ميالاً إلى الصراحة، حريصاً على الصدق، ينفر بشدّة من النفاق والرياء، ولا يعرف المجاملة، لا يُخفي كراهيته للجمود والتقليد، والبلادة، والخمول، والكسل، وبالمقابل، كان يعشق النضارة والجدة في كل شيء، فلا عجب أن يعلن الحرب على الذين يجعلون الدين بضاعةً يصطادون بها البسطاء والمساكين والغافلين، كان عاطفياً وانفعالياً، حين يسمع ما لا يُعجبه تبدو عليه إمارات الغضب بسرعة، ولا يعرف أن يسكت، وحين يُعجب بأيّ إنسان يسكب مشاعر قلبه كماء النبع الصافي.

أما (مولانا) فقد كان، قبل قدوم شمس، شيخاً وقوراً وديعاً، حريصاً على إخفاء انفعالاته كأي إنسان مُهذّب ومُتحضِّر، مهتماً باجتذاب قلوب جميع المحيطين به، لم يكن متمرداً على المجتمع مثل صديقه، ولم يخطر له يوماً أن يُغيّر طباع الناس أو تقاليد المجتمع، ولم يدُر في خلده أن يخرج عن ثوب وقاره ليرتدي زي العاشق المتأجِّج القلب بالبرق واللهب، كل هذا وغيره سيكون ضمن ما سيتعلمه من هذا القادم الغريب.

منذ اللقاء بالتبريزي بدأ الرومي يقول الشعر، من الضرب المسمى بالفارسية: الغزل[1]، وبغزلياته هذه سيحتلّ الرومي مكانه:

---

(1) الغزل: في أدبنا العربي، يُعدّ الغزل غرضاً من أغراض الشعر، أما في الشعر الفارسي، والشعر التركي الذي اقتدى به دائماً، فإنّ مصطلح (الغزل) يُطلق على ضرب أو قالب شعر للقصيدة القصيرة التي يتراوح عدد أبياتها بين سبعة إلى خمسة عشر بيتاً تنتظمها جميعاً قافية واحدة، ويختم بيتها الأخير بذكر اسم الشاعر أو محبوبه، ويستعمل (الغزل) في التعبير عن العواطف الجياشة في الشعر الديواني والشعر الشعبي والشعر الصوفي، وهو في شكله العام شبيه بـ(السونيت) في الشعر الإنجليزي.

Twitter: @ketab_n

شاعر (العشق) الأول في العالم القديم إطلاقاً. يصف الأستاذ برنارد لويس أشعار الرومي هذه بما يأتي (إن غزليات الرومي تكاد تلتهب بالعاطفة التي لا تعرف راحةً ولا سكوناً، وانفعالاته الحادة المتجلية في هذا الغزل تشتقّ قدراتها من احتدام مشاعره وقوة موسيقى ألفاظه وحُسن إيقاعها. إنّ عبقريته في هذه القصائد أشبه ما تكون بيد ساحر، قادرة على تحويل كلّ شيء إلى شعر رائع، حتى كان في طوقه أن يجعل العناصر الكونية مجرد أدوات في خدمة خياله الخصب الملتهم لكل شي في الدنيا. وكان في وَجْده ونشوته مُتمكّناً من تمديد أصوات الألفات وتوسيع حدود الصور إلى أبعادها القصوى مستعيناً بحدّة خياله وعمق عواطفه).

أثار الانقلاب الكبير الذي وقع في حياة الرومي بعد قدوم شمس الدين وما أدّى إليه ذلك من هجرٍ للمدرسة، وترك للوعظ، وانقطاعٍ عن الناس والمجتمع، أثار ضروباً من القال والقيل، وراح الناس يتهامسون فيما بينهم، وتحوّل الهمس إلى انتقاد، والانتقاد إلى شغب وغيبة واتهامات، لكن الرومي لم يعبأ بأيّ شيء من ذلك، كان يتصور أنّ غيرتهم من شمس الدين هي علة المشاغبات، ولذلك حاول أن يُقرّبه إلى قلوبهم بأن يعرّفهم بشخصه، لعلهم يُعجبون به مثلما افتَتَن هو به، ووقع تحت تأثيره، وهكذا بدأ يصطحبه في غدواته وروحاته، في الوقت الذي راح الناس يتداولون غزلياته وهم في أشدّ الحيرة والعجب، ذلك أنّ هذه القصائد لم تكُن من جنس الأشعار التي اعتادوا أن يسمعوها من أهل التصوّف والعرفان، بل إنها لم تكُن حتى شبيهة بغزليات مشاهير العشاق مثل (خسرو وشيرين) و(ليلى والمجنون)، كانت أشبه بحممِ البركان المتفجّر وهي

Twitter: @ketab_n

تتدفق فائرة مهتاجة، تنفث النار وترمي الجمر، فتجتاح الأراضي، وتُغرِق البلدان، دون أن يقف في طريقها شيء.

لنصغ معهم إلى نماذج من هذه الغزليات:

في عينيك عسل وفي خدودك نور
مع اسمك تشب نار الفتنة
ومن قدحك تفيض البهجة
خبزك مملح لذيذ!
حسنك حلو فريد
لو سرت شرقاً أو ذهبت غرباً
لو طرت محلقاً في المساء
أو نزلت هابطاً في الأرضين
فالحياة لا معنى لها إلا بوجودك

* * *

كنتُ زاهد هذه البقاع
كنت خطيب منابرها
لكن القضاء قدر أن تصفق بيديك
فإذا بالعابد عاشق مفتون
أقسم لك بالروح
لم أنطلق من شِباك الأسر
لم أتذوق حلاوة التحرر
إلا بعد أن غرقت في لجّة سكري

* * *

Twitter: @ketab_n

كنت قرين عطارد[1]
لا أنفك مشغوفاً بالأقلام والدفاتر
ولا أكون إلا في صدور المجالس
فجأة أطلّ وجهه الوضّاء
فوجدتني أكسر أقلامي وأمزق دفاتري
وبدموعي رحتُ أتوضأ
وأصبح وجه حبيبي قبلتي في الصلاة
في الكعبة أنت معبودي
وفي الكنيسة أنت أنت..
ما كادت عيني تشهد خبزك
حتى امتلأت وشبعت
ولما ظمئت وشربت ماء حُسنِك
صار ماء جميع الأنهار مُراً في فمي
ها هي ألسنة لهب العشق تضطرم
متصاعدة إلى الأعالي
لكني لا أرى بين كتل النيران
إلا وجه شمس الدين

(1) عطارد النجم أو الكوكب المعروف في اللاتينية هو Mercurius ولدى الإغريق هو هرمز، وهناك في التراث القديم خمس شخصيات بهذا الاسم، أحدها (هرمز) ابن النيل إله الفراعنة، وهرمز ابن باخوس إله الخمر لدى اليونان، وهرمز ابن جوبتير والأرباب... إلخ، إن (هرمز) ابن جوبتير هو الأشهر، فقد كان رسول الآلهة وسيد الرعاة والرحالة وكان أيضاً راعي الخطباء والتجار، وهي الوقت ذاته كان (هرمز) حامي اللصوص والجناة.

Twitter: @ketab_n

لم يكن تأثير شمس الدين قاصراً على جلال الدين الرومي وحده، بل تعدّاه حتى شمل كثيراً من مُريدي الرومي، وفي مقدمتهم ابنه سلطان ولد، الذي افتتن هو أيضاً بشمس وصار أشد مريديه إخلاصاً وتفانياً في خدمته، فلا عجب أن تفيض مؤلفات سلطان ولد، بعبارات الثناء والحب والتقديس لشمس الدين، كما أنه اهتم أشدّ الاهتمام بتقديم التبريرات المعقولة والتفسيرات المُقنعة للتغيّر الذي طرأ على شخصية والده وعلى مسلكه منذ لقائه بشمس، يقول على سبيل المثال:

(حالما أطلّ شمس الدين على قونيا استطاع أن يجتذب (مولانا) إلى هالة أنواره، فمضى يدور ويدور حول مغناطيس (شمس) وفي الوقت ذاته فقد جميع ظلاله تحت وهج أشعتها).

ويقول أيضاً:

(حين شعّ نور (شمس الدين) تفتّحت أمام (مولانا) أبواب جميع الأسرار، مثلما يتكشّف دجى الليل عن فجر نهار جديد، من ذلك اليوم صار (مولانا) يسمع ويرى ما لا يسمعه ولا يراه أي مخلوق غيره، فلقد حوّله إلى عاشق، وفي عيني العاشق يكون الفوق والتحت، والغرب والشرق شيئاً واحداً).

بعد أن ضمن شمس الدين وقوع الرومي تحت تأثيره الروحي أراد أن يكتشف مدى ذلك التأثير، وكما تحدّى الصوفي أوحد الدين الكرماني في الماضي طالباً منه مشاركته في مجلس شراب علنيّ، أعاد الآن التجربة ذاتها مع الرومي، ففي ذات يوم وكانا يجلسان بين جمعٍ من الناس في المدرسة، طلب من الرومي أن يشتري له قنينة خمر، فصعق الجالسون، ولم يُصدّقوا عيونهم حين أحنى الرومي

Twitter: @ketab_n

رأسه، وخرج ثم عاد بعد فترة وهو يحمل بيده قنينة قدَّمها إلى شمس، عند ذلك ضحك شمس، وقال للرومي (إنما كنت أختبرك، أنت تتحمَّل بصبرِ المؤمن وبتفاني الوثني، لقد بلغت الآن مقام الإنسان الكامل). قال هذا ثم سكب جميع ما في القنينة على الأرض.

بعد هذا أحس شمس الدين بأنه قد آن الأوان لتعديل (الانحرافات) في شخصية الرومي، وفي مقدِّمتها شغفه الشديد بالمطالعة والدرس، ذلك أن شمس الدين شأنه شأن غيره من المتصوفة كان يتوهم أن العلوم والآداب التي ينهمك المثقفون بطلبها، لا توصل أصحابها إلى الحقيقة، لأن الحقيقة في ظنّه وظنّهم لا تُكتَشَف إلّا من طريق ما يُسمى في مصطلح عصرنا الحديث بالحدس الباطني (في عالم الغرب، اليوم تتعالى كثير من الأصوات المنادية أيضاً بهذا الاعتقاد). وأوضح أنّ المنبع الذي تصدر عنه هذه الاتجاهات والمعتقدات السقيمة هو حالة الإعياء التام الذي تصاب به العقول أو النفوس المرهفة، في العصور التي تسود بها قوانين الغابة، وكان عصر الرومي وشمس الدين من بين تلك العصور كما رأينا، ولـمّا كان المتصوفة ذوي اهتمام وذوي علم أيضاً بالسايكولوجي، فقد أدركوا (مستعينين في ذلك بالفكر البوذي من جهة والمذاهب الفلسفية الهيلينية من جهة أخرى)، أدركوا أنّ أفضل وسيلة لإزاحة الهموم عن صدر الإنسان، هو اطّراح التفكير أصلاً، ولا يقع هذا إلّا من طريق الانصراف في الدنيا وعدم التعلُّق بأغراضها وأسبابها، (إماتة النفس قبل موتها على حدّ تعبيرهم).

على أن المتصوّفة أدركوا أيضاً أن العدو والمنافس الأكبر الذي

Twitter: @ketab_n

سيتصدى ويقف لهم بالمرصاد هو الفلسفة وأهلها، فلا عجب أن يُعلنوا الحرب عليها بلا هوادة. ذلك أنّ الفلاسفة مُهتمّون أيضاً، مثل المتصوّفة، بقضية التخفيف عن البشر عبء الأحزان والهموم التي تقصم ظهورهم، لكن الفلاسفة لا ينطلقون من فرضيات الصوفية ومن ثم فهم لا يتوصلون إلى استنتاجاتهم، ولا يتّبعون وسائلهم ومسالكهم، وشعورهم بالتعالي على المتصوّفة ناشئ عن اتّكال المتصوّفة على الفلسفة ذاتها، واتخاذهم لجميع أسلحتها في دفاعهم عن معتقداتهم، ثم إن الصوفية حين يدّعون الاعتماد على الحدس الباطني ينسون أن الإنسان ما تحوّل إلى إنسان إلا بالعقل الذي يُطالبون بإبطاله، فالأَوْلى إذن أن يكون الحيوان أدرى بـ (الحقيقة) من الإنسان، إذ إنه لا يمتلك العقل أصلاً..

وتنطلق الفلسفة من مبدأ معقول وهو أن الإنسان مدني بالطبع، والمدنية تقتضي أن يرتبط الحاكمون بالمحكومين، وترفض فكرة التمايز بين الجماعات البشرية. ومن هذه المنطلقات أيضاً تبدأ جميع الأديان الكبرى، في حين لا يهتمّ الصوفية بغير خلاص الأفراد وراحتهم النفسية في المجتمعات الاستغلالية التي يجدون فيها أنفسهم عاجزين تماماً عن مقارعة ظلم الحكام أو صدّ جور المتنفِّذين، وبهذا فإنّ المتصوّفة يجعلون تمايز الناس بعضهم عن بعض قانوناً أزلياً ثابتاً دون أن يعوا ما يفعلون، وذلك هو عين ما يتبناه أولئك الحكام والمتنفِّذون، وهذا هو، في الواقع، سرّ الرعاية الهائلة التي بسطَها على المتصوّفة، مستبدو حكام العصور الوسطى مثل السلاجقة والمماليك والمغول وغيرهم، في حين لا تزدهر الفلسفة إلا في أجواء الفكر الحرّ، أيّ حين يسهل على الآراء مهما

Twitter: @ketab_n

اختلفت أن تطرح للبحث والنقاش والنقد والدرس والتعديل. والنقاش والحوار في أجواء الحرية، هو بحدّ ذاته، مظهرٌ من مظاهر التمدُّن البشري القائم على فكرة التساوي بين الناس، وبطلان فكرة التمايز بينهم، في حين لا تؤدي أفكار الانصراف عن الدنيا، وترك الكسب (العمل)، والتوكّل، والكسل، وغير ذلك من دعوات المتصوّفة، إلّا إلى تخريب المجتمعات والعودة بالإنسان إلى الحالة الحيوانية.

نعود إلى مساعي شمس الدين في تعديل ميول الرومي، يُحدّثنا أحمد أفلاكي في **المناقب** أن شمس الدين كان يجلس ذات يوم مع الرومي عند الحوض الموجود في ساحة المدرسة، وكان بجانبهما مجموعة كبيرة من الكتب، فشرع شمس بإلقاء الكتب واحداً بعد الآخر في ماء الحوض! ومن تلك الكتب: **منطق الطير** لفريد الدين العطار، كان الرومي قد أعاد قراءة هذا الكتاب عدة مرات إعجاباً وافتناناً به، فلما رآه غارقاً في الحوض بانَ الألم على وجهه، فما كان من شمس الدين إلا أن مدّ يده في الماء واستخرج الكتاب، ثم سلّمه إلى الرومي، وثم كانت دهشة الجميع حين شاهدوا الغبار عالقاً بغلاف الكتاب وكأنه لم يتبلل بالماء أبداً، قال شمس مُعلقاً:

- اعلموا أنّ مذهب العشق لا يمكن تسلّمه في المدارس! ثم عاد يرمي بقية المؤلفات في الماء، وكان منها ديوان أبي الطيب المتنبي الذي يغتاظ منه (شمس) بشدة! في حين كان الرومي أشدّ الناس شغفاً بشعر أبي الطيب، ويحفظ عن ظهر قلب كثيراً من قصائده، ولم يكن إقناعه بالكفّ عن الافتنان بشعره أمراً سهلاً، فعلى الرغم من مهاجمة شمس الدين لشخصية المتنبي، وانتقاده

Twitter: @ketab_n

لأشعاره، فإن الرومي واصل قراءة الديوان سراً دون علم صديقه! لكنه في النهاية رضخ لإرادته، فكان ماء الحوض المُستقر النهائي للديوان! لماذا هذا الهجوم على الشعر عربيِّه وأعجميه يا ترى؟

الواقع أن شمس الدين كان يرى أن الشعر مرتبط بالفكر، حتى ما كان عاطفياً منه، لأن الشعر يقوم على اللفظة والعبارة، وكلاهما ذو صلة تامة بالعقل، وطرائقه، في حين كان يقصد شمس الدين الوصول بالصوفي، من مريديه، إلى حالة أو وضعية مزاجية خاصة يُطلق عليها أوصاف محدّدة عندهم، ومنها السُّكر، الوجد، المحو، الفناء، وهلم جراً. وهذه الحالة تبدأ في العادة، بنبذ العقل عن وعي وقصد، وتنتهي بالوقوع في وضعية اللاوعي أو اللاعقل، ولتحقيق هذا الهدف، كان لا بدّ من واسطة أو آلة، هذه الواسطة هي أنغام الموسيقى الصادرة عن الدفوف وآلات أخرى مثل الناي والرباب وغيرها، وقد أطلق على عملية الغناء والموسيقى المصاحبة (للذِكر) اسم أو مصطلح (السماع)، الذي ستأخذه أغلب الطرق الصوفية من ذلك اليوم فصاعداً مصحوباً بالرقص والدوران.

بدأ (السماع) فيما نعلم بسيطاً مع الصوفي القادم من النوبة (ذو النون المصري)[1] الذي قيل إنه أوّل من أدخل الموسيقى في مذهبه، إذ لم تستخدم الموسيقى لأغراض الدين، في بلاد الإسلام قبل ذلك. وفي أيام الشيخ عبد القادر الجيلاني صاحب الطريقة

(1) ذو النون المصري: المتوفى سنة 295هـ: صوفي معروف، ذاع صيته أيام الخليفة العباسي المتوكّل الذي استقدمه إلى بغداد من مصر ليُحاسبه على (البدع) التي شاعت عنه، فلما أصغى إلى كلامه ومواعظه تأثر تأثراً شديداً، وأعلن العفو عنه، وأذن له بالعودة إلى مصر.

Twitter: @ketab_n

المعروفة[1] صار السماع يُصاحب (الذكر)، وكان مريدوه يدورون في حلقات، مُصدرين في ذلك بعض النغمات الموسيقية المصحوبة بضربات الدف، ومن المعروف أنّ الموسيقى كانت من أهم أركان أديان الشعوب القديمة كالإغريق والفراعنة والبابليين ولدى البوذية، والمانوية... إلخ. فقد أدرك أنبياء تلك الشعوب أو رجال الدين والكهنة من طريق التجربة والتطبيق ما للموسيقى من تأثير نفسي شديد في الإنسان، إذ إن الأنغام الموسيقية قادرة على استثارة مختلف الأحاسيس وشتى الانفعالات في النفس ممّا استدعى الاستفادة منها لتحقيق تلك الغايات.

من الأقوال الشائعة لشمس الدين حول السماع ما يأتي: (السماع شيء جوهري في مذهبنا، لأنه قادر على قطع الإنسان عن مشاغل الحياة اليومية، ومن طريق هذا الانقطاع يستطيع بلوغ حالة السكر والجذب «الانجذاب» فينال من السرور واللذة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت. في عالم الروح والسماع يُمكّن العارف من مشاهدة خيال الحبيب الإلهي، وحلاوة هذا اللقاء تحرّره من قيود المكان والزمان: كذلك يحدثنا سلطان ولد، الشخص الوحيد الذي كان مسموحاً له باختراق خلوة الرومي مع شمس، فيقول: إنّ الرجلين كانا يفقدان وعيهما أثناء السماع فلا ينطقان إلّا باسم المعشوق الإلهي بين الفينة والأخرى.

---

(1) عبد القادر الجيلي، المتوفى سنة 562هـ: ولد في كركوك، ونسبت عائلته إلى بلدة (جيلان) في إيران، أخذ الفقه الحنبلي في بغداد، وأسس بها الطريقة القادرية، عرف بدعوته إلى الخير والمحبة والمساواة بين البشر.

Twitter: @ketab_n

وكان الرومي يُحسن العزف على الرباب وربما الناي أيضاً، ويؤكد سلطان ولد أن أباه أول من صنع الرباب في الأناضول.

ومن أقوال شمس الدين أيضاً: (إن التجلّي الإلهي لا يقع بدون السماع، لأنّ السماع يفصل الإنسان عن عالم المادة). تدلّنا هذه العبارة على أنّ العلم في العصور الوسيطة لم يكن مدركاً لمعنى (المادة)، أي إن الإنسان نفسه جسم مادي غير قابل للانفصام عن المادة بأي شكل من الأشكال أو بأي معنى من المعاني، حتى ولو بالموت، ذلك لأنّ المادة لا تُفنى بحسب العلم الحديث، وإنما هي قابلة للتحوّل والتغير، كما أن القدامى كانوا على جهلٍ تامّ بمعنى أو بوجود (الطاقة)، وهذا هو سرّ تخبّط الصوفيّة، الأساسي.

وهكذا، صار السماع، عند اتّباع (مولانا) جلال الدين الرومي (الذي سيُطلق عليهم اسم المولوية)، يعني: الضرب على الدفّ والرباب، والعزف على الناي، وغيره من الآلات إن وجدت، ويُصاحب ذلك دوران المريدين حول أنفسهم، وتُحرّك الذراعان بتوقيع خاص، وتضرب القدم على الأرض على شكل معين، علاوةً على السجود بوضعية محددة. وهم يُفسّرون الدوران بأنه رمز لرؤيتهم الله في كل مكان واتجاه، يعنون بذلك أنه ليس كائناً في أعالي السماء وحدها، مستندين إلى الآية الكريمة: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، ويؤولون ضرب القدم على الأرض بسحق النفس الأمّارة بالسوء تحت القدم وقهرها، ويُعلّلون فتح الذراع بأنه إشارة إلى طلب الكمال، وهلم جراً.

فيما عدا السماع، كان الرومي وشمس الدين يلتزمان بالصوم كعنصر أساسي في طريقتهما، فكانا، مثل جميع المتصوفة، يُداومان

Twitter: @ketab_n

على الصيام لأيام قد تمتدّ إلى أسابيع دون انقطاع، خارج شهر رمضان، ومن المعلوم أن الصوم موجود في جميع فرائض الأديان الشرقية القديمة، لأنه يُربّي الإرادة، ويُعلّم الإنسان التحكّم بنفسه وبأعضاء جسمه، وهذا التحكم مسألة جوهرية لدى أصحاب الطرق الصوفية.

أشرنا فيما سبق إلى أنّ شعور شمس الدين بالاغتراب كان أحد أسباب بحثه الطويل الأمد عن صديق يمكن أن يُنسيه المُعاناة التي يحسّها بين الناس، وكذلك وصفنا سروره بلقاء الرومي، ونضيف الآن بأنّ شعور شمس بالاغتراب والوحشة، كان متسبباً عن عوامل أخرى عدا ما ذكرنا، ذلك أن شمس الدين كان يشعر بأنّ لديه رسالة إنسانية يتعيّن عليه تبليغها للناس، فلقد كان يعرف ويحسّ بأشياء وأمور كثيرة خافية على أغلب بني البشر المعاصرين له، وكانت آلامهم والمصائب التي تلتهم أعمارهم بهول لا تصدقه العقول السليمة، تستحثّه دوماً للإفصاح عمّا يعرف، وإفادة الناس بما جرّب واكتشف خلال تجواله في الأرض، واتصاله بمختلف صنوف البشر، لكنه مع ذلك العرفان باليقين، كان يشعر بالعجز والإحباط، لأنه غير قادر على تبليغ الناس بأفكاره، بسبب غرابة أطواره، وسوء مزاجه، وحدّة طباعه التي ذكرنا. وهكذا، فإنّ لقاءه بالرومي خفّف من تلك المشاعر الإحباطية عنده، وحقّق له هذا اللقاء أهم غاياته في الحياة، إذ سيكون الرومي نائبه الذي يُبشّر الناس برسالته، ولسانه الذي ينطق عنه بكلّ ما يريد. إن كثيراً من الدارسين شبّهوا العلاقة التي وقعت بين الرومي وشمس الدين، بالعلاقة التي قامت بين أفلاطون وسقراط، فكما أن سقراط لم يكتب شيئاً من أفكاره الفلسفية، وإنما

Twitter: @ketab_n

كان أفلاطون تلميذه، هو الذي نقل فلسفته إلى العالم، فكذلك كان الأمر مع شمس الدين الذي ما كان للناس أن يعرفوه ويطّلعوا على أفكاره لولا تلميذه (أو صديقه) جلال الدين الرومي الذي بشّر بفلسفته، ونقلها إلى الأجيال المعاصرة له، والتي أعقبتها. وهكذا، تحقّقت لشمس الدين التبريزي جميع أمنياته مقابل الثمن الغالي الذي دفعه له، فقد أضاع مهجته وفقد رأسه تماماً كما وقع له في الحلم. وسنرى كيف سارت الأمور نحو تلك العاقبة.

في أحد الأيام، اجتمع العلماء والمتصوفة في إحدى تكايا قونيا للسمر والمناظرة، فمضى كلّ واحد ينقل شيئاً عن الرسول وعن الصحابة، أو يروي كلام كبار الصوفية، وأثناء ذلك بقي شمس الدين صامتاً مكتفياً بالإصغاء، ولما طال عليه ذلك، نفد صبره، فهبّ واقفاً وصرخ غاضباً:

- إلامَ تمضون أوقاتكم في النقل عن فلان وعلان؟ أليس لديكم جديد تقولونه؟ ومتى سيقول أحدكم: قلبي نقل عن إلهي كذا وكذا، بدلاً من أن تستعيدوا كلاماً مكرراً مسموعاً ومعروفاً.

كان هذا الاعتراض والطريقة الجريئة في الكلام كافيين لأن يوغرا قلوب أهل قونيا ضد شمس الدين، ولن يتّخذوا منهما ذريعةً للتحريض ضده، وتحيّن الفرصة المناسبة للتخلص منه نهائياً، ولم لا، وقد سلبهم معلّمهم المحبوب، ومرشدهم الروحي جلال الدين الرومي، وبذلك حُرموا من وعظه ودروسه مع احتياجهم الشديد إليهما في تلك الأيام العصيبة على العالم الإسلامي كله؟ والواقع أن تعلُّق شيخهم الرومي بشمس الدين أثار حسدهم الشديد له، وأحسّوا بدبيب عقارب الغيرة في صدورهم نحوه، وصاروا يتحيّنون الفرص

Twitter: @ketab_n

للإيقاع به، وكانت هذه فرصتهم العظيمة، فمضوا يتهجّمون عليه ويغتابونه ويتقوّلون الأقاويل عنه.

وأحسّ شمس الدين بحقد القونيين عليه، واستعدادهم لإيذائه، وكان قد مضى على وجوده في قونيا ستة عشر شهراً، وفي اليوم الحادي والعشرين من شوال سنة 643هـ اختفى (شمس) عن الأعين، ولم يُعثر له على أثر في جميع أرجاء قونيا، لم يره أحد ولم يعلم بفراره أي إنسان، حتى الرومي نفسه، لقد انسلّ خِفيةً، ورحل عن البلاد.

الديوان الكبير أو ديوان شمس الحقائق:

كانت غيبة شمس الدين على هذا الشكل المُباغت صدمةً نفسيةً مؤلمةً لخدينه جلال الدين الرومي، فقد وجد هذا نفسه في وِحدةٍ قاتلة، لم يشعر بمثلها طيلة عمره. فقبل قدوم شمس الدين إلى قونيا، كان الرومي قد اعتاد الفرار من نفسه إلى الخارج، شاغلاً أوقاته برعاية مصالح أصحابه وتلاميذه ومُريديه، مهملاً بذلك ميوله الشخصية، وأحاسيسه الخاصة، أما بعد اتحاد نفسه بشمس الدين، وما لمسه من الانسجام والتفاهم بين القلبين والفكرين، فقد صار من العسير عليه أن يفقد هذه الذات الحلوة التي منحته كل تلك السعادة، خصوصاً والفراق قد وقع بشكلٍ مفاجئ، وعلى غير انتظار، وبدون مُقدّمات، وليس من عجبٍ بعد هذا أن نسمع من سلطان ولد، أنّ والده قد قارب حالة الجنون حين لم يعُد شمس، ولم يبدُ له أثر، هكذا فجأة، وبشكلٍ غير مفهومٍ أبداً.

وإذ مضت الأيام حزينةً كئيبةً مُملّة، والهارب المحبوب بلا أثر

Twitter: @ketab_n

ولا صوت، انكبّ جلال الدين على أوراقه يكتب ويكتب، كانت قصائد الديوان الكبير **ديوان شمس الحقائق** كما سمّاه، تتراكم يوماً بعد يوم، وهي **الغزليات** الشهيرة التي ستكون لسان حال جميع عُشّاق العالم من ذلك اليوم، ولم يكن (شمس الدين) مجرد صديق عادي، وإنما كان في رأي الرومي إنساناً حائزاً لصفاتٍ خارقةٍ عبقرية، لا تُقدّرها حق قدرها إلا عبقرية من جنسها ومن مستواها. كان لقاء الاثنين إذن صدفةً سعيدة من صدف الأقدار.

لا شك أن الرومي وشمس الدين كانا قد اطّلعا مثل غيرهما من مثقفي العالم القديم على كتاب (**المأدبة** *Symposium*) لأفلاطون، وتأثراً بأفكاره الغريبة الطريفة عن العشق. ففي المأدبة يتبادل المدعوون الحديث حول الحب، ومن كلامهم نفهم أنّ (زيوس) رب الأرباب شاء معاقبة البشر على شرورهم ومطالبهم، وفكّر بطريقة يمكن أن تطيل عذابهم، فشطر كلّ إنسان إلى شطرين متماثلين، وفرّق بين النصفين بأن جعلهما إنسانين منفصلين عن بعضهما، كان غرضه من ذلك أن يبقى كل إنسان معذباً طيلة حياته لشعوره بنقصه، وبأن نصفه الآخر بعيد، فهو أبداً في بحثٍ دائم، فإن عثر على نصفه الثاني سعى إلى الاتحاد به ليحصل على الكمال ويعود إلى طبيعته الأولى، وإنْ فشل في ذلك بقي في لهفة وضياع واضطراب إلى الأبد، عقاباً له على تمرّده وعصيانه، ثم يقسّم أفلاطون الناس إلى ثلاثة أصناف، صنف الذكور الذي لا يكتمل إلا بالذكور، وصنف الإناث الذي لا يكتمل إلّا بإناث من جنسهن، وصنف لا يكتمل إلا بالجنس الآخر، (هكذا يفسّر الشذوذ الجنسي) وهو يعدّ الصنف الأول أسمى الأصناف وأرقاها، والحب عند أفلاطون يبدأ بعشق

Twitter: @ketab_n

الشاب لمحبوب جميل الصورة، وبعد مضي فترة، يكتشف الشاب أن الجمال شائع بين آلافٍ من البشر، وأن لا فائدة تُرجى من عشق جميع حِسان الوجوه، ومن المستحيل أيضاً تحقيق ذلك، وبذلك يفهم أن الإنسان إنما يعشق مفهوم الجمال نفسه، والجمال هو جمال الروح، والروح هي الواسطة بين الله والإنسان عنده. وهكذا، فالإنسان إنما يبحث في الواقع عن الجمال المُطلق الذي هو الله، ويسعى أبداً للاتحاد به ليُحقق كمال ذاته، وهكذا نستطيع أن نضع أيدينا على منابع فكرة العشق الإلهي ومبادئ فلسفة الأفلاطونية المُحدثة التي سيتبناها الفكر الصوفي ضمن مبدأ وحدة الوجود.

والأرواح التي هي الواسطة بين الله والإنسان، لدى أفلاطون، إنما تطوّرت عن اعتقاد القدماء بألوهية النجوم والكواكب والشمس والقمر، فهي جميعاً أرواحٌ مُجنّدة لخدمة الإله الأعظم، وسوف نرى أنّ هذه الأرواح ستُسمى لدى الإسماعيلية بالأبدال، وسيؤمن الصوفية بهؤلاء الأبدال مثل الإسماعيلية، فلا عجب أن يكون الحب الروحي وليس الجسدي هو مطلب (العارفين والأولياء) وقد استفاد ابن سينا من هذه الأفكار وأدخلها ضمن فلسفته، كما تنعكس هذه الآراء في الفلسفة الإشراقية التي تبنّاها شهاب الدين السهروردي المقتول، وغيره من كبار الصوفية الذين تبنّوا فلسفة المتصوّفة الخراسانيين.

كان لقاء الرومي بشمس إذن تحقيقاً لأمنية سعى إليها كلّ منهما عهداً طويلاً، فلمّا فارقه (شمس) تفجّر عذاب الرومي في غزلياته المُلتهبة التي ظلّت تتزايد حتى تجاوز عددها الآلاف.

يلاحظ قارئ في **غزليات** الرومي أن الشاعر التزم أسلوب

Twitter: @ketab_n

النسيب والتشبيب كأيّ عاشق يُناجي معشوقه ويتلهّف للقائه، فهو يستخدم لغة الحب وليس لغة الصداقة، ويمكن تفسير ذلك بالعودة إلى الشعر الإيراني وتقاليده الأدبية، فذلك الشعر يتميز أساساً بالغزل بالمذكر، وهذا الغزل بالمذكر متأصل في الشعر الفارسي من عصور ما قبل الإسلام، ونجده يتكرر في الأدب المانوي، حيث نسمع نغمات تذكّرنا بنشيد الأنشاد في الكتاب المقدس لدى المسيحيين.

إن تأصُّل الغزل بالمذكر في الشعر الفارسي منذ عصور ما قبل الإسلام له صلة أكيدة بنظام الحريم الذي ساد المجتمع الساساني والمجتمعات الإيرانية، قبل الإسلام، وخلو المجتمع من فعالية المرأة لا بد أن يؤدي إلى الانحرافات والشذوذ. وقد انتقل هذا المرض الأدبي (الغزل بالمذكر في عالم الشعر) إلى الشعر العربي الذي راح يعكس مجتمعات الطبقات الحاكمة في العصر العباسي، فشاع التغزُّل بالغلمان حتى عند أعظم الشعراء العباسيين، كأبي تمام على سبيل المثال، إذ كان الخلفاء أنفسهم يُشجّعون تلك الاتجاهات بكل وسيلة ممكنة، ومصادر تراثنا العباسي الأدبية تفيض بالنصوص والأخبار والحكايات التي تعكس مجتمع الجواري والغلمان الذي انغمس فيه جميع العباسيين وقوادهم وبطانتهم، ثم انتقل إلى كلّ رعايا الدولة من المسلمين، في حين يخلو الشعر الجاهلي خلواً تاماً من مثل هذه الآفات التي لم يعرفها العرب إلّا بعد استقرار الدين الإسلامي في البلاد المفتوحة. وهكذا، فإن الرومي في (غزلياته) لم يشذّ عما كان سائداً في عصره من تقاليد أدبية، كما أنه في الوقت ذاته، لم يخرج عن أساليب الشعر الفارسي التي تجلّت وقتئذٍ في أدب أحب شعراء الفارسية إلى قلبه وهو فريد الدين العطار.

Twitter: @ketab_n

النقطة الثانية التي ينبغي ملاحظتها، أن الرومي في (غزلياته) يعدّ شمس الدين رمزاً ووسيلةً للتعبير عن الذات الإلهية المعشوقة، بحسب ما أشرنا إليه سابقاً، وأقواله في هذا الباب لا تختلف عن أقوال بقية الصوفة، لا سيما معاصره المتصوّف العربي ابن الفارض، الشاعر المصري المتوفى في ثلاثينيات القرن السابع الهجري. وبلغة النقد الحديث، فإنّ الخاص لدى الرومي يمتزج تماماً بالعام، ذلك أنّ شمس الدين يرى أنّ الذات البشرية المعشوقة «الخاص» ما هي إلّا فيض النور الإلهي الكوني «العام»، وكلّ هذا لا يخرج عن الخط الصوفي الذي شرحناه.

فيما يلي بعض غزليات الرومي بعد رحيل صديقه الحبيب:

إن شهدت حشداً بين الناس
فاهتف بأعلى صوتك أيها المنادي:
يا أخوتي المسلمين هل فيكم
من شهد الملاك الهارب؟
أنا أبحث عن أدنى أثر لشمس الدين
وروحي هي المكافأة لمن دلّني عليه!

* * *

نحن من وهب روحه وعقله للشام
مرةً أخرى نطير بأجنحة الشوق إلى الشام
فإن قدِّر لعيني أن ترى شمس الشام
فسنكون نحن يومئذٍ أسياد الشام
وحين تراه أيها الصديق أو تراني

Twitter: @ketab_n

فـمـا هـو إلا أنـا، ومـا أنـا إلا هـو
قـد جـمـعـتـنـا الـشـام

* * *

يا مالك وجه القمر.. أين أنت ألا تقول؟
فأنا ما قدمت إلى هذه البلاد إلا بحثاً عنك
أيها السيد ما تتمناه وتطلبه هو كل ما أتمنى
وعبدك هذا حين ينتشي وجداً وانجذاباً
فلا يدهشك اضطراب قوله وسخف كلامه
إلهي فاحفظ لساني من الهذيان والهذر!

بعد أشهرٍ طوال، وصلت من شمس الدين رسالة يُعلن فيها أنه مُقيمٌ في الشام، فوراً أمسك الرومي بقلمه وكتب غزليات أربع على هيئة رسائل وجهها إلى صديقه شمس الدين، وهذه واحدة منها:

مـنـذ رحـيـلـكـم فـقـدنـا حـلاوة الـعـيـش
نحن، قسماً بالله، الشمعة التي تحترق لتذوب
عـلـى مـدى سـاعـات الـلـيـل ثـم تـضـمـحـل...
وقـسـماً بـالـلـه مـنـذ فـارقـتـم لـم نـتـذوق الـعـسـل
السماع حرّم علينا والشعر لم يجُلْ بخاطرنا
غير أن رسالة البشرى ألهمتني الغزل من جديد
يا شمس الدين يا مفخرة بلاد الشام والأرمن والروم
فلتُهلّ علينا أنوارك كيما تكشف عنّا دياجي الظلمة.

* * *

Twitter: @ketab_n

سلّم الرومي تلك المقتطفات (اثنتان منهما من جنس الملمع، أي التي تتناوب فيهما ألفاظ لغتين) إلى ابنه سلطان ولد، وأمره فوراً بالسفر إلى الشام، لغرض مصالحة شمس التبريزي، وإقناعه بالعودة إلى قونيا. وتوجّه سلطان ولد، يُرافقه بعض أصحابه إلى دمشق وحلب، والتقى هناك بشمس الدين، ونجح في إقناعه بالعودة إلى قونيا، وكان ذلك سنة 645هـ، وفي كتابه **ابتداء نامة** يُحدّثنا سلطان ولد بأنه عندما اصطحب شمس الدين في طريق عودتهم إلى قونيا، ظلّ يُساير الركب، ماشياً على قدميه إجلالاً لمقام شيخه التبريزي، رغم كل المحاولات التي بذلها هذا من أجل إقناعه بامتطاء ظهر الدابة، وممّا أجاب به شيخه قوله: (كيف أكون نداً لك يا سيدي، وهل يتساوى العبد بالسيد؟ أنت المحبوب، وأنا المُحب، أنت الروح، وأنا البدن، ولن أتجاسر على تخطّي مقامي المتواضع على مقامك السامي).

استغرقت هذه الرحلة ذهاباً وإياباً مدة شهر كامل بحسب مواصلات تلك العصور، وفي فترة الانتظار الصعبة، مضى الرومي يُسلّي نفسه عن قلقلها الشديد، بغزلياته التي ظلت تتزايد، فمن ذلك:

أعيدوا إليّ قمري الساطع يا أخوتي
أقنعوه بأنغام الناي وببريق الذهب!
إياكم أن تصدقوه لو وعد بالمجيء فيما بعد
فذلك من علامات مكره ودلائل دهائه
انثروا يا رفاقي الماء في دربه
وانقلوا البشرى إلى البستان والحديقة
همومي لم تعُد تمزّق صدري

Twitter: @ketab_n

وهنا هو الملك العظيم قد عاد من رحلة الصيد
كيف إذن أجلس صامتاً بلا حراك

* * *

فكّر الرومي طويلاً في كلّ ما وقع قبل هرب شمس الدين التبريزي من قونيا، وتوصّل إلى أن الحل الوحيد لجميع المشاكل يكمن في العثور على وسيلة تقنع شمس الدين باتخاذ قونيا مستقراً ثابتاً له، وخيّل إليه أن شمس التبريزي لو تزوّج بفتاة قونوية تهيّئ له أسباب السعادة، فسوف ينصرف عن حياة الترحل والحركة، ويستقر معه في بلده إلى الأبد. كان في بيت الرومي، في ذلك الوقت، فتاة يتيمة في عنفوان الصبا تُدعى (كيميا) نشأت في داره وحصلت على تربية صالحة مثل بناته، فلمّا استشارها في الزواج من شمس الدين أعلنت موافقتها دون امتناع، ربما بسبب فقرها ويُتمها، مع وجود ذلك الفارق الكبير في السن، ومن الأهداف التي قصد الرومي تحقيقها بهذه الزيجة، إسكات القيل والقال الذي نشأ حول نوعية علاقته بشمس الدين. وبعد وصول شمس الدين إذن بفترة قصيرة، تمّ الزواج في حفل صغير، وسكن العريسان في غرفةٍ واسعةٍ قُسّمت إلى شطرين بواسطة ستارة عريضة، وكانت الغرفة مجاورة للجناح الذي يُقيم فيه الرومي وعائلته بالمدرسة.

هذه الغرفة كانت لسوء الحظ تُطل على ساحة المدرسة، ويُحدّثنا أحمد أفلاكي أن شمس الدين منع الغرباء من اجتياز هذه الساحة، وهو أمرٌ متوقع في مثل هذه الظروف. في تلك الأثناء، كان (علاء الدين جلبي) الابن الثاني للرومي وشقيق سلطان ولد، فتىً غراً

Twitter: @ketab_n

في ريعان الشباب، وكان من عاداته اصطحاب أصدقائه إلى غرفة الجلوس في داره «دار والده»، وبدلاً من أن يتوجّه مباشرةً إلى المكان، كان يتعمّد التريث والتسكّع مع أصحابه في تلك الساحة بعينها أمام حجرة شمس الدين وزوجه.

كما هو المُنتظر، لم يتحمّل شمس الدين هذه الوضعية، ففي إحدى المرات خرج من الغرفة واتجه إلى علاء الدين وأصحابه ورجاه بكلّ أدب ومحبة أن يُراعي حُرمة الصداقة والجيرة، غير أن علاء الدين انبرى للشيخ بخشونة شديدة وهو يقول:

- يا سيدنا هل تغِيرُ ممّن تقيم أنت في داره ومسكنه؟ سرعان ما انتقل خبر هذه الخصومة الجديدة إلى أسماع الفضوليين المُتصيّدين في الماء العكر، وانتهزها أعداء شمس الدين فرصةً لمعاودة الشغب، على عادتهم، وقال واحد منهم:

- أرأيتم مثل هذه الوقاحة بالله؟ ضيف تُكرمه وتضيفه في دارك، فإذا به يتحكم في حركات أولادك وسكناتهم. هل هذا معقول؟

لكن المسألة كانت فيما يبدو أعمق من ظواهرها الخارجية، كان شمس الدين يظهر غيرةً شديدة على زوجه الشابة، وكان قد أوصاها بألا تُغادر الدار إلا بإذنه، في أحد الأيام ألحّتْ عليها جاراتها بمصاحبتهن إلى أحد البساتين، طلباً للنزهة والفسحة، فخرجت معهن دون أن يتهيأ لها إخبار زوجها بسبب غيبته عن الدار في تلك الساعة، وعند عودتها، وجدت شمس الدين في حالة هياجٍ شديد، بعد أن طال انتظاره لها دون أن يعلم بمكانها.

Twitter: @ketab_n

يروي أحمد أفلاكي أن شمس الدين أمسك بكيميا من رقبتها بقوة وقسوة، ولمّا لحظ رعبها الشديد، تركها وهو يحذّرها صائحاً بعدم معاودة تلك الهفوة، لكن الفتاة الصغيرة سقطت من ساعتها طريحة الفراش، ولم تتركه بعد ذلك أبداً، فبعد أسبوع واحد فارقت الحياة، ولا بد أنها أصيبت بصدمة عصبية شديدة أدّت إلى وفاتها المفاجئة.

من خلال تلميحات أحمد أفلاكي في (مناقبه) يستنتج القارئ بسهولة أن ثمة علاقة حب بريئة كانت قائمة بين علاء الدين وكيميا، والأغلب أنها بدأت قبل زواجها، وربما دون علم الرومي. أحمد أفلاكي يسعى لإقناع قارئ كتابه بأنّ علاء الدين كان شاباً قليل الشعور بالواجب، منصرفاً إلى عبث الشباب، ولم يكن أهلاً لتقدير وإعجاب والده به، فقد رفض السير في مسلك والده، وطريقته الصوفية، وكان دائماً على خلاف مع شقيقه (سلطان ولد) الذي والى أباه واقتفى خطاه في كل مسالكه.

على أية حال، فقد صارت كيميا اليتمية، ضحية عنف شمس الدين، لكن أياً من كُتّاب المناقب لم يُكلّف نفسه الاهتمام بتعقُّب أسرار هذه الحادثة المؤلمة، وإنما كان جُلُّ اهتمامهم موجهاً إلى تأكيد تمرّد علاء الدين جلبي وعصيانه لوالده (الرومي)، وهناك شبه إجماع بينهم على أن (علاء جلبي) ساهم في مؤامرة اغتيال شمس الدين، ومن تلميحاتهم المتباينة يمكن أن نستخلص وجود علاقة حبّ طاهرة ما بين علاء الدين وكيميا، والذي يؤكد هذا الظن وفاة علاء جلبي نفسه بعد موت كيميا بزمن قصير لم يحدِّده المؤرخون، ربما عن قصدٍ أيضاً، وذلك زيادةً في التعمية، وإسدالاً للستارة على

Twitter: @ketab_n

المأساة المُفجعة، ذلك أنهم لم يرتضوا تثبيت وجود صلة بين ابن (ابن الرومي شيخهم العظيم) وزوج خدينة الحبيب (شمس الدين)، ففي ذلك ما يخدش معايير الشرف في المجتمعات المغلقة التي يهون عليها الفعل القبيح ما دام مستوراً، ويعسر عليها أهون الأمور ما دام علنياً! والذي يُستنتج أيضاً من بقايا هذه المأساة أنّ علاء جلبي لم يتزوج ولم يخلف، وهو ما يؤكده العلامة عبد الباقي غول بنارلي، في حين يكتفي أحمد أفلاكي بإعلان شماتته بانقطاع نسل علاء الدين، لأنّ والده (الرومي) دعا عليه ولعنه! بل إنه يُضيف إلى ذلك أن الرومي رفض أن يُصلّي على جثمان ولده، وامتنع عن السير في جنازته!!

يتّضح لنا من هذه الحادثة، ومن حادثة اختناق المؤذن رعباً حين سمع دعاء شمس الدين عليه، عند وجوده في مسجد بلدة (أق شهر) وكذلك من قسوة شمس الدين على تلاميذه من أولاد الأناضول الذين كان يجبرهم على الحفظ باستعمال الفلقة، يتّضح أن شمس الدين كان رجلاً دموي المزاج، سريع الغضب، قد يصل به الهياج مبلغاً يفقد معه صوابه تماماً، وتلك أمور متوقعة ممّن يفرض على نفسه الرياضة الصوفية الصعبة، وفي مقدّمتها الصوم الطويل غير المنقطع الذي يؤدي بحسب الطب الحديث إلى تخريبات ظاهرة في المخّ والكبد والجلد والقلب والغدد وبقية أعضاء الجسم. ولذلك، عَيّنت جميع الأديان أوقات الصوم وحدّدتها، في حين يُخبرنا شمس الدين في (مقالاته) أنه اعتاد على الصوم منذ عهد طفولته، حتى أن والده خاف على صحته البدنية والعقلية، وحاول منعه، لكن الولد رفض الانصياع إلى أوامره ونصائحه، ثم قطع كلّ صلاته بأسرته،

Twitter: @ketab_n

وهذه أيضاً مسألة تُثير الانتباه، وكُتّاب المناقب لم يُحاولوا الالتفات إليها، ومن المعروف أن كثيراً من الصوفية والدراويش، كانوا يتعرّضون لحالاتٍ من الجنون المؤقت أحياناً، والكامل أحياناً أخرى. لذلك، يؤكد المتصوّفة على ضرورة طاعة المُريد لشيخه إلى أقصى الحدود، لأسبابٍ كثيرة، منها تجنيب الصوفي الانتهاء إلى ذلك المصير.

استقرّ أعداء شمس التبريزي على أن يُبعدوه عن قونيا بأي ثمنٍ كان، ووجدوا في فاجعة المسكينة (كيميا) أحسن ذريعة، بل أفضل مناسبة للقيل والقال، وشرعت النسوة بتحليل الأحداث:

- الفتاة اليتمية ماتت خوفاً وهمّاً، فمن الذي يتحمل هذا الرجل الفظيع؟

هذه الأقوال وأمثالها بلغت سمع شمس الدين، وصارت تُقلقه، وأحسّ بتزايد الخطر على حياته. ففي أحد الأيام، قال لسلطان ولد:

- ألا ترى يا ولد المدى الذي بلغته عداوتهم لي؟ هذه المرة سأغيب غيبةً لا ظهور بعدها.

يقول أحمد أفلاكي إن شمس الدين اختفى فجأة مثل المرة السابقة، وذلك بعد ستة أشهر من عودته إلى قونيا، أي خلال سنة 646هـ، لكن عبد الباقي غول بنارلي يؤكد بأن شمس الدين لم يختفِ، وإنما تمّ اغتياله أثناء وجوده في قونيا على الصورة الآتية:

بعد وفاة (كيميا) بأسبوع واحد، كان الرومي يُجالس شمس الدين مساءً في إحدى غرف المدرسة، فجأة طرق أحدهم الباب طالباً مقابلة (شمس)، فخرج هذا وحده في الحال، سُمِعت صرخةٌ

Twitter: @ketab_n

حادةٌ أشبه بالاستغاثة، ثم هدأ كل شيء. وقيل إنهم لم يجدوا خارج الغرفة غير قطرة دمٍ واحدة، لكن شمس الدين كان قد ذهب.. قيل إن عدة رجال شاركوا في قتله حالما ترك الغرفة، ثم حملوه معهم بعيداً في ظلمات الليل، ورموا جثته في أحد الآبار المهجورة، ثم إن سلطان ولد علم بموقع الجثة وبتفاصيل الحادثة، فكتمها عن والده، وأخذ مجموعةً من أصحابه فاستخرجها، ودفن شيخه المحبوب في مكانٍ سري خشيةً على مشاعر والده، ولم تُعلن تفاصيل هذه الحادثة وموقع الضريح إلّا بعد وفاة جلال الدين الرومي فيما بعد.

هكذا، تُرِك الرومي في أحلامه، فمضى يتخيّل اللقاء بمحبوبه مرةً أخرى، كما حدث في الغيبة السابقة. ومع ذلك، فإن الشكوك بدأت تُساور عقل الرومي، فقد وصلته نتفٌ متفرقة من أقوال الناس، إذ شاع بينهم أن شمس الدين قد قُتِل غدراً. ويُحدّثنا سلطان ولد عن هذا قائلاً:

(لا أُنكِر أن الشيخ كاد يفقد عقله بعد فراقه لشمس الدين، لقد ظلّ يبكي وينوح أياماً وأسابيع بلا انقطاع حتى رحمه الصغار والكبار، النساء والرجال، وراح يوزّع المال بلا حساب على الموسيقيين ليُواصلوا الضرب على آلاتهم كي يستمر السماع بلا انقطاع ليل نهار، ومع السماع ظلّ يدور ويدور حول نفسه، دون أن يأخذ أي قسطٍ من الراحة. وتأثّر الناس كلهم بأحزانه، فهرعوا لمواساته، وظلّوا يدورون حوله ويُشاركونه السماع، وأهمل المؤذنون بالقراء واجباتهم في المساجد ليتهيأ لهم مشاركته السماع والرقص، وارتفعت بعض الأصوات تحتج بأنّ ما يفعلونه خروجٌ عن الشرع، لكن أحداً لم يُصغِ إليها، ولم يأبه بها، كانت تلك بداية ظهور

Twitter: @ketab_n

الطريقة المولوية. هذه اللفظة منسوبة إلى لفظة (مولانا) التي صاروا يُلقّبون بها جلال الدين الرومي، والتصقت به، حتى أهمل اسمه تماماً، وصار له اسمٌ واحد فقط هو (مولانا):

ويبدو أن الرومي لم يشأ تصديق حادثة القتل، لأنه لم يتحمّلها، فلنصغِ إلى احتجاجاته:

- مَنْ قال إنّ هذا الملك السامي قد مات؟ مَن قال إن شمس الأمل قد انطفأت. كلا، كلا لا بدّ أنّ عدواً للشمس أعماه ضياؤها فظنّ أن الشمس قد غابت.

لم يستطع الرومي أن يسكن أو يهدأ أبداً، فحزم أمتعته فجأةً، ورحل إلى الشام، مُعلناً أنه سيبحث بنفسه عن صديقه. في الشام، استطاع أن يجتذب قلوب عشرات الناس ويُحوّلهم إلى مريدين له، ربما هدأ هذا من روعه وشغله عن همّه وعذابه، وبدأنا نسمع منه نغمةً جديدة لم تصدر عنه سابقاً:

هو وأنا منفصلان الآن والمكان لا يجمعنا
لكنّ كلاً منّا نور، والنوران امتزجا
النور لا جسد له ولا أنفاس
فلو رأيته رأيتني أيها الرقيب
فاعلم بأنني وإياه واحد

* * *

ما دُمتُ أنا هو، فعمَّ أبحث في الشام؟
لطفه ملكي ورقّته أيضاً
حسنه الذي أشبب به هو هو جمالي أنا

Twitter: @ketab_n

أنـــا إذن بـــاحـــثٌ عـــن ذاتـــي

* * *

عاد الرومي أخيراً إلى قونيا وقد استعاد ثقته بقدرته على تحمّل الكارثة، ومواصلة الطريق الذي قاده إليه شمس الدين، وفي الديوان الكبير للرومي تردُ أشعار يُستخلص منها أنه فكّر يومئذٍ بالسفر إلى تبريز في أذربيجان، بحثاً عن صديقه التبريزي، لكن الوضع الأمني لطرق السفر والتجارة، لم يكن حسناً في ذلك الحين، فلقد أشرنا في الفصل الأول إلى الخذلان الذي مُنِي به السلاجقة (غياث الدين كيخسرو) على أيدي المغول سنة 641هـ، ممّا أدّى إلى دخول هذا السلطان في طاعتهم وقبوله بتسليم بلاده لهم، وقد ظلّت الأوضاع السياسية والإدارية مضطربة في الأناضول حتى تعيين الحاجب معين الدين (برواناه) في منصب رئيس للوزراء أو الحاكم الإداري للبلاد، واستطاع هذا بعد وقتٍ قصير من تعيينه، ضبط الأمور بدهائه وحزمه واسترضائه للخاصة من طريق تشجيع أهل العلم والفكر والفن، واستهوائه العامة بواسطة رعايته لأهل التصوّف وإنفاق الأموال على تكاياهم ومدارسهم ودراويشهم وفقرائهم. وفي عهد (معين الدين برواناه) ازدهرت التجارة وأمّنت طرق السفر بين الأناضول وما حولها من البلدان. ومع ذلك، فإنّ هذا الحاكم لم يسلم من الرذائل التي ميّزت أغلب حُكام عصره، وفي مقدمتها اتّباع مبدأ (الغاية تُبرّر الواسطة)، الذي كان يؤدي بهم دوماً إلى النتائج المعهودة من سفكٍ للدماء واعتداءٍ على الأبرياء، واغتصابٍ للحقوق، ونهبٍ للأموال، وما يُصاحب ذلك كله من قسوةٍ وغدرٍ وخُبثٍ وظلمٍ ودناءة... إلخ. والنتيجة كانت بالنسبة إلى معين الدين برواناه أنه اضطرّ بسبب

Twitter: @ketab_n

طموحاته الخاصة إلى اللعب على حبال السياسة، فكان يُداري المغول من جهة، ويتآمر عليهم مع المماليك من جهةٍ أخرى، ولمّا أدرك المغول ذلك قتلوه شرّ قتلة، على حدّ تعبير المؤرخين العرب الذين أظهروا الشماتة بمصيره.

ما يهمّنا هنا أنّ نجاح (برواناه) في تأمين طرق السفر والتجارة لم يكن وقفاً عليه وحده، فقد كانت هذه القضية من أهمّ ما يشغل السلاجقة أنفسهم، والمماليك، والمغول، والصليبيين جميعاً. فقد كانت التجارة تُشكّل عصب الحياة يومئذٍ، ومن الواجب على جميع الدول الحاكمة العناية بتيسيرها والحرص على عدم ظهور أية عوائق في الحركة والسفر رغم كل الحروب والاضطرابات والفتن التي ميّزت ذلك العصر. لقد حرص السلاجقة دائماً على بناء الفنادق التي تُسمى (كروان سراي) في جميع أنحاء الأناضول، وهي منشآت جميلة واسعة ذات طرازٍ خاص، ولا يزال الأتراك حتى يومنا هذا يُحافظون عليها كمتاحف أو كفنادق، مع تجديدها دائماً، وكانت هذه الفنادق تُقدّم للمسافرين أحسن الخدمات بأرخص الأسعار. وبالإضافة إلى هذه الفنادق، كانت مؤسسات الفتوة (أو الأخوان) التي تحوّلت إلى لفظة (آهي لر): (آهي) أي أخي، وللجمع يستعمل الأتراك الحرفين (لر) (Ler) و(الآهي لر)، إذن تعني الأخوان، نقول كانت تشتمل على أعضاء النقابات التي يُسمّونها حتى اليوم (الأصناف) من أهل الحرف المختلفة، وكان هؤلاء الحرفيون يخضعون لمبادئ الفتوة التي تقوم على الأخوة والتعاضد والنظام والانضباط، ومساعدة الغريب، وتقديم الضيافة مجاناً لجميع المسافرين من أبناء السبيل، كان هؤلاء (الآهي لر) بذلك يُسهّلون

Twitter: @ketab_n

السفر للناس في ذلك العصر، ونجد هذا كله في رحلة (ابن بطوطة) الذي يُظهر إعجابه الشديد بشهامة هؤلاء (الآهي لر) وكرمهم وحبّهم للغريب، ومساعدتهم بكلّ وسيلة، كما أنه لا يُخفي دهشته من مشاركة النساء الأناضوليات في القيام بواجبات الضيافة للغرباء، شأنهن شأن الرجال تماماً، على غير ما يعهده الإنسان لدى النساء العربيات من انكماشٍ وعدم مشاركة في الحياة العامة بأيّ شكلٍ من الأشكال، على عهده. وشبيهٌ بهذا ما ينقله ابن جبير (ت 614هـ) الذي سبق ابن بطوطة في رحلاته، والواقع أن كتب الرحلات صارت كثيرة في ذلك العهد، فهناك الموسوعات الكبرى التاريخية والجغرافية التي أُلِّفَت في ذلك العصر، وهي تقتضي الطواف بين البلدان الإسلامية من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، بحثاً عن المصادر والعلماء والمختصين والرواة، وشهود العيان، وفي هذا المقام، لا بد من الإشارة إلى أنّ الصوفية لا مناصَ لهم من الطواف في الأرض مثل العلماء، وذلك بحثاً عن الشيوخ والعارفين، ولعلّ أحسن نموذجٍ لهؤلاء في كثرة الأسفار: الحلاج، وابن عربي، وفخر الدين العراقي[1]، فلا عجب أن يهتمّ الرحالة المسلمون بالبحث عن العارفين والأولياء في أقاصي العالم، والتعريف بهم، وفي مقدّمة أولئك الرحالة: ابن بطوطة المتوفى سنة 1377م، أي في الربع

(1) فخر الدين العراقي، متصوّف من همدان، انضم إلى الدراويش القلندرية، وطاف البلاد، حتى وصل الهند وأقام فيها مدة، أثار نقمة المسلمين بسبب مسالكه الشاذة عن العرف. توجّه إلى مكة حاجاً ثم استقرّ فترة في قونيا تحت رعاية صدر الدين القونوي، أعجب بالفخر العراقي حاكم الأناضول معين الدين برواناه وصار من مريديه، توفي فخر الدين بالشام سنة 688هـ.

Twitter: @ketab_n

الأخير من القرن الثامن الهجري، إذ نجده منهمكاً في جميع البلدان التي يحطّ فيها بالبحث عن شيوخ الصوفية، وإبراز (كراماتهم) باهتمامٍ شديد، يدلّ على ما كان للمتصوفة من مكانةٍ ومقامٍ في تلك العهود.

إنّ انتهاء حياة شمس التبريزي على تلك الصورة المأسوية، حوّله إلى أسطورة شبيهة بأسطورة الحلاج، ومثلما نشأت طائفة صوفية تنتمي إلى الحلاج بعد مقتله، ظهرت طائفة صوفية بعد (شمس) نسبت نفسها إليه، كذلك انطلقت إشاعات كثيرة حول مدفنه وضريحه، بسبب غموض اختفائه، ومن ذلك اليوم، ظهرت لشمس الدين مزارات كثيرة في أرجاء العالم الإسلامي، فهناك ضريح له في (تبريز) مسقط رأسه، ومزار في مدينة (مولتان) بباكستان، وثالث في بلدة بعيدة من الأناضول، وهلم جراً. ويرى بعض مؤرخي التصوّف أن شمس الدين لم يمت عند محاولة القتل، بل استطاع الهرب، وفرّ إلى الهند في حالة اضطرابٍ شديد، فهام بين غاباتها كما يفعل مجذوبو الدراويش، ولما عاد إليه وعيه اتّجه إلى باكستان، وفيها توفي ودفن هناك.

ويبلغ الأمر ببعض المتحمسين لشمس الدين أنهم يزعمون بأنه غاب غيبته الكبرى على نسق غيبة الإمام المهدي، وأنه سوف يعود في قابل الزمان، ولذلك فهم ينتظرونه، مثلما ينتظر أنصار الحاكم بأمر الله الفاطمي عودته، لأن مقتل الحاكم بأمر الله كان غامضاً أيضاً كما هو معروف.

العلم الحديث يُرجِع هذه الظاهرة «ظاهرة تلهّف العامة لتصديق الخرافات الجديدة» إلى الخواء العقلي والظمأ العاطفي الناجمين عن

Twitter: @ketab_n

فقر الجماهير الشعبية وجهلها، مادياً، ومعنوياً، فهي تتلقف أيّ شيء قد يجعل لحياتها معنىً أو طعماً أو أهمية، هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى، فإنّ عموم الناس يرتاحون إلى الكسل والخمول الذهني أكثر ممّا يميلون إلى شحذ الذهن وإتعاب الفكر، بسبب الإحباط الناجم عن التعاسة واليأس، لذلك، هم سريعو التصديق لكلّ ما يبلغ أسماعهم، ويُزعجهم أن يبذلوا أيّ مجهودٍ فكري في مناقشة الأخبار والروايات التي يسمعون.

على أننا لو تفحّصنا سيرة كلّ من الرومي وشمس الدين من كَثَب، لاتّضح لنا براءتهما من مسؤولية ظهور تلك الأساطير والخرافات، وما ترويه كتب المناقب عن كراماتهما المزعومة، يُمكن إرجاعها بسهولة إلى سذاجة مصنفي (المناقب)، وربما كان إعجابهم بشخصية كلٍّ من الصوفيين، هو الذي حفّزهم على إضفاء تلك الهالة الإلهية عليهما، ثم إن التعصّب الطائفي لا بد أن يكون له دور في هذه المسألة، ذلك أنّ المتصوفة طائفة من الطوائف الإسلامية الكبرى لها أنصارها، ولها أعداؤها، وفي العصور الوسطى كانت المجتمعات الإسلامية تعجّ بالفئات المتنافسة والمذاهب المُتصارعة، والنِّحَل المتباينة، فليس من العجيب إذن أن يُدلي المتصوفة بدلوهم في الميدان الكبير، شأنهم شأن غيرهم تماماً. ويؤكد الأستاذ عبد الباقي غول بنارلي شدة استهجان جلال الدين الرومي لمسالك بعض المنتسبين إلى الطرق الصوفية، الذين يستغلون سذاجة العامة، من أجل جني المكاسب الشخصية، أو من أجل اتخاذ التصوف تبريراً للخروج عن الأعراف الاجتماعية أو المعايير الأخلاقية، وممّا يدخل في هذا الباب أن (كرا خاتون)، زوجة الرومي، أرادت يوماً مشاهدة

Twitter: @ketab_n

مخاريف صوفي من أتباع الشيخ أحمد الرفاعي[1] كان يعرض ألاعيبه في أحد مواضع قونيا (كأن يُدخِل سيفاً في جوفه، دون ظهور قطرة دم واحدة، أو يبتلع الثعابين أو يخترق ناراً مشتعلة. . . إلخ)، إلّا أنّ الرومي نصحها بعدم الذهاب معتقداً أنّ تلك العروض ليست ممّا يليق بالمتصوفة، وإنما هي ما يدخل في باب الألعاب السحرية.

3- ما بعد شمس الدين

أ- الصائغ صلاح الدين:

في عصر أحد الأيام، بعد مضي أكثر من عامٍ على رحيل شمس الدين عن الدنيا، كان جلال الدين الرومي يجتاز سوق قونيا بخطىً بطيئة كئيبة، وقد غرق في تفكيرٍ عميق، وإذ بلغ فرع سوق الذهب دخله مواصلاً مسيرته، وفجأة تسمّرت قدماه أمام أحد الدكاكين ومضى يرهف السمع إلى دقاتِ مطرقة صغيرة تعلو وتهبط فوق أشرطة الذهب بإيقاعٍ جميلٍ مدهش، حرّك أشجان قلبه المحزون، كانت عيون الناس جميعاً تُحدّق فيه، لكنه لم ينتبه إلّا إلى تسارع نبضات قلبه التي بدت وكأنها تتجاوب مع تلك المطارق الدقيقة في إيقاعها الموسيقي الناعم. ولم يشعر إلا وهو يدور حول نفسه وسط السوق، على وقع الضربات المؤثرة، وكلما ازداد دوراناً، أحسّ بأن أحمالاً من الهموم تُزاح عن روحه الحزينة المكروبة. انشرحت نفوس

(1) أحمد الحسيني الرفاعي المتوفى في 1183م، ولد في قرية من قرى واسط بالعراق، درس اللغة العربية والآداب، ثم سلك مسلك التصوّف، فانضمّ إليه خلق كثير، له مؤلفات دينية، وما زال قبره محجّة لأتباعه إلى اليوم.

Twitter: @ketab_n

الصاغة لهذا المشهد، وأحاطوا بالرومي بمحبة وولاء، ومضوا يدورون حوله على إيقاعات المطارق. كان دكان الصائغ (صلاح الدين) هو الذي يُقابل جلال الدين الرومي، ولمّا لحظ الصائغ أن الشيخ المحبوب يدور على وقع مطرقته هو، اشتدّ سروره، واحتدم انفعاله، وأمر الصُنّاع بتسريع ضربات المطارق لتتواءم مع سرعة دوران الرومي، ثم إنه هرع إلى خارج دكانه، وراح يدور حول الرومي مع الناس. بعد انتهاء السماع، وقف صلاح الدين يُحدّق في وجه الرومي منتظراً بأدبٍ شديدٍ أوامره، عندها أحسّ الرومي أن صلاح الدين صار أعزّ الناس عليه، فعانقه ومضى يسأله عن أحواله وكأنه صديقٌ قديم.

ولكي يكتمل المنظر رونقاً وحُسناً، فقد زعم (أحمد أفلاكي) بأنّ صلاح الدين التفت عندئذٍ نحو الناس المُلتفّين حولهما وصاح بهم:

- ألا يأكل بعضكم بعضاً من أجل كسب الذهب؟ هاكم إذن محتويات دكاني تناهبوا كل ما فيه فهو حلال لكم! أنا لم أعُد محتاجاً إلى الذهب منذ اليوم، فقد وجدت معدنَ ذهبي الحقيقي (وأشار إلى الرومي).

هجم الناس على دكان الصائغ، فلم يلتفت هذا نحوهم، وإنما سار بمعية جلال الدين الرومي إلى المدرسة. ومن ذلك اليوم، أطلق لقب زركوب (أي طارق الذهب) على الصائغ صلاح الدين، وصار المريد الأقرب للرومي.

فمن هو هذا الصائغ؟

وُلِد صلاح الدين في قرية تركية اسمها (كاملة) تقع على شاطئ

Twitter: @ketab_n

بحيرة أسماك صغيرة، وكان أبوه وأهله يرتزقون من صيد الأسماك المتوافرة في البحيرة ببيعها في الأسواق مقابل مبلغ زهيد من المال، كما كان لهم مساحات متواضعة من الأراضي الصالحة للزرع توفّر لهم عيش الكفاف. في شبابه، قدِم صلاح الدين إلى قونيا، واشتغل لدى أحد الصاغة صائغاً أجيراً. وفي أثناء ذلك، التحق مريداً بسيد برهان الدين الترمذي، لكنه بعد وفاة المحقِّق الترمذي، عاد إلى قرياه عند البحيرة، وتزوّج وخلّف أولاداً. ثم إنه رجع إلى قونيا، وعمل في صياغة الذهب، واستقلّ في عمله وصار له دكانه الخاص.

مع أن صلاح الدين كان أمياً، إلا أن تلقّيه للفيض الصوفي على يد العارف سيد برهان الدين الترمذي، قد هذّب روحه وطهّر وجدانه، وعلمه السخاء وبُغض إلى قلبه الشحّ والثناء، وكان ذا حسٍّ مرهف وحافظة قوية، وممّا أحبه جلال الدين الرومي فيه، شدّة تأثره بالمواعظ الصوفية، وطريقته المهذّبة في الإصغاء إلى الخطب، فلقد كان يجلس وقتها ثانياً ركبتيه بأدبٍ ووداعة، مُخفياً كفّيه في أكمامه، ورأسه منحنٍ إلى صدره في استغراقٍ جميل. هكذا اكتمل تعليمه على يدي الرومي، حتى لقّبه بالشيخ، وترك إليه إدارة شؤون تلامذته ومُريديه ليقوم بها نيابةً عنه.

أحسّ الرومي بأن صلاح الدين هبةٌ من السماء، جاءته تعويضاً عن فجيعته بفقيده شمس الدين التبريزي، فراح يغمره بألفاظ المدح وأوصاف التبجيل، ويُطلق عليه الألقاب الطنانة، على عادة الكُتّاب المسلمين لذلك العهد، فهو قطب الزمان، وبايزيد العصر، وقمر الدياجي، ونور الحق... إلخ. لقد دخل صلاح الدين في شعر

Twitter: @ketab_n

الرومي مثلما وقع لشمس الدين قبله. فيما يلي إحدى الغزليات التي أضيفت في تلك الأيام إلى **الديوان الكبير**:

في زمانٍ مضى أطلّ علينا ذو القفطان الأحمر
كان ذلك شمس الدين ذا المُحيّا القمري
واليوم جاءنا من جديد لكن بقميصٍ رمادي
وها هو الحبيب قد هلّ بعد أن استبدل ثوبه

* * *

كان صلاح الدين زركوب كهلاً أشيب الرأس، يكبر الرومي بسنوات، فاستطاع برصانة طبعه، وهدوء نفسه أن يُعيد إلى الرومي راحة البال التي فقدها منذ غياب شمس، وأن يُخفّف من قلقه وجيشان عواطفه، وكان صلاح الدين يمتلك قدرةً غريبةً على التعبير عن نفسه ونقل أفكاره إلى الآخرين، مع أنه صامتٌ وساكنٌ تماماً، كان ذا قابليةٍ قصوى على تحمّل الجوع وعدم النوم أيضاً، فهو يقوم الليل كلّه لفترات، ويُداوم على الصيام لأسابيع عدا أيام رمضان، تعلّم ذلك كله على يدي شيخه الأول سيد برهان الدين محقق، فليس من عجب، من بعد ذلك، أن يحظى بولاء الدراويش والفقراء الذين التفّوا حوله ملتمسين بركاته المادية والمعنوية على حدٍّ سواء.

ومثلما حاول الرومي إحكام صلته بشمس الدين من طريق تزويجه بإحدى قريباته (كيميا)، فإنه قام هذه المرة بتزويج ابنه سلطان ولد بـ (فاطمة خاتون) بنت صلاح الدين زركوب، وتمّ الزفاف في حفلٍ بهيج، وأصبحت فاطمة هذه أحبّ الفتيات إلى الرومي، فقد حلّت في قلبه بمقام بناته، وتعلّقت هي به وكأنه والدها، وممّا يلقي

Twitter: @ketab_n

الضوء على هذه الصلة الأبوية عدة رسائل موجهة من الرومي إلى ابنه سلطان ولد، يُخبره في إحداها ما يتوجّب عليه من مراعاة أحاسيس زوجته، والحرص على إرضائها، وتجنُّب إغضابها أو إثارة نفورها بالخشونة أو بالقسوة في المعاملة، شأن بهائم الحيوانات. بينما نجده في رسالةٍ أخرى، متأخرة عن السابقة بعقدٍ من الزمان يُوبّخه بشدة على إهماله لمشاعر فاطمة عند وفاة والدها صلاح الدين زركوب قائلاً له: (إنك بهذا ستُشعِر فاطمة بأنها أصبحت بعد رحيل والدها يتيمةً مهيضة الجناح، لا تجد من يحميها. أهذه شهامتك يا ولد؟) ونسمع من أحمد أفلاكي أن الرومي استطاع بعد هذا إرضاء فاطمة فعادت المياه بينها وبين زوجها سلطان ولد إلى مجاريها الطبيعية.

كذلك ينقل إلينا أحمد أفلاكي ما حلَّ بفاطمة بعد وفاة جلال الدين الرومي، فقد وقعت طريحة الفراش من طول الحزن ومداومة البكاء، وأعلنت أنها لا تريد العيش بعده، وانقطع لبنها وكان طفلها الرضيع يموت جوعاً. تقول فاطمة مصوّرةً حالتها (ذبل وجه صغيري ونحل جسمه واختفى صوت بكائه من شدة الهُزال والضعف، وشعرت بأنّ موعد الرحيل عن الدنيا قد أزِف، وفي ذات ليلة حلمتُ بأن النور يملأ الغرفة، ثم رأيت مولانا واقفاً بإزائي ينظر إليّ بحنانٍ وإشغاف، وسألني عن سبب بكائي، فلمّا أخبرته بحُزني على فراقه، قال لي: إن كنتِ في شوقٍ لرؤيتي فاذهبي إلى مهد طفلك وحدّقي في وجهه وستجديني هناك، واستيقظت من نومي وأنا أشعر بتحسّنٍ كبير، وهرعت إلى الطفل العليل، ولمّا حدّقت في وجهه ابتسم لي ابتسامةً عجيبة، رأيت فيها مولانا ذاته، كان بالفعل هناكَ ورفعت صغيري من فراشه ووضعتُه على صدري، فإذا باللبن يتدفق بغزارة،

Twitter: @ketab_n

كانت تلك بركات مولانا، فطابت نفسي وعُدتُ مع طفلي إلى الحياة!).

هكذا يختم أحمد أفلاكي القصة المؤثرة، والواقع أنّ الحكاية ذات صلة بحياة أفلاكي نفسه. ذلك أن الطفل المذكور في القصة، أي ابن فاطمة خاتون وسلطان ولد، هو (أولو عارف جلبي) الذي سيتولى (الخلافة) على المولوية عندما يتوفى سلطان ولد، أعني أنه سيكون شيخ الطريقة بعد أبيه، وهو الذي سيأمر أحمد أفلاكي بكتابة وتأليف **مناقب العارفين**، فلا عجب أن يكون شديد الشبه بجدّه الرومي، وهذا التشابه بين الحفيد والجد، لا بد أن يُعيد إلى ذاكرتنا (الشبه) الذي ينصّ على وجوده، حفيد ابن الفارض، حين يؤكد أنه أشبه الناس بجده، وجهاً وهيئةً، وذلك في الكتاب الذي ألّفه عنه ونشر فيه أشعاره الصوفية (بعد وفاة جدّه).

ولا ريب أن الهدف الأول من تأليف **مناقب العارفين**، هو بثّ مفاهيم التصوّف على الطريق التي أرادها المولويون (أتباع مولانا)، وقد تمّ له تحقيق ذلك من طريق رسم صورة إنسانية جذّابة لجلال الدين الرومي، وجميع أفراد عائلته (دون استثناء النساء)، وسرد كراماتهم والأحداث (الخارقة) التي وقعت لهم، ومقصد الكاتب هو ضمان حصول التأثير المطلوب في مريدي الرومي وأحفاده في قابل الأزمان، وإذا كان هذا هو هدف أحمد أفلاكي من تأليف الكتاب، فلا بد من الاعتراف له بالنجاح التام في تحقيق غرضه، وفي أداء واجبه، فالكتاب، رغم طغيان الجانب الأسطوري الخرافي على مادته، يُعدّ وثيقةً تاريخيةً وإنسانيةً ونفسيةً تعكس بشكلٍ دقيق نمط حياة طائفة كبيرة من مسلمي القرون الوسطى، وطرائق تفكيرهم، وخفايا

Twitter: @ketab_n

أحاسيسهم، وبواطن نفسياتهم، هذا بالإضافة إلى براعة الكاتب في أداء مهمة الأديب الموهوب الذي يسرد تفاصيل سيرة عبقري تهتم به أجيال متلاحقة من القُراء والمعجبين في كل زمانٍ ومكان.

انصرف صلاح الدين زركوب في العقد الأخير من عمره إلى العبادة، فواصَلَ الصيام وقيام الليل إلى أن هزل بدنه وشحب لونه، فلازم فراش المرض، وأدرك وأحسّ بدنوّ أجله، ولازمه شيخه الرومي في أيام أوجاعه الأخيرة، وكان يُسلّيه بالغزليات الجميلة التي يُوجّهها إليه:

يا راحة المُهجة أيتها العين التي أُبصِرُ بها
ليبقَ دانياً ظِلُّ لطفك
وليلبث متورِّداً مُحيّاك النّضِر
ولنقل الله إلى شخصنا أوصابك

* * *

وقعت وفاة صلاح الدين زركوب سنة 656هـ، السنة التي سقطت فيها بغداد بيد هولاكو، وبحسب وصية المتوفى العزيز ساروا بالجنازة تحت دقّات الطبول، وضربات الدفوف، وألحان الناي، وأُقيم السماع طيلة الطريق إلى المقبرة، وصلّى الرومي على الفقيد، وتمّ دفنه قرب سلطان العلماء بهاء ولد.

ب- حسام الدين جلبي:
مولد المثنوي

بعد وفاة الصائغ صلاح الدين، كان على الرومي أن يملأ الموقع الذي شغر، برجلٍ آخر من مُريديه، فوقع اختياره على حسام

Twitter: @ketab_n

الدين جلبي، فماذا نعرف عن هذا المُريد الذي سيحتلّ منصب خليفة الرومي بعد وفاته؟

حسام الدين هو ابن (الآهي محمد) رئيس تشكيلات (الآهي لر)، أي: الأخوان، أعضاء نقابات الحرفيين الذين يُطلق عليهم في التركية اسم (الأصناف)، ومع أن حسام الدين لم يكن قد بلغ سنّ الحلم عند وفاة والده، فقد استطاع كسب ثقة (الآهي لر)، وظلّ يترقى في مراتب الفتوة حتى رفّعوه إلى منصب والده، فعُيّن رئيساً لتشكيلاتهم، ولقّبوه بالآهي تُرْك.

منذ شبابه الأول، داوم حسام الدين على حضور مجالس جلال الدين الرومي، وأصبح من أقرب المريدين إلى قلبه، وبواسطة حسام الدين، راح (الآهي لر) يتبارون في التبرّع بالأموال والهدايا لفقراء المريدين من الصوفية أتباع الرومي. وهكذا، انتظمت أحوال هؤلاء المتصوّفة منذ تعيين حسام الدين جلبي نائباً للرومي في إدارة شؤونهم، إذ صار يقوم بسدّ جميع احتياجاتهم من نفقاتٍ وكسوة، وطعام، وسكن، بكفاءة وأمانة، ممّا هيّأ لجلال الدين الرومي في الأعوام الأخيرة من حياته مجالاً للتفرّغ التام للإنتاج الأدبي كما سنرى.

في صباه، حصل حسام الدين على دراسة علمية هيّأته لأن يعمل مدرِّساً ناجحاً في مختلف مدارس قونيا، لكن عمله في التدريس لم يصرفه عن أداء ما أحسّ بأنه واجبه الأول والأقدس في الحياة، وهو تقديم الخدمات المُتباينة لشيخه المحبوب جلال الدين الرومي. وكان حسام الدين قد تدرّب في الواقع على هذه الخدمات على يد شيخه الأول شمس الدين التبريزي، الذي استطاع اكتشاف مواهبه

Twitter: @ketab_n

وقُدُراته منذ ذلك العهد المُبكّر، وبعد مصرع شمس الدين، انتمى حسام الدين إلى الصائغ صلاح زركوب، الذي أعانه على ارتقاء المقامات الصوفية.

وإذ كان حُسام الدين رجلاً أكاديمياً، فقد أدرك أن العرفان الذي يمتلكه جلال الدين جدير بأنْ يُثير قلوب عُشّاق الحقيقة في جميع العصور، ومن ثم، فإن واجبه المقدّس ينحصر في دفع الرومي وتحفيزه على التعبير، بصيغة الشعر، عمّا يجيش في صدره، ويعتمل في روحه من أحاسيس وانفعالات، وتفجير ما يتراكم في مخيّلته من أشكالٍ وصور، وطَرْح ما يتوارد على ذهنه من أفكارٍ وآراء.

وبينما جلال الدين يُساير حسام الدين في ممرات بُستانٍ له، ذات يوم، قال حسام جلبي فجأة:

- أنت يا مولانا أدرى بإعجاب المتصوفة بـ **حديقة** سنائي و**منطق طير** فريد الدين العطار، أفلا ينبغي لك إنتاج أثرٍ يتفوّق على هذين الكتابين، ما دمت قادراً على ذلك؟ لو حقّقت هذا الهدف السامي، فسوف تبتهج قلوب محبّيك من أهل الحقيقة، ويُصبح كتابك لهم بمثابة الروح للبدن، يلتصقون به، ويرفضون مفارقته إلى يوم الممات، ما رأيكم يا سيدي؟

وكم كانت دهشة حسام الدين كبيرة حين استخرج الشيخ من طيّات عمامته ورقةً سلّمها إليه قائلاً: اقرأ!!!

كانت تلك هي المقطوعة الأولى من **المثنوي** المكتوب أساساً باللغة الفارسية، لغة الأدب السائدة يومئذٍ في عموم الأناضول، وشرقي البلاد الإسلامية جميعاً. قرأ حسام الدين القصيدة الأولى من **المثنوي** التي تضمّ ثمانية عشر بيتاً، وتُشكّل شبه مقدمة للكتاب،

Twitter: @ketab_n

لأنها بحسب ما يقول المولوية تُلخّص كل فكر الرومي الذي اشتمل عليه الكتاب!

وللرقم 18 قدسية خاصة لدى بعض الشعوب القديمة، ومنها الأتراك، لأنهم يتصوّرون أن عدد العناصر المعروفة هو 18 عنصراً: الهواء، والماء، والنار، والتراب، والنبات، والحيوان، والجماد، إضافةً إلى النجوم، والكواكب وهي الشمس، والقمر، والأرض، وأطلسي، والمشتري، والزهرة، والمريخ، وعطارد.

ويجب أن لا ننسى: الوجود المطلق، والعلوم اللدنية!!

ومما يدل على قدسية الرقم 18 لدى المولوية، أن المريد الذي يتبرّع للدراويش، كان يُقدّم ثمانية عشرة قطعة من النقود، والشيخ الذي يخدم في تكية الرومي يُداوم على ذلك مدة ثمانية عشر يوماً، وما إلى ذلك. فيما يلي نُقدّم المقطوعة الأولى المذكورة أعلاه (قامت مؤلفة هذا الكتاب بترجمتها عن اللغة التركية، أعني: عن ترجمة عبد الباقي غول بنارلي لل مثنوي):

1- أصغِ إلى شكاية هذا الناي، وكيف يحكي آلام الفراق.

2- يقول: منذ فُصلت عن أدغال القصب تأوه لنواحي الرجال والنساء.

3- وها أنا أبحث عن القلب الحزين كي أشاركه أحزاني وأشواقي.

4- لأن مَنْ تباعد عن وطنه لا بدّ أن يتلهّف لساعة اللقاء.

5- أنا الناي الذي ترنّم بالألحان في أفراح الناس وأحزانهم.

6- حتى خُيّل لكم منهم أنه صار لي رفيقاً مع أنه لم يحاول استكناه بواطن أسراري.

Twitter: @ketab_n

7- ليس من فرقٍ بين ما أخفيه من سرٍّ وما أشعر به من حزن، لكنّ ذلك النور لا تراه عين ولا تسمعه أذن!

8- الجسد ليس محجوباً عن الروح، والروح غير مستورةٍ عن الجسد، لكن مشاهدة الروح لم يُسمح بها لإنسان.

9- نغمة هذا الناي نار وليست نسمة ريح، فلا كان مَنْ لم يحترق بهذا اللهيب.

10- جذوة النار أصابت قصبة الناي، وحميا العشق تمايلت في الشراب.

11- عند فراق الحبيب صار الناي رفيقاً لنا، نقابه مزّق نقابنا وقُضِي الأمر.

12- والناي يحكي قصة طريقٍ مُخضّب بالدم، ما يفتأ يسرد تفاصيل حكاية المجنون.

13- هل شهدتم سماً كالناي وترياقاً كالناي؟! هل رأيتم أحداً يتحمّل الأشواق كالناي؟

14- هذا السرّ قد حرِّم على مَن لا عقل له إذ ليس للسان من مشترٍ غير الأذن!

15- بالهموم تقضّت أيامنا وحلّت الليالي، ورفيق طريقنا احترق ومضى.

16- إنْ ذهبتْ الأيام فقل: مُرّي وزولي، فما نعبأ بك، لكن لتبقَ معنا أيها الحبيب الذي لا نظير له في الطُهر والعفاف.

17- مَن ليس من فصيلة الأسماك تاه في الماء، ومَن بقي بلا رزقٍ طالت أيام محنته.

Twitter: @ketab_n

18- لكن الإنسان الساذج لن يفهم أحوال مَنْ حَنَّكته التجارب، وذلك يقتضي أن نقطع هذا الكلام.. والسلام.

إن النّاي في هذه القصيدة التي هي مقدِّمة **المثنوي** رمزٌ للإنسان الكامل، الذي فُصل من عالم الاتحاد، عالمه الأصلي، ليُنقَل إلى عالم الوجود، وألحان الناي إنما تصدر بإرادة الحق. وحيث إن الإنسان في هذا العالم الأرض مُقيّد بكينونته، فإنه لا يفتأ يتلهّف مشوقاً للرحيل إلى المطلق. الناي إذن ذو معنىً مجازي في القصيدة، والشاعر هنا يُشبّه عالم القلب بموطن القصب ومنبته، لأن الناي يُصنع من القصب، وبالناي أيضاً قصد الرومي نفسه هو، فالإنسان الكامل يحنُّ أبداً للعودة إلى المُطلق ليتّحد به كما كان في الأصل، وذلك بحسب نظرية وحدة الوجود الصوفية، والشاعر يُعلن أن هذه (الأسرار) ليست قابلةً لأن يفهمها كل إنسان، إذ لا يتهيّأ إدراكها إلا لأهل الكمال، أصحاب الاستعدادات الخاصة، الذين ارتقوا مراتب العشق الإلهي، درجةً بعد أخرى، إلى أن حقّقوا حالات الاتحاد. والرومي يرى أن العالم انبثق أساساً بسبب العشق الإلهي (المُطلق أراد أن يُعشَق فخلق الإنسان). (الشراب) في القصيدة، رمز أيضاً لأنّ أساس طريقة جلال الدين الرومي هو العشق والنشوة الناشئة عنه، والعشق يستدعي السُّكر والانتشاء حين يبلغ الإنسان الكامل مرتبة الاتّحاد بالمُطلق التي ما بعدها مرتبة عند أهل التصوّف. أما قوله (إن ذهبت الأيام، فقل: مرّي وزولي فما نعبأ بكلّ لكن لتبق معنا أيها الحبيب)، فإنه يريد القول بأنّ الزمان مفهومٌ ذهني، فالزمن الماضي غير موجود حالياً، والزمن الآتي في طيّ الغيب، وعلى هذا، فالزمن جزء منّا ولا حاجة بنا أن نخشى انقضاؤه! وأما السمك

Twitter: @ketab_n

في البيت السابع عشر، فالمقصود به ضرورة التخلّص من الأنانية من طريق السعي إلى خدمة الناس والمجتمع، واحتقار الوجود النسبي، والشوق للاستغراق في الوجود المُطلق. وفي البيت الأخير، يُفرّق الشاعر بين خاصة المتنورين أهل العرفان، وبين عامة الجُهّال، الذين لم يدخل النور قلوبهم، مثل هذه المعاني ذات صلة بالفكر الإسماعيلي السائد في ذلك العصر، الذي تجسّد في نظريات ابن عربي، ولم يسلم منه فكر شمس الدين التبريزي خَدينُ الرومي وأستاذه.

من هذا اليوم، بدأ تأليف **المثنوي**، وظلّ ينمو ويكبر حتى بلغت أبياته أكثر من خمسة وعشرين ألف بيت، استغرقت ستة مجلدات، واستمرّ العمل فيه حتى ختام حياة مؤلفه. كان الرومي ينظم أشعاره ليل نهار، في كلّ مكانٍ وزمان، حتى حين كان يدخل الحمام العمومي، تخطر له أبيات فيُمليها رأساً على مريده المخلص (حسام الدين) الذي يرافقه حيثما حلّ وارتحل، وبيده الريشة والدواة والورق.

والمثنوي قصيدة مطوّلة واحدة، وزنها هو بحر الرمل العربي، ويتضمن من حيث المحتوى آراء وأفكار ومواعظ ونصائح، يأتي كثيرٌ منها على شكل حكاياتٍ وقصصٍ وأمثال وأقوال للمشاهير من البشر، كذلك تردُ فيه كثير من الأحداث اليومية مع التعليقات عليها، كما يشتمل على منقولاتٍ كثيرةٍ من الكتب التي يقرؤها الشاعر في وقتها، وهناك بالطبع استشهادات كثيرة بآيات القرآن وأحاديث الرسول والصحابة، وأشعار العرب والفرس. باختصار، ف **المثنوي** (دكان فيه كل شيء) بحسب تعريف الرومي له.

Twitter: @ketab_n

ولأن حسام الدين جلبي هو الذي دفع الرومي إلى إنتاج أثره الخالد هذا، وهو الذي دوّنه كله من أوّله إلى آخره، بخطّ يده، سماعاً عن مؤلفه مباشرةً، فإن الرومي لم ينسَ لصديقه هذا الفضل أبداً، فهو ينصّ على تمجيد حسام الدين في كلّ مناسبة، أثناء الكتاب. وكثيراً ما بدأ الفصول الجديدة بأبياتٍ من الشعر يُخصّصها للثناء على حسام الدين، يقول مثلاً في أول المجلد الثالث (يا ضياء الحق وحسام الدين ها هو المجلد الثالث يظهر إلى الوجود فأخرج خزائن الأسرار واترك الأعذار ما دامت قوتك من قوة الله). وفي بداية المجلد السادس يقول (يا حياة القلب يا رجل المعاني ها أنا أهديك المجلد الأخير من المثنوي...).

يفتتح جلال الدين الرومي كل مجلد من المثنوي بمقدمة، وكانت مقدمة كلّ من المجلد الأول والمجلد الثالث والمجلد الرابع باللغة العربية التي يُتقنها أشدّ الإتقان، أما مقدمة المجلدات: الثاني والخامس والسادس فمكتوبةً باللغة الفارسية مثل أبيات المثنوي، وفي الكتاب استشهاداتٌ كثيرة بالشعر العربي، ترِدُ بالعربية على حالتها الأولى، وكذلك الشأن مع آيات القرآن وأحاديث الرسول وأصحابه.

في ديباجة المجلد الأول، يقول جلال الدين الرومي باللسان العربي:

(هذا كتاب **المثنوي** المعنوي، وهو أصول أصول أصول الدين في كشف أسرار الوصول واليقين، وهو فقه الله الأكبر وشرع الله الأزهر وبرهان الدين الأظهر، مثل نوره كمشكاةٍ فيها مصباح، يشرق إشراقاً أنوار من الإصباح، وهو جنان الجنان ذو العيون والأغصان،

Twitter: @ketab_n

الأبرار منه يأكلون ويشربون، والأحرار منه يفرحون ويطربون، وهو كنيل مصر شرابٌ للصابرين وحسرةٌ على آل فرعون والكافرين، واقتصرنا على هذا القليل والقليل يدل على الكثير، والجرعة تدل على الغدير. يقول العبد الضعيف المحتاج إلى رحمة الله تعالى محمد بن محمد بن الحسين البلخي[1]: اجتهدتُ في تطويل المنظوم المثنوي المشتمل على الغرائب والنوادر وغرر المقالات ودرر الدلالات وطريقة الزهاد وحديقة العباد، لاستدعاء سيدي ومكان الروح من جسدي، وذخيرة يومي وغدي، هو الشيخ قدوة العارفين، إمام الهدي واليقين، أبو الفضائل حسام الدين محمد بن حسن المعروف بابن آهي تُرْك أبو يزيد الوقت جنيد الزمان، الأرموي الأصل، المُنتسب إلى الشيخ المكرم بما قال: «أمسيت كردياً وأصبحت عربياً»[2] فنعم السلف ونِعم الخلق. والحمد لله وحده وصلى على محمد وآله وحسبنا الله ونعم الوكيل).

---

(1) اسم جلال الدين الرومي هو محمد جلال الدين، واسم أبيه محمد بهاء الدين ولد، واسم جده الحسين البلخي.

(2) (رقدتُ كردياً واستيقظت عربياً) أو (أمسيت كردياً وأصبحت عربياً) هذه المقولة تُنسب إلى صوفي كردي يُدعى الشيخ (تاج الدين أبو الوفا) المتوفى في بغداد في القرن الثاني عشر الميلادي، قيل إنه لم يكن يُحسن العربية، وبينما كان في ذات يوم، يُلقي مواعظه في المسجد، ألحّ عليه المستمعون أن يعظهم باللغة العربية، فوعدهم بأن يفعل ذلك في اليوم التالي، في اليوم التالي بدأ خطبته قائلاً (رقدت كردياً واستيقظت عربياً) فذهبت مثلاً. حدث ذلك بعد أن تكررت الحادثة مع الشيخ الكردي الأرموي حسين يزدان يار، جد حسام الدين جلبي، فبدأ كلامه قائلاً (أمسيت كردياً وأصبحت عربياً)، فنسب إليه جلال الدين الرومي هذا القول.
وقد تطوّرت هذه العبارة لتعني مقصداً آخر، ففي العصر الإسلامي في =

Twitter: @ketab_n

تسير ديباجة الجزء الثالث وديباجة الجزء الرابع على النسق ذاته، فالأسلوب هو أسلوب النثر في الفترة المظلمة الذي اكتمل على يد القاضي الفاضل وزير صلاح الدين الأيوبي، وهو أسلوب مُثقل بالمحسِّنات البديعية والصنعة الجامدة على ما هو معروف، وقد اتّبع الرومي هذا الأسلوب في المقدمة العربية وحدها، أما الكتاب ذاته فلا صلة له بهذا الأسلوب، لأنه مكتوب باللغة الفارسية التي كانت يومئذٍ في عصر ازدهارها.

وفي أثناء **المثنوي** ترِد ألفاظ تركية كثيرة، لأن الكتاب مُوجّه أساساً إلى الأتراك الذين يعيش الرومي بينهم، والذي نَظَم الكتاب من أجلهم، وكان الرومي يُخاطبهم بلهجتهم السائدة وقتئذٍ، في قونيا، وهي لهجة قبيلة القبجاق، وكذلك لهجة قبائل الأدغور.

تعتمد أغلب منقولات **المثنوي** على الأدب الفارسي، لا سيما في باب الحكايات والقصص، حيث ينقل دائماً عن فريد الدين العطار والشاعر سنائي، وعن كتاب **كليلة ودمنة**... إلخ، لكن هناك أيضاً حكايات عربية وتركية، وهناك منقولات عن التوراة والإنجيل أيضاً.

من المهم أن نلاحظ بأن الرومي حين يُهاجم الفلسفة في **المثنوي**، لا يعني أبداً أنه يدعو إلى الجهالة والسفاهة والسذاجة في التفكير، فمن المعروف أنه كان من أعمق أهل زمانه علماً وثقافةً،

= القرون الوسطى كان (العربي) يرمز للشخص المتنوّر الذكي، العارف بعلوم الدين في الوقتْ ذاته، في حين كانت لفظة (الكردي) تُستعمل كبديل للفظة (الريفي) في عصرنا الحاضر، يعنون بها الشخص الذي يعيش في عزلة عن الحضارة أي غير المُتمدّن.

Twitter: @ketab_n

وقد كان مُطَّلعاً على جميع العلوم المُتاحة للمثقفين في ذلك العهد، وليس في **المثنوي**، ولا في أيٍ من آثاره ما يُشير إلى رفضه وإنكاره للآراء والنظريات العلمية على صحّتها في القرون الوسطى، بالعكس، فالكتاب يُثبت استيعاب مؤلفه للفكر العلمي السائد في ذلك العصر، بدليل ورود كثير من المصطلحات العلمية والفلسفية، بمعانيها المُتّفق عليها يومئذٍ، في مختلف أبواب الكتاب، ومنها: الجوهر، العرس، السبب، العِلة، الهيولى، الصورة، المثال، القوة الناطقة، العقل الكلي، التركيب، الجزء الجبر، الاختيار، السبب، الأثر... إلخ.

نترك **المثنوي** مؤقتاً، لنُكمل سيرة صاحبه.

حين انتهى الرومي من تأليف **المثنوي**، كان قد شاخ تماماً، وممّا سرّع ظهور علامات الشيخوخة، إصابته بمرض الكبد، فقد بدأ في آخر سني حياته يشكو أوجاعاً في كبده، وكانت الحمى تنتابه بين فترة وأخرى دون أن يشخّص الحكماء علّته الحقيقية. ويبدو أن هذا المرض لم يكن معروفاً لدى الأطباء يومئذٍ، وكانوا يعتقدون أن مرضه متسبب عن طول صيامه، ومشقة الرياضة الصوفية التي التزم بها منذ عهد شبابه.

استمرّت (نيابة) حسام الدين جلبي مدة عقد من الزمان، أي إلى وفاة الرومي، وبعد ذلك، انُتخِب خليفةً له على رئاسة المولوية، كان حسام الدين على المذهب الشافعي، في حين كان الرومي حنفياً. وكان كلاهما لا يُولي مثل هذه الاختلافات المذهبية أية أهمية، فقد عُرِف كُلٌّ منهما بالتسامح الشديد في قضايا الأديان والمذاهب.

مع انتهاء **المثنوي**، تجلّت إمارات الإعياء على جلال الدين الرومي، وبالتدريج، راحت الدنيا تموت في عالمه الشخصي، وبدأ

Twitter: @ketab_n

يشعر بالسكون الأبدي الذي طالما توقّعه وانتظره، وكان وعيه الفردي قد تحوّل منذ فترةٍ طويلةٍ إلى وعيٍ جماعي، والآن، أصبح وجوده المحدود على وشك الاندماج بالوجود المُطلق، وأفكاره المرتبطة بخيوط عصره، راحت تسعى للتخلص من حدود الزمان المُقيّد، إلى الزمان المُطلق. من أقواله في تلك الأيام: (الذين يموتون بعد اكتشافهم الحقيقة، يذوبون في حضور الحبيب كما يذوب السكر في الماء. إنهم أرقّ من الملائكة، وأشدّ منها شفافية. إنهم يموتون بشكلٍ آخر لا عهد للبشر به. هل تتصوّر أن الأسود تفارق الحياة عند عتبات المنازل، كما تفعل الكلاب؟! كلا!! العشاق حين يفنون في طريق العرفان يلاقون سلطان الأرواح، العشاق يموتون، وعيون أرواحهم مفتوحةً تلتمس رؤية المعشوق الإلهي، في حين يموت الجهال وهم صمٌ بكمٌ عمي. العاشق شبيهٌ باللؤلؤة التي لا تعرف قيمتها إلا بعد استخراجها من الصدفة، فهو لا يموت في أحضان أبويه، بل يُحلّق في أرجاء السموات. هو لذلك لا يحس بمشاعر الخوف عند اقتراب المنيّة، بل يذهب وهو في أشد حالات الإيمان والطمأنينة والسكينة)، ثم يقول: (لست سلطاناً يسلبه الموت عرشه فيحمله الناس وهو في التابوت فوق أعناقهم كالعبيد، ما أنا إلا رجل خلقه الله من شراب العشق).

استمرّت الحمى تتصاعد، ولم يفد معها أيّ علاج، كان الرومي على وشك الهجرة عن هذا العالم الأرضي، ولازمه أحبّاؤه أياماً طوالاً، كان منهم: أكمل الدين غضنفري من ذوات قونيا المعروفين، الذي ظلّ يحمل إناء ماء بيده ليمسح به وجه الرومي بين آنٍ وآخر، تخفيفاً عنه من وهج الحمى، وكان بين زائريه الشيخ الصوفي، صدر

Twitter: @ketab_n

الدين القونوي، ربيب ابن عربي الذي ظلّ مواصلاً الدعاء للرومي بالشفاء والعافية، فكان هذا ينظر إليه بمودّةٍ وشكران ويسمعه أقواله الأخيره: «لا تنظر إلى وجهي الذابل الشاحب، بل فكّر فيما أملكه من قوة، أنا أشبه الشمس في جبروتها، وأماثل مياه البحر التي تحتوي اللآلي الثمينة، في داخل قلبي تقوم السماء، وفي خارجه توجد الأرض، في وعاء العالم ما زلتُ أصير مثل نحلة العسل، لكن لا تُصغِ إلى صوتها فقط، بل راقب خلية العسل الفائضة بالشهد، مَنْ قال إني أحتضر وأموت، وها تحتي البراق مطأطئ الرأس على استعداد ليحملني إلى السموات العلى؟ حلّق يا طير روحي، فتحتَ رجلي مئات الحصون التي هي أقوى من جميع قلاع الأرض. أنا نور الشمس الذي يشع نهاراً فوق المنازل، أنا العقيق المصنوع من الطين، أنا الذهب المتوهّج، وأنا الياقوت الغالي، وفي كلّ ذرة مني يوجد كنز».

يوم السبت السادس عشر من كانون الأول عام 1273 ميلادي واصل جلال الدين الرومي التحدث إلى زائريه وولده حتى المساء، كانت كل كلمة بمثابة وصية. في ذلك المساء أحاط به أهله وفيهم سلطان ولد، وصديقه حسام الدين، وبقية محبيه. كان سلطان ولد قد أضناه الإعياء من طول السهر بجانب والده العليل، عند الفجر انتبه الرومي من غشيته ونظر إلى عيني سلطان ولد الذابلتين وقال هامساً:

«بهاء الدين[1] أنا بخير، اذهب وجِدْ شيئاً من الراحة»

نهض سلطان ولد وأثر الدموع في عينيه وخرج فتبعه والده بنظره، ومضى يحدث نفسه «اذهب يا ولدي وأرح رأسك على

(1) اسم سلطان ولد الكامل هو محمود بهاء الدين سلطان ولد.

Twitter: @ketab_n

الوسادة، اتركني واقطع الأمل من هذا المبتلى بالآلام والحمى والأرق والاضطراب، واصفح عن أبيك في أيامه الأخيرة».

في أثناء ذلك كان حسام الدين جلبي الجالس قريباً يسجِّل كلّ ما يتلفظ به الرومي بحرص وعناية، كان في الواقع يودِّع أباه الروحي الوداع الأخير. مضى يوم الأحد في صمت رهيب، فقد اشتدّ المرض على الشيخ، وحول الدار تجمَّع أهالي قونيا تاركين جميع أشغالهم للاطمئنان عليه، وانضمّ إليهم أهل القرى المجاورة، كان الجميع يتحدّثون همساً، وكل شخص يتجنّب النظر في عين جاره، فالنهاية صارت قريبة، وتعالى نشيج الباكين في أرجاء قونيا.

عند الفجر، أغمض العليل عينيه للمرة الأخيرة مودعاً قونيا البلدة التي قَدِمَ إليها قبل أربع وأربعين سنة، فوهبها كلّ الحب، ووهبته الخلود. صباح الاثنين، أخرج التابوت من الدار يضمّ جثمان الفقيد الكبير، كان الزحام عند الباب هائلاً، تنافس الكلّ على رفع النعش على أكتافهم، واضطرّ رجال الشرطة أن يدفعوا الناس عن النعش، بالقوة، في حين تعالى النحيب في كل مكان، وظلّ الناس يتقاطرون إلى الشارع الرئيس وهم كالسيل الجارف. وخلف الجنازة سار العلماء والمتصوفة والآهي لر، وأسطوات الأصناف، ورجال الدولة، وانضم إليها القسس المسيحيون، وحاخامات اليهود أيضاً، كان هؤلاء يُرتّلون أناشيدهم الدينية الحزينة، وهم يحملون (العهد القديم والعهد الجديد). وقد حاول أحد البسطاء من العامة أن يمنعهم من إجراء طقوسهم، فصاحوا به قائلين:

- (عندنا أن جلال الدين هو سرّ عيسى وموسى، بل إنه شمس، والشمس لا يقتصر نورها على أرضٍ واحدة، لأنها تُشعّ على الدنيا

Twitter: @ketab_n

كلها. ومولانا جلال الدين كالخبز، هل هناك جائع قادر على ترك الخبز؟). هكذا أفحِم الرجل المسكين، فاعترف بخطئه وانصرف. جرى السماع على طول الطريق إلى المقبرة، مصاحباً الجنازة وسط دقات الطبول، وضربات الدفوف، ونواح الرباب، وأنين الناي، وأغمي على عشرات الناس من شدة تأثرهم وبسبب كثافة الزحام، واضطر حاملو النعش إلى التوقف عدة مرات عاجزين عن مواصلة السير، بسبب ذلك، وممّا زاد الأمر صعوبةً إصرار الكثيرين على الاقتراب من التابوت التماساً لبركات روح الفقيد، وهكذا تأخر سير الموكب واستغرق النهار كله لكي يصل إلى مقرّه الأخير. عندئذٍ، تقدّم صدر الدين القونوي للصلاة على روح المتوفى الكبير، لكن البكاء غلبه حتى سقط مغشياً عليه، فحلّ القاضي سراج الدين محله وقام بالواجب. دفن الرومي بجانب والده في مقبرة العائلة، وبحسب العادة المُتّبعة آنئذٍ، ذُبحت سبعة ثيران ووُزِّع لحمها على الفقراء، ثم انصرف الناس، ولم يبقَ عند الضريح غير بضعة أشخاص، كان فيهم حسام الدين آهي ترك، الذي اقترب من الضريح وراح يتلو بصوت متهدج بيتَي جلال الدين الرومي:

بعد ذهابنا لا تبحث في التراب عن مزارنا ذلك أننا سنستقر في قلوب العارفين[1]

(1) جميع أشعار جلال الدين الرومي التي وردت، فيما سبق من صفحات الكتاب هي من ترجمة المؤلفة عن المؤلفات التركية، المنصوص عليها ضمن قائمة (مصادر الكتاب ومراجعه) أما الأشعار المترجمة عن **المثنوي** التي ستَرِدُ في الفصول القادمة فهي من ترجمة د. محمد عبد السلام كفافي، في كتابه **المثنوي**.

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

مذهب جلال الدين الرومي

مدخل

لأن الرومي ظلَّ مصمماً على مهاجمة الفلسفة والتفكير المنطقي إلى آخر حياته، فمن الخطأ التحدّث في مذهب فلسفي مُحدَّد يمكن إلحاقه به أو نسبته إليه. والحق، أن هذا الحكم ينطبق أيضاً على جميع المتصوّفة بالرغم من المحاولات التي بذلها بعض الصوفية في سبيل تقنين مذاهب خاصة يُميّزون بها أنفسهم عن الفلاسفة، كما فعل السهروردي القتيل[1] والعارف ابن سبعين مؤسس الطريقة[2]

(1) شهاب الدين يحيى بن حنشرين أميرك السهروردي (قتل سنة 587هـ) هو الحكيم المقتول بقلعة حلب بأمر من الملك الظاهر غازي بعد استئذان والده صلاح الدين الأيوبي. قرأ السهروردي الحكمة على الشيخ مجد الدين الجيلي أستاذ الإمام فخر الدين الرازي. أفتى فقهاء الشام بإباحة دمه لما ظهر عليه من دعوة إلى إحياء الفكر الوثني القديم، ووجهت إليه تهمة الاعتقاد بمذهب الفلاسفة، وكان الأيوبيون مثل السلاجقة يخشون الفكر الحر، على ما ذكرنا في الفصول السابقة، كان عمره عند مقتله 38 سنة، له عدة مصنفات في الحكمة، منها **التلويحات وحكمة الإشراق** وإلى السهروردي يُنسبُ المذهب الإشراقي.

(2) الشيخ قطب الدين المرسي عبد الحق ابن سبعين (المتوفى سنة 669هـ) صوفي اتّبع طريق الفلاسفة، مؤسّس الطريقة السبعينية، أشهر أقواله التي =

Twitter: @ketab_n

وابن عربي، لكن هؤلاء المتصوفة لم يوفقوا إلى إضافة أي جديد للفلسفة الإسلامية، إذ لم يتملّكوا أي شيء من الإبداع الفكري، بل أصبح تفكيرهم فيما بعد على الضّد ممّا يتطلبه الفكر الحر، إذ صارت المسالك الصوفية لهؤلاء وزملائهم وِبالاً على أبناء الشرق الإسلامي بعد سيادة الاتجاه السلفي والجمود العقائدي على أيدي السلاجقة، ومن بعدهم: سلاطين بني عثمان، فقضي بذلك على الإبداع الفلسفي في الحضارة العربية قضاءً مُبرماً ونهائياً.

بحسب البحاثة التركي المتخصِّص بالدراسات الصوفية: عبد الباقي غول بنارلي «بتثليث النقطة تحت الباء» فإنّ جلال الدين الرومي ينتمي إلى الملامينة المتألفة من دراويش أو قلندرية، يرتبطون من قريب أو بعيد بحركات الفتوة والأصناف والشطار وأبدال الروم[1]، وهذه الفئات في جوهرها ليست إلا تجسيداتٍ متباينة

= أغضبت الفقهاء (لقد تحجّر ابن آمنة بقوله: لا نبيّ بعدي)، ومن أقواله (إن الله هو حقيقة الموجودات كلها) والمؤرخ الذهبي يكفّره على هذا الرأي. عاش في مكة هرباً من الظاهر بيبرس، كان شديد التسامح، يتحمّل الانتقاد بصدر رحب، له كتاب ما لا بد للعارف منه وله رسائل بليغة.

(1) أبدال الروم: يدّعي المتصوّفة الخراسانيون أنّ الأبدال هم سبعة أولياء من رجال الغيب(!) لهم القدرة على الظهور في كل طرف من أطراف الأرض متى شاءوا وبدون أية واسطة نقل!! ولفظة أبدال، جمع (بدل) لأن (البدل) هذا، له القدرة على الظهور بأية شخصية يُريدها، ومن وظائف (الأبدال) إنزال المطر من السماء، وقطع الآفات المُهلكة، ومساعدة المسلمين وقت الشدائد... إلخ. في جميع هذه التصورات تتجلّى أفكار وثنية قديمة أُعيد إحياؤها ضمن المعتقدات الدينية التي تغلغلت في نفوس العامة في العصور الإسلامية المتأخرة، لكن لفظة أبدال تطورت فيما بعد، خاصة في الأناضول فصارت تعني أهل العرفان.

Twitter: @ketab_n

لطموحٍ مختلف من الهيئات الإسلامية من غير العرب، لبعث تراثها العتيق، بعد أن اضطرت إلى إغفاله منذ سطوع نجم الحضارة العربية الإسلامية وسيادة الحُكّام المسلمين في بلدان غير عربية الجنسية. ممّا شجّعها على تحقيق أهدافها (التي تدخل جميعاً تحت تسمية الشعوبية) تضعضع أركان الدولة الإسلامية، واستقلال الإمارات الإسلامية وانفصالها عن المركز. وهكذا، مضت تلك الشعوب تُنقّب في صفحات ماضيها العتيق، باحثةً عن هويتها الحضارية وشخصيتها الخاصة، كما يحدث عادةً في مثل هذه الأحوال. ولأن مصادرنا العربية تكاد تخلو من أية إشارة إلى الفئات الإسلامية المذكورة لأسبابٍ ربما كان أهمها ظهور تلك الفئات خارج العالم العربي، في السلطنات النائية التي لا تتكلم اللغة العربية، علاوةً على تحرّج المؤرخين العرب من إشاعة معتقدات تبدو في أعينهم شاذة وغير مقبولة بمعيار الشرع الإسلامي، فقد تعيّن على الدارسين العرب المُحدثين الاعتماد في مثل هذه المواضيع على المستشرقين والباحثين الغربيين، وفي ذلك ما فيه من الخطأ والخطر على حضارتنا وتراثنا كليهما، فالمفروض أنّ الإنسان يتفهّم ماضي أمّته أكثر مما يفعله الأجنبي، لكن هذه البديهية، فيما يبدو، لا تزال حتى اليوم بحاجة إلى إثباتات وبراهين للأسف الشديد.

لكن أطرف ما في هذه المسألة أن الباحث العربي المعاصر حين يتّكل تمام الاتكال على المباحث الغربية، يتناسى، وربما يجهل، بأنها كثيراً ما استعانت بدراسات العلماء المسلمين المعاصرين من أبناء الشعوب ذاتها، وبهذا تبرز الثغرة الخطيرة مرةً أخرى أمام العين، فمن الواضح أن هناك عيباً أو قصوراً كبيراً يشين

Twitter: @ketab_n

وينتقص من قيمة دراستنا لتراثنا بمجمله، ويتجلّى ذلك في انقطاع الصلات الثقافية انقطاعاً يكاد يكون تاماً في عصرنا هذا ما بين العالم الإسلامي من جهة، وبين العالم العربي الإسلامي من جهة أخرى. والأسباب متنوعة، ومتشعبة، لكنّ أهمها مُتأتٍّ من الرأي القائل بضرورة الإسراع في اللحاق بموكب الحضارة الغربية المتقدمة العصرية، ممّا يستدعي الاهتمام بمنتجات هذه الحضارة، وإغفال كل ما تنتجه الشعوب الشرقية من آثار ومُنجزات، والحال أن طرح القضية بهذا الشكل الضيّق خطأ فاحش، ذلك أن الحرص على اللحاق بركب الحضارة الغربية العظمى لا يعني أبداً ضرورة إهمال ثقافة وآثار جيراننا وإخواننا الشرقيين. والواقع، أننا في هذا العالم العربي الحاضر مُحتاجون أشدّ الاحتياج إلى إيلاء دراسة اللغات الغربية والشرقية معاً، عنايةً أشدّ، ورعايةً أكبر ممّا جرى حتى اليوم. ولكن، من تهيأ له الإقامة في أية بلاد آسيوية أو أفريقية خارج نطاق العالم العربي يهوله جهله المُريع بكل ما يخص تلك البلدان، في حين يلاحظ أن شعوب تلك البلاد تنظر إلى التراث واللغة العربيين نظرة تقديس وإجلال، فلا نعرف كيف نستفيد من هذه المزيّة أو الفرصة، ولا نحاول من ناحية أخرى مدّ يد العون إلى أولئك الأخوان الذين شاركونا تجارب الماضي بحلاوتها ومرارتها، وما زالوا يفعلون، في حين أننا قادرون تماماً على إشباع تلك الحاجة الروحية ذات الجذور العميقة في قلوبهم وعقولهم في آنٍ واحد.

ما يهم في هذا الموضوع أن كاتبة البحث لم تألُ جهداً في الاستفادة ممّا وقع تحت يديها من تلك المراجع الإسلامية التي نقل

Twitter: @ketab_n

عنها الدارسون الغربيون المهتمون بالتصوف مثل نيكلسون وبرنارد لويس وماسينيون، وغيرهم كثير، لا سيما دراسات الباحثين الأتراك، وفي مقدّمتهم العلامة عبد الباقي غول بنارلي، وهي مباحث لا تزال بعيدة عن متناول القارئ العربي مع الأسف الشديد، مع أنها تتّسم بالنزعة العلمية، إضافةً إلى حرص أصحابها على إمتاع القارئ وتزويده بأصدق المعلومات عن التراث الإسلامي والحضارة العربية، مع العناية بكلّ ما هو حيوي ونافع وطريف من ذلك التراث، وإطراح ما هو ضارّ ومتأخر وجامد، أي كلّ ما يشد الإنسان إلى الوراء، وما يسير به في طريق الموت والفناء، وهو ما يريده لنا أعداء شعوبنا ويسعون إلى تحقيقه بكل ما في طاقتهم وقدرتهم.

ادّعى الصوفي التستري المتوفى عام 283هـ أن المعرفة كرامة تقع للولي دون غيره، وظهرت في أحاديثه اتجاهات باطنية صريحة، فهو القائل (للربوبية سرّ، فلو أظهرته لهلكت النبوة، وللمعرفة سر، لو شاء الله إظهاره لزالت قيمة الشريعة). من هذا الوقت، بدأ التبشير بمذهب (الملامة والندامة)، وهو فرع من شجرة التصوّف جُوبِهَ بأشدّ العداء من أهل الكلام والفقه.

إنّ ادّعاءات العلم الباطني دخلت الفكر الإسلامي من طريق تأثيرات حرانية، ومسيحية، ومانوية، وغنوسطية يونانية، يتّفق في هذا جميع الباحثين في الأديان القديمة. قام (إخوان الصفا) بمهمة تجميع وانتقاء أفكار العلم الباطني، وأظهروا ذلك في رسائلهم الشهيرة، واستخدم الإسماعيليون فلسفة أخوان الصفا من أجل الترويج لدعوتهم، مضيفين إليها ما شاءوا من الوثنيات الساسانية القديمة، وبشّر ابن سينا بالفكر الإشراقي الذي طوّره فيما بعد السهروردي

Twitter: @ketab_n

(القتيل في حلب). يقول د. محمد عابد الجابري[1]:

(إن الشيخ الرئيس «ابن سينا» وجد في الفلسفة الحرانية الدينية التي روّجت العلوم السرية والروحانية الأفلاطونية والفيثاغورية، مادةً خصبةً تستجيب للدوافع التي حرّكته إلى إنشاء فلسفة مشرقية روحانية الاتجاه).

كل ذلك سهّل للمتصوفة تصوير نظرياتهم حول (الفرق بين الشريعة والحقيقة)، وأعلنوا أنّ الوصول إلى (الحقيقة) يعني تحقيق الشريعة، وانتهوا إلى أن الصوفي في غنىً عن الشريعة، متفقين مع الباطنية في رأيها بأنّ الشريعة إنما وجدت من أجل العامة «أهل الغفلة»، أمّا الخواص المتنورون فهم منهمكون في طلب (الحقيقة) التي هي عندهم هدف الإنسان الكامل.

معلومٌ أن طائفةً أخرى من المتصوّفة وقفت عند حدود الشرع، ورفضت تجاوزه، ويمثّل هؤلاء متصوفة بغداد، وعلى رأسهم الكرخي والجنيد والسري السقطي وشقيق البلخي، لكنّ غلاة المتصوفة يتّهمون متصوفة بغداد بالنفاق ومجاملة الفقهاء المتشددين، زاعمين أنّ قطع التجربة الصوفية أي الامتناع عن التمادي فيها حتى الوصول إلى حالة النشوة «النرفانا» يُبطلها ويُزيل قيمتها.

ومع أن بعض المتصوفة، مثل رابعة العدوية وذي النون المصري، وأبي يزيد البسطامي، أظهروا إخلاصاً شديداً في سعيهم لبلوغ الحقيقة المُطلقة، ضمن أجواء رياضاتهم «الروحية» الشاقة، إلّا أنّ ذلك كله لم يشفع لهم أمام المنطق المُتزمّت لأهل الكلام من

(1) كتابه **نحن والتراث**، دار الطليعة، بيروت.

Twitter: @ketab_n

رجال الدين، إذ استمر كبار الكلاميين والأئمة من مثل ابن الجوزي وابن تيمية يوجّهون سهام نقدهم الجارح لمسالك الصوفية وأقوالهم أثناء شطحاتهم. على أن المتصوفة المذكورين لم يتعرّضوا لنقد الكلاميين فحسب، وإنما جابههم أهل الفلسفة والعلماء بانتقاداتٍ لاذعة، ومن هؤلاء شاعر الفلاسفة أبو العلاء المعرّي الذي أحنقته الأفكار الباطنية لغُلاة الصوفية في عصره، فشنّ عليهم حملةً شعواء ومن ذلك على سبيل المثال قوله:

أرى جيل التصوف شرّ جيل
فقل لهم وأهون بالحلول
أقال الله حين عبدتموه
كلوا أكل البهائم وارقصوا لي؟

ادعى الصوفية أنهم على اتصال بالحق، فاجتذب هذا الإعلان قلوب ملايين المسحوقين من فقراء المسلمين في أيام خراب الدنيا، على أيدي متأخري السلاجقة والمغول، وعلى أيدي الصوفية، تحوّلت مقولة الإسلام (الله أحد وهو الفاعل لكل شيء) إلى مفهوم جديد يقول (ليس في الكون إلا الله). أما المعرفة فتقوم، في رأيهم، على الشعور أو الحسّ الداخلي (الحدس)، وعلى الخبرة والانفعال القلبي. ومن هنا، فهي غير قابلة للخطأ ولا للزيف ولا الافتراء!!

المعرفة بحسب هذا الرأي (جوّانية) على حدّ ما يُبشّر به متصوّفة عصرنا الحالي في أوروبا، وهذا النوع من العرفان مضادّ للمعرفة العقلية الباردة، التي يقول بها الفلاسفة والكلاميون، وأهل الدين. واضح أن المتصوفة يستندون إلى معتقد الباطنية في عصمة الولي، وعدم إمكان وقوعه في الخطأ!

Twitter: @ketab_n

إنّ قصور الفكر الصوفي وتبيان تناقضاته، هو شيء، لا تستوعبه مثل هذه الدراسة، كما أن ذلك يقع خارج اهتمامات كاتبتها، لكنّ الفصول القادمة ستُلقي أضواء كاشفة أخرى على هذه التناقضات على أية حال.

على أنّ المسألة الهامة التي تستحقّ الانتباه الشديد، أنّ المتصوفة، يتباينون جداً في آرائهم ومذاهبهم وشخصياتهم واتجاهاتهم، لا سيما في الميادين السياسية، ففي هذا الباب، تتراوح مواقفهم بين أقصى اليمين وأقصى اليسار، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن التصوّف (اتُّخذ في كثيرٍ من الأحيان، ستاراً يخفي وراءه الخارجين على السلطة، أو برقعاً يحجب أحرار الفكر عن أنظارها، إذ كان ميدان التصوّف هو الموقع الوحيد الذي يستطيع فيه المفكّرون أن يتنفسوا بحرية بعيداً عن متناول أجهزة القمع التي تمتلكها سلطات تلك العصور)[1]. من هنا، لم يعُد ممكناً إطلاق الأحكام العامة على مختلف الشخصيات الصوفية، ابن الفارض على سبيل المثال ليس رجل تصوّف وزهدٍ بقدر ما هو شاعر رومانتيكي النزعة، سعى جاهداً للبحث عن قيم جمالية جديدة في عصرٍ كان يرفض الابتكار والفردية في المذاهب الجمالية والفنية، والحلاج ليس صوفياً إلهياً بقدر ما هو داعية من دُعاة المذاهب الباطنية التي سعت لاستعادة أمجاد الشعوب الشرقية الوثنية التي قهرها المسلمون، وفتحوا بلادها بالقوة. وبالفعل، فإنّ دعوة الحلاّج لقيت صدىً حسناً حتى في قصر الخليفة المُقتدر، إذ وقفت زوجته الجارية

(1) عبد الباقي غول بنارلي.

Twitter: @ketab_n

الأعجمية تُناصر الحلاج وتؤيده، وكادت تُحدِث فتنةً كبيرة لو (لم يتدارك) وزير المقتدر مع بعض الفقهاء الأمر، ويُسرعوا بالقضاء على الحلاج بقسوة، قُصِدَ بها تأديب أنصاره، فكان (استشهاده) واحداً من أسباب انتصار المذاهب الإسماعيلية القرمطية، ممثلاً في ظهور الدولة الفاطمية في شمالي أفريقيا، ومنافستها للخلافة العباسية فترة طويلة، إلى أن استطاع صلاح الدين الأيوبي إنقاذها من الفاطميين في القرن السادس الهجري، وبذلك قُضِيَ على جذور الفكر الباطني هناك. ورابعة العدوية، اتّخذت من التصوّف سلاحاً مكّنها من عتق جسدها وتحرير نفسها من الرقّ، إذ كانت في ماضي حياتها جاريةً ضعيفةً تُباع وتُشتَرى في أسواق النخاسة والقذارة، وذو النون المصري ابن بلاد النوبة تأثّر بطقوس أهل بلده السود، فكان أول من أدخل الرقص والغناء في الطرق الصوفية، وأثارت أقواله الغريبة على آذان المسلمين نقمتهم، فوشوا به إلى الخليفة العباسي المتزمّت المتوكل، فاستقدمه من مصر إلى العراق، وهو ينوي تعذيبه، لكنه عفا عنه، في قصةٍ يرويها أنصار المتوكل، من أجل إظهاره بصورة التقيّ الورع. ولو تعمّقنا في دراسة سِيَر بقية أعلام المتصوفة، لتوصّلنا إلى نتائج عجيبة، فكثير من هؤلاء الصوفية، كانوا في واقع الأمر يتلهّفون لاكتشاف أسرار النفس الإنسانية، وقد وفّقوا في كثيرٍ من الأحيان إلى التعرّف على أغوارها وخفاياها، وكان ذلك من أسباب نجاحهم الغريب في اجتذاب المريدين والأنصار حتى بين فئات المثقفين، ناهيك عن البسطاء والسُذّج من العوام. والواقع، أن كثيراً منهم تهيّأ له الاطّلاع على (خفايا) العلوم العتيقة التي كان الكهنة في المعابد الشرقية ورجال الدين في الأديرة والكنائس

Twitter: @ketab_n

يحتكرونها لأنفسهم، فلا تقع بأيدي غيره. وممّن تنبّه إلى هذه المسألة العالم الرياضي الإنساني أبو الريحان البيروني، فهو يقصّ علينا في كتابه المهم **تحقيق ما للهند من مقولة** حكايةً وقعت له في الهند، مبيّناً كيف استطاع أن يفضح خداع كاهن بوذي، كان يقف في المعبد في الظلام، وراء تمثال «صنم» يعبده البوذيون، ويقوم سراً بتحريك يد الصنم دون علم المُصلين الهنود، فيخيل إليهم أن (معبودهم) قد استجاب لدعائهم، فرفع يده إشارةً للموافقة والقبول!!

استفاد الصوفية من علوم الهند «الروحية»، لا سيما رياضة (اليوغا) الشهيرة في عصرنا هذا، وبواسطة تلك (العلوم) اكتشفوا قدرات العقل البشري وخفاياه. فمن ذلك، فائدة الارتخاء العضلي لإزالة التوتر النفسي أو العصبي، كما عرفوا امتلاك بعض الناس لموهبة التخاطب أو (التليباثي)، وأخذوا عن الهنود طريقة الإيحاء النفسي، والتنويم المغناطيسي، واستعملوها في شفاء بعض الأمراض العقلية، علاوةً على ذلك، لم يستنكف المتصوفة من استغلال (معارف) الهنود في الشعوذة والحيل والسحر والتنجيم والتنبؤ وقراءة الطالع، وما إلى ذلك من خزعبلات ما أنزل الله بها من سلطان، فاستخدموا ذلك كله من أجل خداع البسطاء، واستجلاب الكسب، لكن هذا لا ينطبق إلا على ضعاف النفوس من مرتزقة الصوفية، ولا صلة له بعظماء المتصوفة، الذي ما فتنوا الناس إلا بسبب نقاء نفوسهم وطهر أذيالهم وإخلاصهم الشديد لبني الإنسان.

فالصوفية إذن، كانوا شخصيات متباينة، ومقاصد أشدّ تبايناً، وهم مختلفون بحسب ظروفهم وبحسب العصور التي عاشوا ضمنها، والدول التي عاصروها، وبحسب قدراتهم العقلية وخصائصهم

Twitter: @ketab_n

الجسدية والنفسية، والحركة الصوفية بحسب هذا المفهوم (شمّالة) على حدّ وصف د. علي زيعور[1] ولا يمكن حصرها، من ثم، ضمن نظرية أو مذهب واحد، لكن يمكن القول (بأنّ التصوّف كان ديناً رابعاً) أو أنه (كان ديناً قائماً بموازاة الدين الإسلامي)، ولم يكن جزءاً منه، كما يرى أغلب الباحثين في التصوف الإسلامي.

1- تأثيرات حركة الملامتية في مذهب الرومي:

بحسب عبد الباقي غول بنارلي، فإن أول رجل في الإسلام لقّب بالصوفي هو (أبو هاشم الكوفي)، المولود بالكوفة أيام كانت عاصمة للدولة الإسلامية في عصر الراشدين، لكن الباحثين العرب القدامى، مهما أجهدوا أنفسهم لإرجاع لفظة (الصوفي) إلى أصول عربية، فإنّ جهدهم يظل متّصفاً بطابع التكلّف والتمحّل، ذلك أن أية مراجعة للغة الإغريقية كفيلة بأن توضح الأصل الحقيقي لهذه اللفظة، ففي الإغريقية توجد لفظة Sofos وتعني الحكيم، ومنها أخذ العرب لفظة فيلسوف، كما أخذوا لفظة (سفسطائي) وتعني المغالط والفيلسوف أيضاً، وكذلك فعلت اللغات الأوروبية جميعاً، ففي الإنجليزية توجد كلمة Sophist وتعني المعلم السفسطائي والمغالط، ولفظة Sophistry وتعني السفسطة أو المغالطة، والألفاظ ذاتها تتكرَّر في جميع اللغات الأوروبية أيضاً، لأنها مشتقة من المنبع ذاته.

من ناحية أخرى، فإن أيّة دراسة للتصوف، يمكنها أن تؤكِّد الصلة الوثيقة بين المتصوفة المسلمين، والسفسطائيين اليونان!

---

(1) د. علي زيعور، مثال: رافعات وتجريحات التصوف في الذات العربية.

Twitter: @ketab_n

فالصوفي، مثل السفسطائي، لا ينفكّ يطوف البلدان لتعليم الحكمة وبثّ المبادئ الأخلاقية، وكلاهما يستخدم من أجل تحقيق هذه الأهداف سبيل الإقناع والتأثير، من طريق المُناظرة والحوار حيناً، والخطبة والتدريس حيناً آخر. ومن مهمات الرجلين: تنمية سُبُل الوعي والفهم والمحاكمات العقلية المنطقية، وتدريب الناس على النقد، وعدم القبول بمظاهر الأشياء، والبحث عن الخفايا التي لا تبدو على السطح، كل هذه الاهتمامات تتجاوز رداء الصوف أو المسوغ الخشن الذي أصرّ بعض اللغويين العرب على نسبة (المتصوف) إليه. ومع ذلك، فإن علماء اللغة العرب تردَّدوا في هذه النسبة، فجار الله الزمخشري في **أساس البلاغة** يقول في باب (ص و ف) (إن آل صوفان كانوا يخدمون الكعبة ويتنسّكون، ولعلّ الصوفية نُسبوا إليهم تشبهاً بهم في النسك والتعبُّد، أو لعلهم نُسبوا إلى الصوف وهو لباس أهل الصوامع)، ألا تثير هذه الملاحظة شكاً كبيراً في أنّ آل صوفان هؤلاء نسبوا أنفسهم أيضاً إلى السفسطائية؟ ونحن نعلم أن (الأصنام) التي كانت تُعبد عند العرب، إنما تُصنع في بلدان الروم على الأغلب، ومن يخدم الأصنام، لا بد أن يكون ذا صلة بكبار صانعي الأصنام أو (التماثيل) في تلك العصور، وهم اليونان والروم القريبون من العرب، لأنهم يحكمون بلاد العرب يومئذٍ (أعني قبل الإسلام).

والواقع، أن العرب لا تنسب إلى أصناف الأقمشة إلّا في حالة التجارة والبيع وما أشبه، فتقول: رجل حريري؛ أي يبيع الحرير، أو إذا أرادت أن تُبيّن جنس القماش، فتقول: قطني أو صوفي أو كتاني... إلخ. ولا أحد يصف الرجل الذي يفضِّل ارتداء الملابس

Twitter: @ketab_n

القطنية مثلاً بأنه قطني، أو أنه كتاني، أو صوفي! ولماذا كلّ هذا التكلُّف والتصنُّع واللفظة حاضرة بكلّ مشتقاتها واستعمالاتها المُنوّعة في اللغة الإغريقية التي أخذ عنها العرب في عصور حضارتهم عشرات الألفاظ والمصطلحات دونما أيّ شعور بالحرج، كما يفعل جميع البشر اليوم، حين يأخذون المصطلحات الشهيرة دون أي تحرّج، فمن الفضول أن نُطالب الإنسان العادي في أي مكان أن يترك كلمة (تلفون) ليقول: هاتف، أو كلمة (راديو) ليقول مذياع، وأمثال هذه الألفاظ التي تستعملها البشرية على نطاق العالم كله. التعريب لا يعني هذا مطلقاً. فحتى القرآن الكريم استعمل عشرات الكلمات غير العربية، ومن يقرأ أدبنا العربي القديم وتاريخنا الإسلامي، فسوف يجد آلاف الألفاظ الأعجمية المُستعملة عالمياً يومئذٍ، موجودةً على حالها، أو مُحرّفةً قليلاً. فالعرب استعملت لفظة (اصطرلاب) ولفظة (بستان) و(بنفسج) و(بيمارستان) و(جوسق) و(جوهر) و(الجوظ) و(الجورب) و(الجاموس) و(الجوشن) و(ديباج) و(ديوان) و(دكان) و(درهم) و(دورق) و(دانق) و(دمقس) و(دست) و(دهقان) و(الدرفس) و(رستاق) و(زنبق) و(زاج) و(زنجبيل) و(سجبخل) و(سلحفاة) و(سرداب) و(شطرنج) و(شاهين) و(طومار) و(طاق) و(طنبور) و(طلسم) و(فسطاط) و(فالوذق) و(فهرست) و(فذلكة) و(قهرمان) و(قمقم) و(قانون) و(كيمياء) و(كافور) و(لاهوت) و(هزار) و(هيكل) و(ياسمين)، ومئات بل آلاف أخرى من الألفاظ الأعجمية ببساطة طرحت للنقاش على مستوى العالم العربي كله، والمجامع العلمية وحدها تعجز حالياً عن إيجاد الحلول الفعّالة المؤثرة، كما عجزت في الماضي، رغم المنافع العظمى لهذه

Twitter: @ketab_n

المجاميع، ورغم الجهود المُضنية التي يبذلها أعضاؤها الأفاضل، من أجل الوصول إلى الحلول المناسبة.

من ناحيةٍ أخرى، فإنّ الصوف لم يكن دوماً قماشاً للمسوح الذي يرتديه الصوفي!! وكثير من المتصوّفة يُميّزون أنفسهم بالقلنسوة التي يضعونها فوق رؤوسهم، بشكلها أو بلونها. والملامتية رفضوا أن يُميّزوا أنفسهم من الناس، بأي مظهرٍ خارجي، وهناك طائفة (القِزِل باش لي) أي ذوي الرؤوس الحمر، وهم فئة صوفية ميّزوا أنفسهم بغطاء الرأس الأحمر اللون، وانتشروا في الأناضول، أما جلال الدين الرومي نفسه، فإنه لم يتقيّد بأي ملبسٍ خاص، لكنه حين تعرّف بشمس راح يضع القلنسوة فوق رأسه مثل صاحبه.

يُميّز الصوفي المعروف عبد الرحمن السلمي (ت 412هـ) بين المتصوفة والشطار؛ فالصوفي لا بد له أن ينتسب إلى شيخ يُرشده إلى الطريق، ولا بدّ له من لباسٍ خاص، واحتفالاتٍ ذات طقوسٍ محددة، يكرّرون فيها أسماء الله «الذكر»، ولا بدّ لهم من تكايا أو خانقانات يجتمعون فيها، ويتدرّبون على السلوك تحت إشراف شيوخهم... إلخ.

أما الشطّار، فلا صلة لهم بهذا كله! وليس هناك شيء مظهري أو سلوكي يُميّزهم عن غيرهم من البشر، وإنّما هم أشخاص انطلقوا من مفاهيم عاطفية وجدانية فحسب، إذ لا همّ لهم غير الاستغراق في العشق والوجد والارتقاء في هذه المراتب، من أجل الوصول إلى حالة الاتحاد بحسب طرقهم ومصطلحاتهم.

تشكّلت النقابات «الأصناف» في المجتمع الإسلامي أثناء القرن

Twitter: @ketab_n

الثاني للهجرة، وطغت عليها صبغة صوفية واضحة، وأُطلِق على أعضائها اسم الفتيان، أو (الآهي لر) فيما بعد عند الأتراك، وضمن هؤلاء، نجد مختلف الصُنّاع والحرفيين والفنانين، وهلم جراً. هذه الطبقة من أهل الحرف، كانت مرتبطة بوشائج بعيدة تعود إلى العهد الساساني في إيران، فلا عجب أن تظهر في مؤسسات الفتوة الإسلامية معتقدات فارسية عتيقة، كان من أهمها مذهب الملامة. إن الملامتية فئة تتظاهر بتحقير نفسها، وأعضاؤها لا ينفكّون يُوبّخون أنفسهم ويلومونها، ويعمدون إلى اقتراف أعمالٍ مُثيرةٍ للاستنكار والاشمئزاز، مما يعود بالذاكرة إلى مسالك بعض طوائف البوذية من جهة، ومفاهيم المذهب الكلبي (Cynicism) من جهةٍ أخرى.

لكنّ أهل الملامة والفتوة خالفوا المتصوفة، في أنهم لم ينسحبوا من الدنيا، بل على الضدّ من ذلك، ارتبطوا بالمجتمع أشدّ ارتباط، وفي القرن السادس الهجري (12 ميلادي) تغلغلت في نظامهم عناصر باطنية، وانقسموا إلى فئاتٍ وطوائف مُتباينة مختلفة، فكان منهم الدراويش القلندرية، والبكتاشيون نسبةً إلى الحاج (بكتاش ولي)، وطائفة الحيدرية، الذين ألّف بينهم الشاعر فريد الدين العطّار رسالته المُسمّاة (حيدري تامة)، وهناك الشيوخ الأبدال الذين ظهروا كدراويش مُتجوّلين منذ القرن السابع للهجرة. . . إلخ.

من ناحيةٍ أخرى، فإنّ ارتفاع شأن التصوّف منذ القرن السادس الهجري أدى إلى امتزاج المتصوّفة بطبقة الصفوة وأهل السلطان والنفوذ في المجتمع، وتهيّأ للصوفية التنعّم بضروب الترف والرفاه، بعد أن تناثرت الأموال والهدايا عليهم من كلّ جانب، وصار لهم في الأوقاف حصص كبيرة، فتهيّأ لشعائرهم وطقوسهم الازدهار

Twitter: @ketab_n

والانتشار بين مختلف طبقات الشعب، لا سيما الرقص والموسيقى. وبهذا، أصبح المتصوّفة أشبه بطائفةٍ مستقلةٍ منفصلة عن المجموعة، وشرعوا ينظرون إلى عامة الناس نظرة ترفُّع وازدراء، مُستندين إلى أفكار الإسماعيلية الشائعة يومئذٍ، وأطلقوا على الكُتل الشعبية الضخمة ألقاب التحقير، مثل: الطغام، والعميان، وأهل الغفلة والجهالة، بل وصل الأمر بهم إلى تلقيب العامة بالحمير والبقر، في حين لقّب المتصوفة أنفسهم بالعارفين وأهل الله وشيوخ الطريقة الإلهية... إلخ.

غير أن الأمور لم تقف عند هذا الحدّ، ذلك أن الفئات الانتهازية وجدت في التصوّف فرصةً نادرةً تخفي بواسطتها أغراضها ومطامعها، فارتدى زي التصوف كثير من طُلاّب المال والنفوذ، وأصحاب المطامع الضيّقة، وأهل الشذوذ الخُلُقي، واللصوص، والشحاذين، والمجاذيب، وحُثالات المجتمع، ممّا أساء إلى الحركة الصوفية، وساهم في زيادة التصدّعات والانشقاقات بين أجنحتها.

كان ظهور طائفة الملامتية بمثابة ردّ فعلٍ قوي ضدّ انحراف المتصوفة عن مسالكهم الوَرِعة القديمة، وكانت دعوة أهل الملامة مُوجّهة ضد نفاق أغلب المتصوفة طلباً للمكاسب والمغانم، وأعلنوا أن المُتديّن الحق في غير حاجةٍ إلى التظاهر أمام الناس بالتقوى والزهد، فالدين لله، وهو أعلم بنوايا الناس، وقالوا إن الإنسان لا يكون إنساناً إلا بالتواضع وإخفاء الفضل، وليس العكس. ولم يكتفوا بهذا، بل زادوا عليه بأن راحوا يتباهون باقتراف المُنكرات كشرب الخمر علناً، وغير ذلك من الأعمال التي كانت وقتئذٍ ممنوعةً أشدّ المنع. على أنّ تحقير الملامتي لنفسه استدعى تسامحه الشديد

Twitter: @ketab_n

مع الآخرين، فكان يتحمّل بالصبر أذيّتهم وازدرائهم له، ويعُدّ ذلك قربى لله. ومن أشهر أقوال الملامتية ما يلي: (الإنسان أشبه ما يكون بالماء، لأنه يأخذ شكل الإناء الذي يُصبُّ فيه).

كيف واجهت عامة الناس شذوذ الملامتية وغرائب أفعالها؟

من أعجب العجب أن هؤلاء الدراويش الشاذّين، أصبحوا، في نظر العامة من المسلمين، أصحاب كشوفات إلهية، ومقاماتٍ ربّانية، ثم إنهم أطلقوا عليهم لقب الشُطار؛ أي أهل المرح والطرب، وصار لهم بين الناس شعبية قوية، فحيثما ظهر واحدٌ منهم، احتشدت حوله طوائف من البشر يتبرّكون بلمس ثيابه وتقبيل أطرافه، وحمله على الأكتاف، يطوفون به البلاد والآفاق!! وكذلك اختلطت المقاييس وضاعت الحقيقة.

بحسب الدارسين المعاصرين، وفي مقدمتهم عبد الباقي غول بنارلي، وبندلي جوزى، وبرنارد لويس... إلخ، تميّز أهل الفتوة وأهل الملامة والشُطار والآهي لر، بالزهد الحقيقي «غير المُزيّف»، والإخلاص في العمل، والشهامة في المسلك إزاء الناس، والرغبة العميقة في مدّ يد العون للمُحتاجين وأهل السبيل والمساكين والنساء الفقيرات، دون أي تمييز عرقي أو طبقي، وكانوا فيما بينهم مُتعاونين متعاضدين، يتقاسمون الأموال والأطعمة والمتاع بالعدل والإنصاف، بقلوبٍ صافيةٍ خاليةٍ من الغلّ والحسد والتنافس والطمع. ومن خصائصهم الأخرى أنهم رفضوا بإباءٍ شديد تقبُّل مال الأوقاف، مُفضّلين كسب الرزق بعرق الجبين، من طريق الحرفة والصناعة والتجارة وحتى الزراعة. وكانت طائفةٌ منهم تُشارك في الخدمة

Twitter: @ketab_n

العسكرية، وتُساهم في الحروب، ويتجوّل أفرادها بين البلدان الإسلامية في زيّ العسكر.

عند هذا، يمكننا أن نتفهّم بشكلٍ أفضل الأسباب الحقيقة التي دفعت الخليفة الناصر لدين الله أن يُعلن نفسه رئيساً أعلى لمؤسسة (الفتوة) في الدار الإسلامية. ومن المعروف أن نفوذ الفتوة ظلّ يزداد في القرنين التاليين، إذ اكتسبوا ثقة الجماهير الشعبية الواسعة، ومما يؤكّد هذا، إشادة الرحالة ابن بطوطة في كتاب رحلاته الشهير، بطائفة الأصناف هؤلاء، وإعجابه الشديد بشمائلهم الحميدة، واعترف بأنه لم يشهد لها مثيلاً في أي طرف من أطراف العالم الإسلامي، عدا بلاد الأناضول. وكان أغلب (الآهي لر) في الأناضول على الطريقة البكتاشية. وحين استقرّ الأمر للدولة العثمانية في القرن التاسع الهجري، كوّنوا فرقة الانكشارية من هؤلاء الأصناف، الآهي لر، وكان منهم على الأخص معظم السيافين. وفي القرن التاسع عشر، تنبّه الشاعر الإنجليزي الرومانتيكي (بيرون) إلى شجاعة الانكشارية حين زار (ألبانيا) التي كانت عندئذٍ من ملحقات الدولة العثمانية، وأثنى على قدراتهم الحربية الخارقة. ولم ينته دور الفرقة الانكشارية والطوائف البكتاشية والمولويّة إلا بقيام الجمهورية التركية الحديثة بقيادة كمال أتاتورك.

إنّ جميع خصائص الملامتية والدراويش والآهي لر المذكورة تثبت بشكلٍ لا يقبل الشكّ أن جلال الدين الرومي كان منهم، أو على الأقل كان يتعاطف معهم أشدّ التعاطف، وقد رأينا في فصلٍ سابق أن (الآهي) حسام الدين جلبي كان أحبّ مريديه إلى قلبه لأنه هو الذي كتب له المثنوي بكامله.

Twitter: @ketab_n

2- صحبة الرومي لشمس التبريزي:

في الفصول السابقة، رأينا ما كان لشمس التبريزي من أثرٍ عميقٍ في الانقلاب الروحي الذي طرأ على جلال الدين الرومي، والحقّ أن شمس الدين يبدو للعين المتفحّصة المدققة شخصيةً أسطورية، ربّما ابتدعها الخيال. فمن يوم دخول (شمس) إلى قونيا حتى ليلة مقتله، تكاد الأمور كلّها تشير إلى أنّ هذه الشخصية كانت مجرد رمزٍ أراد به الرومي تجسيد المثل العليا التي سعى وشاء تحقيقها أثناء حياته، والتمس من مريديه الإيمان بها والعمل بمقتضاها.

وممّا يؤكد هذا الظنّ، الجو الضبابي الغامض، والأحداث الغريبة التي وقعت لشمس، والأشعار العاطفية المُلتهبة التي كتبها الرومي بعد اللقاء، وغير ذلك من الأشياء التي لا يمكن تفسيرها إلا إذا وضعنا الحكاية في خانة الأوهام والتخيّلات، وعددنا الموضوع كله، قصّةً أدبيةً مؤثرة، كُتبت بعد وفاة الرومي من أجل تلوين سيرته وتجميلها. ومن الأمور التي تؤيد شكوك الدارسين اسم (شمس) ولقبه. ذلك أنّ الشمس لدى المانويين هي آلهة الخير والنور، وقد بيّنا في فصولٍ سابقة مدى تأثير المانوية في مناطق المشرق الآسيوي الأقصى وفي خراسان بشكلٍ خاص، حتى بعد الإسلام. ثم إن الشمس بلون الذهب، والتبريز من أوصاف الذهب، وحرارة وجد العُشّاق كثيراً ما شُبّهت في الآداب القديمة بلهب الشمس ونارها، وأهم من كل ذلك، أن السهروردي المقتيل عرف عنه القول (أنا الشمس)، والرومي ينتسب إلى السهروردي في مذهبه الصوفي.

على أنّ العلامة عبد الباقي غول بنارلي يردُّ على جميع هذه الشكوك ويدحضها بإيراد إثباتاتٍ تؤكّد واقعية شمس الدين، وأول

Twitter: @ketab_n

هذه الإثباتات كتاب **المقالات** لشمس، وقد جمع أقواله أحد مُريديه أثناء وجوده في قونيا، وفي هذا الكتاب دلائل تُشير إلى أنّ المُتكلم هو شخص محدّد له آراء معينة مُتجانسة فيما بينها، وثاني الأدلة: قلنسوة (شمس) الموجودة حتى اليوم في متحف قونيا، وثالثها: القبر الذي عثر عليه (محمد أوندر) مدير متحف قونيا الذي يضمّ مخلّفات الرومي إذ وجد القبر مخفياً بعناية في قعر جبٍّ بقونيا، وتعرف عبد الباقي غولي بنارلي بنفسه على الضريح الذي كانت له أوصاف مطابقة تماماً لما ورد في كُتُب **المناقب** عنه، ورابعها التباين والاختلاف التام ما بين شخصيتي الرومي وشمس الدين، وتضارب آرائهما أحياناً، ممّا يؤكد استقلال الشخصيتين عن بعضهما، وبذلك تنتفي فكرة أسطورية قصة شمس الدين وتتأكد واقعيتها.

على أية حال، فمن الواجب ألا ننسى أن الغموض هو أحد خصائص كتب المناقب القديمة، ومن أسباب هذا الغموض، الهالة الدينية التقديسية التي يُصرّ المريدون على إضفائها على شيوخهم بأيّ ثمن، فهؤلاء المريدون، لم ينظروا إلى شيوخهم نظرة التلميذ إلى أستاذه، وإنّما نظرة العابد إلى إلهه، وهذا هو التفسير المعقول لتلك الأجواء السماوية الشفافة التي يُحاط بها أبطال تلك الحكايات.

أول ما يلفت النظر في آراء شمس الدين، غرابتها الشديدة، ونبرة التمرّد الطاغية عليها جميعاً، فهو يبدأ برفض فكرة الاتّباع والتقليد، ويُعلن أنه شخصية مستقلة حرة، وأنه ابن وقته، لأنّ الصوفي يرى الله بقلبه، وينقل عنه مباشرةً، أي بدون أية وساطة، فهو من ثمّ غير محتاجٍ إلى مروياتٍ أو مسموعاتٍ عن القدماء! يقول:

Twitter: @ketab_n

(في المنام، تراءى لي رسول الله وألبسني المسوح بيده الطاهرة، لكن هذا المسوح ليس من قماشٍ قابلٍ للتمزّق والتهرّي، وإنما هو مسوح الصحبة، والصحبة لا تاريخ لها إذ هي غير ناشئةٍ عن لحظةٍ ماضيةٍ ولا ساعةٍ مستقبلة. إذ ما صلة العشق بالأمس أو الغد؟).

هكذا، يتعهّد شمس الدين التبريزي بألاّ يتّبع إلا طريق الله الذي يهديه إليه قلبه دون حاجةٍ إلى المنقول من أقوال الصحابة والتابعين، إذ إن الله، بحسب نظرية وحدة الوجود، يتجلّى في كل شيء، من حيٍّ ومن جامد، وقلب العارف هو أنقى موضع لهذا التجلّي.

وفي كتاب **مقالات شمس** تتردّد كثير من الآراء المُتّسمة بأشد الغلوّ والجسارة غير المعهودة في مجتمعات القرون الوسطى، لكنها كانت في الواقع تُمثّل آراء أهل الملامة.

نقتبس فيما يأتي بعض آراء شمس الدين التي تُمثّل شخصيته الحقيقية:

1- إلهنا حي وماذا نصنع بإلهٍ ميت؟

2- الناس لا همّ لهم غير الاستئثار بمُتع الحياة واكتساب المال عن كل طريق، وقلوبهم الفاسدة، لو تُرِكت لحالها لغَفِلت عن ذكر الله والاستغراق في عبادته. هذا هو السبب في الفروض الدينية التي شرعها الأنبياء من صلاةٍ وصومٍ وحجٍ وزكاة... إلخ، وإلاّ فقل لي ما صلة جوع المعدة بعبادتك لله؟

إنّ العارف غير مُحتاجٍ إلى واسطة تُعينه على الاستغراق في العبادة، وعليه فإنه مستغنٍ عن أداء فروض الدين ويمكنه تجاوزها إذا شاء! أما أولئك الشيوخ المتظاهرون بالورع والتقوى فما هم إلا لصوص دين محمد وقطّاع طرقه!!

Twitter: @ketab_n

3- أنت تُعلن بأنّ عُباد الحجر والصنم أشرار، فلماذا إذن تتوجّه نحو الحجر وتجعله قبلتك في الصلاة لله؟

4- كان من عادة الرسول أن يُجيب عن أسئلة المسلمين بحسب الظروف والأحوال، هكذا نفعل نحن أيضاً!

5- خلاصة جميع وصايا الأنبياء: ابحث عن مرآة لنفسك، وما المرآة إلا لله!

6- لو نطقت بالصدق وقلت الحقيقة لطردوني من جميع البلدان ولأقفلوا دوني جميع الأبواب!

7- اختلاف أصحاب العقائد وتعارض أقوالهم لا سبب له غير عجز اللسان وتهافت اللغات.

8- لو كان للبشر أرواح، ما رأوا المال أثمن من أرواحهم!

9- أليس الزنديق أشرف من المتظاهرين كذباً بالإيمان والتقوى؟

10- رجل الله هو الذي يحرص على تقديم الجواب الشافي حتى للكلب المار أمام الدار.

واضح من جرأة هذه الآراء، أنّ شمس التبريزي لم يكن يحسب حساباً للفقهاء، وذلك بسبب وجود دولة وثنية على دست الحكم في تلك الفترة، ونعني بها الدولة المغولية التي لم تكن قد دخلت في الإسلام بعد!

ومع هذا، فإن شمس التبريزي لم يكن من الزنادقة، ولا من ضعيفي الإيمان، إذ يؤكد جميع الدارسين أنه كان مواظباً على أداء الفروض الدينية بانتظام، لا سيما الصوم الذي كان يعدّه جوهر

Twitter: @ketab_n

العقيدة الصوفية، وكان يطرّز كلامه ومواعظه بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، لكنّه تميّز عن علماء الدين، بكراهيته الشديدة للجمود، والتقليد، والخمول، والاتباعية، وتصديق كل ما يُنسب إلى القدماء، مهما كان لا يتلاءم مع العقل، يقول في هذا:

1- أبناء عصرنا يفترون على النبي محمد، بل على الله نفسه، فلا ترو أحاديث لا تعرفها!

2- لا أكذب عليكم نحن نرفض أن نكون في دين محمد من المُقلّدين!

3- أنا في ارتقاءٍ مستمر، فانظر إليّ كإنسانٍ مُتجدّدِ نضر، وأنت مثلي في هذا، فإذا أحسست بالركود وخمول الذهن، فعليك أن تسأل لماذا؟

والواقع، أن أية مراجعة تدقيقية لأقوال شمس ولآرائه، لا بد أن تُقنعنا بأنه كان مفكراً متجاوزاً لمستوى عقول أهل عصره، بل إنه ليبدو وفي كثير من الأحيان، وكأنه من أبناء القرن العشرين. ومن أهم أسباب ذلك، ثقافته الواسعة العميقة الناتجة من طوافه بين مختلف أطراف العالم الإسلامي، واختلاطه بمختلف أصناف البشر، واطّلاعه على شتّى أنواع العلوم، حتى أن الرومي لم يملك إلا أن يُعلن دهشته وإعجابه الشديدين بتلك الثقافة، بل إنه وصفه بالعالِم الذي قلّ أن تجود بمثله العصور.

فيما يلي، أنقل بعض أقوال (شمس) التي تُثبت ذلك كله:

1- على الإنسان أن يتكلّم بحسب مستوى عقول المستمعين إليه.

2- الفرق بيننا وبين أهل السلطان أنّ ظاهرنا وباطننا واحد!

Twitter: @ketab_n

3- الكلام ينبغي أن يؤدي إلى العمل، أما العمل ففي غير حاجةٍ إلى الكلام!

4- بأي ماء يمكن تطهير أدران النفس اللهم إلا بماء المدامع؟!

5- إذا تقضي وقتك في العلم المُجدي، فمن الخطأ أن تعدّه قد مضى وتتأسّف عليه.

6- عندما يحين أوان تفتّح الزهرة، فلن يقف في وجهها أيّ عاشق.

7- كان الصوفي أبو الحسن الحرقاني[1] ينكر قولهم (السلطان ظلُّ الله في أرضه) ولا يوافق عليه.

8- الإيمان والحب يجعلان الإنسان بطلاً، إذ يصرفان عن قلبه جميع المخاوف.

9- أضعف الناس ذلك المشغول المُنهمك بتحقيق نزواته الآنية!

10- في المدرسة لا يهتم الطلاب إلا بالوسائل التي توصلهم إلى بلوغ أعلى المناصب في الدولة. والحال أن طالب العلم محتاج أن يسأل دائماً:

من أنا؟ من أين جئت؟ إلى أين أسير؟ لماذا؟ كيف؟ . . . إلخ.

---

(1) أبو الحسن علي الخرقاني (351-425هـ): ولد في قرية اسمها خرقان، من قرى بلدة بسطام الإيرانية، من أسرة ريفية فقيرة، اقتصر تحصيله على قراءة القرآن، لكنه حصل على شهرة عظيمة في عالم التصوف، حتى بلغت أسماع أكبر سلاطين العصر محمود الغزنوي، كما كانت شهرة الخرقاني سبباً لاتصاله بأكبر فلاسفة ذلك العهد الشيخ الرئيس ابن سينا.

Twitter: @ketab_n

11- لا يستطيع أحد الصبر على الإصغاء إلى ما يدور في مجالس العلماء إلا إذا كان مستصغراً للمتع الدنيوية.

12- أحبّ كثيراً من العظماء، من أعماق قلبي، لكني لا أستطيع التصريح لهم بذلك!

13- طريق التصوّف سبيلُ كسيري القلوب، المشيحين عن العداوات والأحقاد.

14- الفيلسوف الحق هو أفلاطون، أما ابن سينا فمفكّر شبيه بالفيلسوف.

15- المغفلون والعوام لا يرضيهم إلا أحاديث الملق والرياء، ولا يتبّسطون في الكلام إلا مع ذي الوجهين، ولو تجاسرت على قول الحقيقة أمامهم فسوف يتأففون ويتضجرون منك، هذا إذا لم يوقعوك في مهالك تقصم ظهرك!

16- أحدهم قال لي: ألا تأتي إلى التكية؟ قلت: لا أجد نفسي منسجماً مع ساكني التكايا، لأن هؤلاء يكرهون الكدّ والعمل وينفرون من دخول التجارب الجديدة، وأنا لست من هؤلاء، بل أنا على الضدّ منهم جميعاً، قال: طيب لماذا لا تحضر إلى المدرسة؟ قلت: هناك أحتاج إلى النقاش والجدال، لكني لو قلت ما أعتقده لأساءوا فيهم أقوالي، واتّهموني بالكفر، لأن أحاديثي تبدو غريبةً جداً على آذانهم. ما أنت إلا غريب ومكان الغريب النزل! (يقصد أنه مضطر إلى السفر والتغرّب أبداً).

17- قالوا: إنّ النجاة في الصدق، لكنك لا تستطيع أن تقول الصدق للناس لأنهم يُفضّلون الكذب!

Twitter: @ketab_n

18- لا تيأس أبداً، فبعد ظلام الليل تُشرق الشمس.

19- لا تخشَ السلطان إلا حين يُغدق نعمه عليك!!

تؤكد آراء شمس الدين المذكورة عدة حقائق، فمن ناحية، يمكن القول إنه كان من الناحية الأيديولوجية، على الأقل، منتمياً إلى الطائفة الإسماعيلية، وبما أن حسن بن الصباح زعيم الإسماعيلية وصاحب قلعة (الموت) يُعَدُّ ضمن قائمة أجداد (شمس)، فإنّ صلة هذا بالإسماعيلية صلة دم أيضاً، أعني صلة قرابة، وربما يعطينا هذا تفسيراً حاسماً لحذره الدائم من الأرصاد، وإصراره على الطواف في الأرض وعدم الاستقرار. ومن يدري، فربما كان مقتله نتيجة هذه القرابة بالفعل. ومن ناحيةٍ أخرى، فإنّ شمس التبريزي في مسلكه كان ملامتياً ودرويشاً، يؤمن بالحرية الفردية، ويرفض الذوبان في الجماعة، والدخول في طاعة أيّ حزب سياسي أو قوة دينية معينة. ومن أهم الأدلة على انتماء (شمس) إلى الفكر الإسماعيلي إصراره على التأويل للسنة والشريعة ورفضه (للظاهر).

مثل السيد المسيح، اعتقد شمس التبريزي أنّ الحب هو أفضل الوسائل المُتيسّرة للمعلم الذي يسعى إلى إصلاح المجتمعات، هذه الدعوة إلى الحب ذات صلة بالفلسفة الأفلاطونية الجديدة كما هو معلوم. يقول (شمس): (أنا أسعى إلى تحويل غير الممكن «المستحيل» إلى ممكن! ومثلما استطاع المسيح إعادة البصر إلى العميان أحاول معالجة علل النفوس وأمراضها من طريق المحبة. ذلك أنّ المحبة كانت طريقة السيد المسيح).

يرى الفيلسوف (هيغل) أن النبي عيسى حين بشّر بالحب وسيلةً

Twitter: @ketab_n

لتطهير النفوس، وإصلاح المجتمعات، فإنما أراد في واقع الأمر، إلغاء علاقة الأسياد بالعبيد، أي طالب بالمساواة بين البشر، ولذلك كانت دعوته موجّهة إلى الأفراد. كان همُّه «إقناع» كل شخص بأنه إنسان قبل أن يكون سيداً مالكاً. فدعوته بهذا المعنى إنسانية، حاولت تجاوز العلاقات الإقطاعية الاقتصادية، لكن على المستوى النظري والفردي، فحسب، شأنها شأن كل فلسفة مثالية. وذلك هو مذهب شمس التبريزي أيضاً.

لكن هيغل يُواصل تحليل المسيحية، فيقول (طالَبَ المسيح أتباعه بأن يُحبُّوه فوق ما يُحبّون أبناءهم وآباءهم وأقرباءهم، وبهذا فإنه دعا في الحقيقة إلى تأليهه، وهو ما وقع بالفعل، إذ تحوّل المسيح في الكاثوليكية إلى إلهٍ معبود).

شبيهٌ بهذا ما وقع لأولياء أو شيوخ الصوفية الغلاة، فقد تحوّلوا بنظر مريديهم إلى كائنات قدسية منزّهة عن الأخطاء والذنوب. وما ساعد على انتشار هذا المُعتقد وتقبُّل الناس، خصوصاً الكتل الشعبية الضخمة له، سيادة الأفكار الإسماعيلية وتأويلاتهم الباطنية في العالم الإسلامي منذ قيام الدولة الفاطمية.

التقى سبيلا الرومي وشمس الدين عند قضية بدت في أعينهما عاجلة وغير قابلة للتأجيل، ألا وهي **ضرورة تغيير نفوس الناس وصياغتها صياغةً جديدة، تتّسم بالنزعة الإنسانية الخيِّرة الإيجابية**، وخُيِّلَ لهما أن الحب هو المعجزة التي ستحقق هدفهما المشترك، على أن (الحب) في مذهبهما لم يكن مجرد كلمة وعظ جوفاء، بلا صدىً أو تأثير، وإنما اتّضح لهما أن الفن هو أقرب السبل التي يمكن أن توصل المريد إلى حالة (العشق الإلهي) المنشود، فبلوغ

Twitter: @ketab_n

حالة العشق إنما يتم من طريق الشغف **بالموسيقى والأنغام والإيقاعات والرقص**.

لكن تحقيق هذه الأهداف ما كان يمكن أن يحصل قبل إزالة عقبة كأداء تقف معترضةً في الطريق، متمثّلةً في الفكرة السائدة بين الأوساط الشعبية وقتئذٍ، في أن الفنون تُناقض القيم الأخلاقية الإسلامية، ومن الواضح أن هذه الفكرة نتجت أساساً بسبب انتشار المباذل المضادة للأخلاق في قصور أغلب الخلفاء والسلاطين وأتباعهم (من طريق استخدام القيان والراقصين لتسلية أولئك المتبطرين وتمضية أوقاتهم الطويلة الفارغة اللاهية)، باستثناء فترة الحكم الراشدي، لكن العامة لا تعلم ولا تتخيل أن فنّ الغناء، بشكلٍ خاص، ازدهر أشد الازدهار في عصر الراشدين، وأوائل العصر الأموي، والمصنفات المبكرة للتاريخ الإسلامي توضّح هذا أوضح توضيح، وكتاب **الأغاني** العظيم الصادر في أوائل القرن الرابع الهجري ما كان ليظهر أصلاً لولا ازدهار الغناء في العهود الأولى للإسلام، ولو راجعنا تواريخ الفتاوى المعادية للغناء والرقص، التي أصدرها متشدِّدو فقهاء المسلمين لوجدناها مواتيةً لعهود أشدّ السلاطين ظلماً وأبعدهم عن الالتزام بالقيم الأخلاقية الإسلامية، بل أكثرهم انغماساً في الملاهي التي ينهى عنها الأتقياء الحقيقيون. كانت تلك الفتاوى إذن ردود فعلٍ لما يجري في القصور والبلاطات، أي أنها نتاج مجتمعات لا صلة لها بالقيم الأخلاقية أَصلاً.

وليس من حاجة للتأكيد على أنّ الفن في أساسه حاجة سايكولوجية أصيلة عند الإنسان، بل حتى لدى الحيوان، وحتى الأشجار، كما اكتشف العلم الحديث، البلبل يتوق إلى التغريد مثلما

Twitter: @ketab_n

يبحث عن الطعام، والبدائي يرقص ليسدّ حاجاتٍ متنوعة كثيرة، ووجدت على جدران أقدم كهوف البشر- أجمل الصور وأشدّها تأثيراً في النفس، الطفل لا ينام أحياناً إلا إذا هدهده إنسان بالغناء العذب والمجنون المُتهيّج لا تتم تهدئته إلّا بموسيقى ناعمة أو صوت شجي، والأمثلة كثيرة لا تُحصى، فالفن لم يكن ولن يكون ضد القيم الاجتماعية أو الأخلاقية، لكنه قد يتحوّل إلى سلاح مضاد للمجتمع وقيمه إذا سفّ وانحدر وأسيء استخدامه، وذلك حين توجد قوى معادية لها مصلحة في ذلك الانحطاط، وما أوسع الفرق بين المعنيين!

كانت الفنون دائماً من أفضل الوسائل لتطهير النفوس وإرهاف المشاعر، بل حتى شحذ الذكاء وتنمية القدرات العقلية، وقد استخدمت الكنائس والكاتدرائيات المسيحية الموسيقى الكلاسيكية في إيصال عقائدها الدينية إلى نفوس روّادها، فكان ذلك مدعاة لنبوغ أعظم الموسيقيين في الغرب، من مثل باخ وهايدن... إلخ، كما أنها لم تكُفّ عن الاستفادة من عباقرة النّحاتين والرسامين في تزيين جُدرانها وسقوفها بأروع آثارهم، ولا تزال إيطاليا مثلاً حتى اليوم تُباهي بمنحوتات ورسوم مايكل أنجلو وليوناردو دافنشي وروفائيل... إلخ.

على أن المسيحية لم تكن بِدعاً بين الأديان في الاستفادة والانتفاع بالفن لدعم العقيدة، فقد سبقها الإغريق في هذا، حتى ملأوا أرجاء العالم بأروع نماذج فن النحت والعمارة في تخليد آلهتهم ومعبوداتهم، ومثلهم فعل الهنود البوذيون، وكان دينهم مسؤولاً عن نبوغهم المشهور في فنون الرقص والغناء والنحت

Twitter: @ketab_n

والرسم، ممّا أصبح مظهراً أساسياً لحضارتهم التي ما زالوا يرفعون رؤوسهم افتخاراً وتباهياً بنتاجاتها حتى اليوم. أما الفراعنة، فلسنا بحاجة إلى التذكير بإبداعاتهم في هذا الميدان، وهم أفضل نموذج لامتزاج الفن بالدين امتزاجاً حقيقياً، والأمثلة على هذا الامتزاج لدى الشعوب الأخرى لا حصر لها.

إن تحفيز الانفعالات وتهدئتها بواسطة الموسيقى، هي نظرية معروفة في جميع الحضارات القديمة، فقد وردت الإشارة إليها بوضوح في الكتابات الكلدانية والعبرية، واعتقد الفيثاغوريون والأورفيون بأن الموسيقى من أهم وسائل تطهير النفس، وأعلن (ماني) النبي الإيراني قبل الإسلام بأن الموسيقى أحسن علاج لعلل النفوس، ونصَّ المفكرون الإغريق على صلة الموسيقى بحركة الأرواح السماوية (المتصلة عندهم بالنجوم). ولم يشذّ الفلاسفة المسلمون في اعتقادهم أيضاً بأهمية الموسيقى في تربية نفوس الناس وتهذيبها وصقلها، ومن أهمهم الكندي والفارابي وابن رشد وابن سينا... إلخ. فليس عجيباً أن نجد المتصوفة يؤكِّدون على دور الموسيقى في التربية والتهذيب والعلاج وإزالة التوتر، وفي تقديم التسلية البريئة المقيدة.. ويُقال إن ذا النون المصري هو أول من أدخل الموسيقى في المأثور الصوفي، وأبدى الحلاج اهتماماً شديداً بها، وكذلك فعل ابن عربي، ولم يهمل المتصوفة بقية الفنون، إضافةً إلى إنتاجه الشعري الرقيق المعروف. كما أن رابعة العدوية والحلاج وذا النون المصري وأبا يزيد البسطامي والجنيد والسري السقطي وغيرهم ما عُرفوا واشتُهروا إلا من طريق آثارهم النثرية والشعرية المؤثرة الرائعة.

Twitter: @ketab_n

فالفنون الجميلة إذن كانت واسطة أساسية استخدمها المتصوفة في نشر معتقداتهم، والتبشير بأفكارهم من جهة، كما استثمروها كوسيلة ناجحة في تدريب مُريديهم والتأثير في نفوسهم من جهةٍ أخرى.

وكذلك فعل جلال الدين الرومي، حين ابتدع طريقته الفنية التي سماها (السماع) ووصفها بأنها إلهية، واستخدم السماع من أجل إبلاغ مريديه مرتبة (العشق). فماذا قصد الرومي بهذا (العشق الإلهي)؟

جاء في **المثنوي** (ما مرآة الروح إلا وجه الحبيب. حين رأيتك قلت ها قد وجدت نفسي أخيراً، ذلك أني شهدت في عينيه درب النور، قال وهمي: إن هذا هو خاليك فتنبّه! لكن صورتي في عينيه هتفت قائلة: إنني أنت، وأنت أنا، يجمعنا اتحاد).

العلاقة التي تربط الإنسان بالله، عند الرومي، هي علاقة الحب المُتبادَل، هناك الإنسان، العاشق للحقيقة الجميلة الكاملة التي يرمز لها الله، أي الإنسان الواعي المُدرِك لهذا الكمال والجمال، وهناك المعشوق الكامن الأبدي السرمدي، الحق الذي لا شبهة فيه، والذي هو أيضاً مرآة الإنسان بحسب مذهب وحدة الوجود الذي اعتنقه الرومي من طريق فلسفة ابن عربي والسهروردي. إنّ صلة الولي، الإنسان الكامل، بالله، تقوم على التكافؤ وليس الاستعباد، ما دامت صلة عشق ووجد، الإنسان في رأيه يجب ألا يُسيء الظن بالله لأنه يراه المعشوق الأجمل والأنبل والأكرم، وليس في العشق خوفٌ ولا انفصال، وإنما هناك شوق ووجْد، ثم اندماج واتحاد. هذه الفكرة تستند كما هو معروف إلى مذهب الأفلاطونية الحديثة، وليس فيها

Twitter: @ketab_n

أي شيء جديد. إنما الذي يتّضح من دراسة **المثنوي** وتفحّص **الديوان الكبير** للرومي، أن هذا الشاعر كان يرى أن أساس التدهور الأخلاقي، أي سبب الانحطاط الذي شاع في ذلك العصر، هو الاعتقاد بانفصال الألوهية عن الإنسانية، والظنّ بأن الله يريد أو يُطالب البشر بالعبودية، ولا هَمَّ له إلا إرعابهم وتخويفهم من عقوباته، في حين أنّ الناس لو شهدوا جمال الحقيقة، وروعة الكون، وكمال الخلق، لما خافوا عقاباً، ولا طمعوا في ثواب، بل عشِقوا الله لذاته، واشتاقوا للاتحاد به، إذ سيرتبط الناس برباط الثقة والحب والإنصاف، وستُمحى إلى الأبد الرذائل المُهلكة التي يشكو منها الأخيار والمفكرون، وعلى رأس تلك الرذائل: الرياء والنفاق والغش والكذب والشراهة والطمع والأنانية والقسوة والحقد، وكلّ الشرور والمُنكرات التي جاءت الشرائع والدساتير لإبطالها ومنعها.

من أقوال الرومي في هذه المعاني:

1- يا جماعة الطير المُتنازعة، استمعوا كالبزاة لذلك الطبل الذي يقرعه المليك للباز، وهلمّوا وانطلقوا سعداء نحو الاتحاد!

(المليك) هو الله، (الباز) هو الروح.

2- كلّ من رأيته عاشقاً فاعلم أنه معشوق، لأنه نسبياً هذا وذاك!!

3- ما دمت أنت أنا، فادخل الدار يا أنا لأنها لا تتّسع لاثنين كلٌّ منهما يقول أنا!

4- العشق نفسه هو الذي يشرح العشق، أي يُفسّره، لأن الشمس هي وحدها دليل الشمس!

Twitter: @ketab_n

5- المرء يستطيع أن يرى الحبيب وعيناه مُغمضتان.

6- الوجودُ قائمٌ أساساً على العشق، وجميع الاختلافات على وجه الأرض سببها اختلاف الأشكال والألوان، في عالمٍ هو في حقيقته خالٍ من الألوان والأشكال (كما هو واضح فهذه الفكرة هي الظلّ الخرافي للتفسير العلمي الحديث للمادة).

7- حتى لو كان هناك مائة كتاب، فكلّها صادرة عن بابٍ واحد، وفي مائة جهة من الأرض، يستدير الجميع نحو مِحرابٍ واحد، وتلك مئات الألوف من البذور جاءت من حبّةٍ واحدة.

8- كل إنسانٍ يرى وجهه في ماء البحر، فهو كذلك الأسد، الذي رأى صورته في الماء فتصوّرها عدواً له مُستعداً للهجوم، فرمى نفسه في الماء للقضاء على عدوّه، فغرق! والحال أن صاحب الصورة المرئية في الماء واقف خارج البئر!

9- السُّكر بالله يؤثر في الإنسان أكثر من مئات أقداح الخمر، وهو يسلب الإنسان عقله، ولذلك لا يوجد على الصوفية الأولياء تكليف! والخمرة التي حرِّمت على المسلمين مُباحة للدرويش!

10- الشراب والموسيقى وحبّ الجمال والسماع، حلالٌ للخاصة حرامٌ على العامة!!

11- أيها الذاهبون إلى الحج، إلى أين تتّجهون؟ الحبيب هنا فتعالوا إليّ، إنه جاركم الملاصق لجدار بيتكم، فما بالكم تجتازون البوادي التماساً للقاء؟ أنتم الحاج وأنتم البيت وأنتم أهل البيت.

12- قدم شراب الوحدة ولنجتمع كلّنا، ولنرفَعْ الصور تماماً ولو خرجنا من ذواتنا لأصبحنا مثل الماء في اللون، ما نحن إلا فروع شجرةٍ واحدة، وكلنا رفاق الطريق.

Twitter: @ketab_n

13- لا فرق أن تكون تركياً أو عربياً أو رومانياً، المهم أن تعرف لغة الروح!

هذه الآراء، كما هو واضح، تستند إلى فلسفة الأفلاطونية المحدثة، لكن من الممكن أيضاً التوصّل إلى الاستنتاج التالي، وهو أن الرومي أدرك بشكلٍ أكيد أنّ أبناء عصره مُغتربون روحياً، وأنّه وجد طريق الخلاص الأوحد إنما يكمُن في (الحب) بحسب المذهب المذكور. يقول الفيلسوف فيورباخ في هذا المعنى:

(يهيئ الحب للإنسان أقوى أسباب الفرح والابتهاج، ولذلك يحمل الحب صفة الألوهية، إن الله هو العاطفة الخالصة الأبدية التي لا يمكن نفيها، لأن هذا النفي يؤدي إلى نفي الألوهية ذاتها).

فالحب أو العشق الإلهي، عند الرومي، وغيره من المتصوفة، هو المهرب والملاذ الأمين من الواقع المرّ الذي تردّى فيه أبناء عصره، مثلما حدث في عصر انحطاط الدولة الرومانية. يقول الكاتب المعاصر جون لويس: (في تلك العصور، لم يعُد الناس يتساءلون عن السُبُل الكفيلة بإنشاء الدولة الفاضلة، بل راحوا يبحثون عن الوسائل التي تُمكّن الإنسان أن يكون كاملاً من طريق اتحاده مع الله اتحاداً صوفياً).

خلاصة القول، أن (العشق) أصبح لدى متصوفة القرون الوسطى علاجاً ناجعاً للاضطرابات النفسية التي عاناها أهل تلك العهود، وقد أضاف الرومي إلى هذا الدواء، جرعات مناسبة مُشتقة من فنون الموسيقى والغناء والشعر والرقص، وبذلك اكتملت طريقته.

ربما كان من المفيد في ختام هذا الفصل اقتباس رأي للفيلسوف

Twitter: @ketab_n

هيغل، قد يكون مناسباً لرأي جلال الدين الرومي حول علاقة الإنسان بالله، يقول هيغل:

(إن الدين الذي يتقبّله الإنسان الحُر يجب ألا يأتي إليه بالإكراه، وألا يعامله كطفل أو عبد أو إنسان قاصر أو خاطئ، ويجب ألّا تصدر إليه الأوامر الغامضة أو المتناقضة أو الشريرة التي تؤدي إلى الإضرار بالناس وإيذاء ضعفائهم، إن الطاعة لا تكون بالإجبار، وإنما بالمحبة والتفهم وبرضا النفس واقتناع القلب).

هذا المفهوم للدين نجده أيضاً لدى سبينوزا، وبهذا فإنّ جلال الدين الرومي يكون قد سبقهما في المُناداة بشعار الحبّ كعلاقة وحيدة بين الإنسان والله.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

تعاليم الرومي وأهدافه التربوية

في إحدى غزلياته، يُصرِّح الرومي بما يلي:

بيتي ليس بيتاً وإنما هو إقليمٌ كبير
وهـزلـي لـيـس هـزلاً لـكـنـه
شـيء أريـد تـعـلـيـمـه لـلـنـاس

إن الأهداف التربوية أو التعليمية للرومي اتصلت بالمُثُل العليا التي سادت عالم الفكر في القرون الوسطى شرقاً وغرباً. يشرح الفيلسوف جون لويس هذه المثل قائلاً:

(كان مفكرو تلك العهود يعيشون وسط قلقٍ مُخيف، ناتج من سيادة البربرية الخارجة عن كل قانون، ممّا جعلهم يُصمّمون على تحقيق نظامٍ عقلي وأخلاقي في الفرد والمجتمع، من أجل إخراج البشر من طور الجهالة إلى طور المعرفة، ولذلك، وجّهوا أشد الاهتمام نحو تحقيق عالم مُنظّم كامل الانسجام يتجاوز فوضى العالم القائم).

ومن دراسة سيرة الرومي وتفحُّص غزليات **الديوان الكبير** وأشعار **المثنوي**، نستطيع التوصُّل إلى الاستنتاج الآتي، وهو أن هذا

Twitter: @ketab_n

الشاعر المُفكِّر، والإنسان المُرهف الحِسّ، حاول أن يجعل من حياته وشخصه ومسلكه وشعره، وحدةً مُتماسكة، متناغمة، منسجمة، لتكون بذاتها النموذج الأكمل الذي يصلح أن يكون قدوةً عُظمى للناس المُحيطين به، والآخرين الذين يطّلعون على سيرته وشعره من بعيد، في كلّ زمانٍ ومكان. والرومي في هذا المسلك، وهذا المسعى لم يشذّ بعيداً عن أهداف غيره من المتصوفة، ولم يخرج عن مسالكهم، لأنّ الصوفي يشدِّد على إصلاح الفرد لذاته قبل التوجُّه نحو الآخرين. وقد أشرنا إلى استعانته بفنون الشعر والغناء والموسيقى والرقص في إقامة مجالس (السماع)، مُعتمداً على آراء الفلاسفة القدامى حول دور الفنون الجميلة في تهذيب النفس، وإرهاف المشاعر، وتهدئة الانفعالات. ونجده دائماً يُبشِّرُ بدور الموسيقى العظيم في ترقية المشاعر، وإغناء الأرواح بأسمى أنواع المتعة والسرور. يقول في **المثنوي**:

صوت النّاي نارٌ لا هواء
فلا كان مَن لم تضطرم في قلبه تلك الشعلة!
انظر إلى لهبها الذي يحتدم متألقاً
كما تجيش الخمرة مزبدةً فوّارةً بعد الامتزاج

ويقول في موضعٍ آخر من شعره:

الرّبابُ تروي العِطاش وتؤنِسُ الأحباب
ألم تطلق العرب على الغمامة اسم الرّباب؟
حدائق الورد يسقيها الغمام
وكذلك الأرواح ترويها أنغام الرّباب

Twitter: @ketab_n

وأيضاً:

السماع يُنبّه الروح، والأنغام
توقِظُ سجين الغفلة من ضلالته
ما أسعد النائم إذ يفتح عينيه
على أشكال الورود في حديقةٍ غنّاء
تتناوح فيها الأطيار والألحان

على أن الرومي اكتشف للموسيقى دوراً آخر، ربما كان أهم من كلّ ما ذكرنا في تحريك النفس وصياغتها وتوجيهها أيضاً، فلقد أدرك أن للطقوس والشعائر المصحوبة بالرقص والموسيقى والغناء تأثيراتٌ سايكولوجية بعيدة المدى، إذا ما جرت في أجواء النّشوة والغموض، وتحت تأثيرات البخور والعطور والحركات الخاصة، والألوان المناسبة، والمشروبات المعينة لمثل تلك الأجواء. وهنا، لا بدّ لنا من التذكير بالدين الشاماني الذي كان الترك يعتنقونه قبل دخولهم في الإسلام، وهو الدين الذي كان سائداً يومئذٍ بين صفوف المغول عند غزوهم للعالم الإسلامي، وبضمنه بلاد الأناضول التي يُقيم الرومي فيها، والدين الشاماني يقوم على طقوسٍ وشعائرَ ذات صلةٍ بالطرائق الصوفية، التي انتشرت منذ القرن السادس الهجري في أغلب أطراف المملكة الإسلامية، على ما ذكرنا في فصولٍ سابقة.

ربّما كان من المفيد في هذا الموضع أن نُشير إلى النّزعة التي طغت على عالم الفن والأدب الحديثين عبر العالم المُتحضِّر كلّه، منذ تحقيق الإنجازات العلمية الضخمة في علوم الطبيعة والنفس واللغة ومباحث الإنسان، ونقصد بها ميل الأدباء والشعراء والفنانين

Twitter: @ketab_n

المُحدثين إلى الاستعانة بأساطير الميثولوجيا الإغريقية، والحكايات الخيالية التي تدور حول آلهة الشعوب القديمة، وذلك بهدف تعميق تأثيرات نتاجاتهم وإبداعاتهم داخل نفوس المُتلقّين لها من متفرّجين ومُستمعين ومُشاهدين، هذه النّزعة لا تبدو مختلفةً عن مقاصد جلال الدين الرومي وهو يستشعر الرقص والموسيقى لزيادة تأثيرات طقوس (السماع) في نفوس مريديه المشاركين فيها، من أجل تحقيق هدفه الأهم، وهو إعادة صياغة تلك النفوس وتشكيلها بحسب معتقداته وأفكاره التي آمن بها. يقول الكاتب كريستوفر نلش في مقالٍ له بعنوان «الأسطورة والأدب الحديث»[1]:

(طوّر المفكر هيردر والكاتب جيته فكرة أصبحت أساسية لدى الفيلسوف نيتشه والكاتب د. هـ. لورنس، الفكرة ترى أن الأسطورة «كما تظهر مثلاً في الموسيقى والرقص الدينيين» ليست تعبيراً عن نزعةٍ أخلاقيةٍ بقدر ما هي تجسيد للطاقات البدائية للطبيعة حين تعمل في نفوس البشر، وإن الآلهة ليست جواهر أخلاقية بقدر ما هي مظاهر مختلفة للقوة العضوية البدائية للحياة، حين تناضل من أجل تحقيق الامتلاء والكمال في الإنسان، ولكي نفهم معنى الأسطورة وحكمتها، يتعيّن علينا الدخول في نفوس الذين أبدعوها).

هذا الرأي العصري في تأويل الأساطير والطقوس الدينية، يُقدّم أحسن تفسير لإصرار الرومي على إقامة مجالس السماع في كل مكان، وكل فرصة تسنَح له. ولا شك عندنا في أنه توصّل إلى استنتاجاتٍ مشابهة، ولو على شكل أبسط وأقل تعقيداً.

---

(1) *The Context of English Literature*, Edited by Michael Bell.

Twitter: @ketab_n

بحسب الاتجاه الصوفي المعروف، وجّه الرومي دعوته إلى الفرد ناصحاً له أن ينهمك في محاولةٍ دائبةٍ لاكتشاف ذاته، من أجل الوصول إلى إصلاح النفس، ثم صياغتها، بحسب المثل العليا التي آمن الرومي بها. هذه المُثُل تقوم أساساً على النواحي الإيجابية في جميع الأديان، لا سيما الإسلام والمسيحية، لكنه لا يكتفي بالتعاليم الدينية المذكورة، وإنما نجد في **المثنوي** تأثراً شديداً بالأفكار والفلسفات الإغريقية والهيلينة، مِن مثل الفيثاغورية والأورفية، ثم الأبيقورية، والرواقية، وبالطبع الأفلاطونية الجديدة، كذلك نلاحظ تأثُّره الشديد بالمكتشفات السايكولوجية في الأديان البوذية والطاوية والكونفوشيوسية وحتى المانوية التي يبدو أنه أخذ عنها بشكلٍ خاص فكرة الغزل بالمذكر التي سادت الأدب الإيراني دائماً. وتبدو تأثيرات حرانية وصابئية أيضاً في أشعاره، فالظاهر أنها من نتاج قراءته لابن سينا.

تتصف المجتمعات في عهد انحطاطها (أي عند أفول نجم الحضارة التي تنتمي إليها) بسيادة الروح السلبية والاتكالية وحصول قحط مريع في المزايا الخلقية الإيجابية وانكماش الشخصية الفردية وتقوقعها على فراغ أو خواء لا خلاص منه إطلاقاً. إنّ هذا القحط الروحي والخواء النفسي هو المسبب الأصلي لانبثاق الرغبة الحادة عند الرومي في بث دعوته بين مريديه التماساً لإصلاح أو إعادة صياغة نفوسهم بشكل جديد. وتتضح لنا تفاصيل هذه الدعوة الإصلاحية عند قراءة **المثنوي**، وأهم ما يُميّز الدعوة (الرومية) تشديده وتأكيده على الجانب الإيجابي في الأخلاق، ورفضه القوي الصريح للصفات السلبية المؤذية التي رآها سبباً أساسياً في انحدار

Twitter: @ketab_n

المجتمع الإسلامي، على عهده، إلى أحطّ دركات التأخر المُقارب للغناء وإلغاء الوجود.

في كثيرٍ من فصول **المثنوي** دعوة تتكرّر مُوجَّهَةً للفرد، تحثّه على الحركة والانطلاق وتحرير النفس والروح والقلب من كل القيود التي تناقض الحياة. فلنصغِ إلى شيءٍ من ذلك:

1- (امشِ وافتح عيني العاشق، ألا ترى حُريّتك تتجاوز حرية شجرة السرو السامقة؟ وعقلك.. أليس أشدّ كفاءةً من جميع ما على الأرض من حياة؟)

2- (اليوم أنا هو أحمد، لكني لست أحمد العصر الذي مضى، اليوم أنا المرآة النقية، لكني لست المرآة القابلة لكسر، أنا السكران بغير الخمرة، أنا المتصوف الحقيقي لكني لا أتزمل بالمسوح الصوفي، وأنت من طائفة المشتاق التي تخالف جميع الطوائف وذلك هو المهم عندي).

3- (كلّ ما في العالم عبارة عن الحب، ومن لم يقع في الحب فإنه أشبه بطيرٍ فَقَدَ جناحيه).

4- الناس يقضون أعمارهم في سجونٍ يبنونها لأنفسهم، مَن لا يتحرّر من أغلاله وقيود سجنه فإنه مُخلّدٌ في فقره الروحي إلى الأبد).

5- (كلّ شيء يتجدّد في كل لحظة، وعليّ أن أشرح هذا القول، لكني أخشى أصحاب العقول الضيّقة الفاسدة. فليس كلّ إنسان بقادر على تحمّل قول الحق، وليس كلّ طير قادر على ابتلاع ثمرة تينٍ كاملة! لا سيما إذا كان الطير غاطساً في وحل الأوهام).

6- جاءت عصورٌ وزالت عصور، لكن زماننا جديد، القمر إذا

Twitter: @ketab_n

بدا ساكناً في قبة السماء، فإن الماء لا يفتأ يجري بلا توقّف، ما أحلى أن تقضي حياتك في سفرٍ متواصل، فتحلّ في كل يوم بمكان لم ترَهُ من قبل، شأنك شأن الماء تماماً، وما أحسن أن تكون ذا قلبٍ نقيٍّ مثل نبعٍ مُتفجّرٍ لا يعرف كدرة، لأنه قد تحرّر من خوف الثبوت والفساد، وهو لا يخشى رجعةً إلى الوراء!! اعلَمْ يا أخي أن الماضي قد ذهب إلى غير رجعة، وكلام الماضي قد انتهى عهده، وما يلزمنا اليوم هو الحديث الطري الجديد).

7- (السوق اليوم هو سوقنا، فاليوم انتهت نوبة بائعي البضائع القديمة، وها نحن على استعدادٍ لتقديم كل جديد).

يتّضح من هذه الأقوال، «وهي كثيرةٌ في **المثنوي**»، أن جلال الدين الرومي تجاوز عصره بمراحل، حين أكّد على ضرورة تحرير الأفراد من قيود التقاليد والعُرف الجامدَيْن، من أجل إفساح المجال للفرد في أن يُطوِّر شخصيته، ويُنمّي مواهبه، وأعلن أنّ من حق كلّ إنسان أن يختار ما يشاء من الآراء، ما دامت تتوافق مع العقل السليم، ولا تتناقض مع مصلحة الجماعة، ولم يتردّد في أن يُصرِّح بجرأة أنه عدوّ النقل والاتّباع، وعدو البلادة وسقم التفكير، ذلك أنّ كل عصر (وكل مجتمع) خاضع لظروفٍ وشروطٍ اقتصادية واجتماعية وثقافية محددة، بموجبها ينبغي صنع القانون، بحيث يكون القانون لخدمة الناس، وليس للإضرار بهم. وهو يروي حديث الإمام علي (الناس لأزمانهم أقرب منهم لآبائهم).

من آراء الرومي المهمة التي حاول توصيلها إلى الناس، اعتباره (اللغة) مجرد وسيلة للتفاهم ونقل الأفكار، وأنها ليست شيئاً خارقاً

Twitter: @ketab_n

لا يجوز المساس به، فالناس هم واضعو اللغة، وهم الذين يُبدِّلونها باستعمالهم لها. يقول:

(لا فرق أن تتكلم اليونانية، أو العربية، أو التركية، أو غيرها، المهم أن يجمعك بمحبيك لغة القلب، وليس للقلب شأنٌ باللسان، وحين تلتمس رفيق الطريق، فإياك أن تنظر إلى لونه، أو لسانه، بل ابحث عن نواياه وهمّته، وما دام الطريق واحداً، فلا تلتفت إلى لون الحبيب، فليكن أسود، أو أبيض، أو أسمر، ذلك أن الله هو مذهب العشاق، وهو جنسهم الأوحد).

هذا يدلُّ على أن الرومي يحذِّر الناس من مغبّة التعصب الديني، والمذهبي، ويشجُب التفرقة العنصرية والطائفية. ويدعو إلى أشد التّسامح، وأنبل التعاون بين مختلف أصناف البشر، من أجل تحقيق السلم، وسيادة المحبة بين الناس. يقول:

(أنا من إقليمكم هذا، وفي مدينتكم الكاملة، أبحث عن سكني، وأهلي، فلا تُعدُّوني أجنبياً، حتى لو رأيتم سحنتي مغولية، وحتى لو تكلّمت باللغة الهندية!).

ومن الأمور التي أراد تعليمها للناس، التفاؤل، وتوقّع الخير دائماً، فلقد آمن بأنّ الإنسان خيرٌ في الأصل، لكن ضعفه هو الذي يُوقعه في الشرّ، بل إن الخير والشر في رأيه نسبيّان، ذلك أن الحقيقة ذاتها نسبية، وتتوقف على الجهة التي تنظر منها!

لقد كان يرى رأي السفسطائيين في أنّ الإنسان هو مقياس الأشياء.

ذات يوم، والرومي يقطع طريقاً عاماً، شاهد الناس ملتفين حول جلاّدٍ يستعدّ لتنفيذ حكم الإعدام في شاب من النصارى، فما

Twitter: @ketab_n

كان من الرومي إلّا أن يخلع قميصه ويرميه فوق رأس الشاب. حالاً توقّف الجلاد عن التنفيذ، وبدا مُتردّداً بسبب علوّ منزلة الرومي بين أهل قونيا، أخيراً ورد الأمر بالعفو عن المجرم نزولاً عند شفاعة الرومي، من ذلك اليوم، أصبح الشاب مريداً مخلصاً للرومي، يتبعه حيث سار، ويلهج بالثناء عليه، ثم وصل به الأمر إلى إعلان تأليهه له، فاستدعاه القاضي، ومضى يُؤنّبه مُتّهماً إياه بالتطاول على الدين، قال الفتى (ألم يُنقذني مولانا الرومي من الموت؟ أليس الله وحده هو القادر على بعث الموتى؟!) ضحك القاضي وقال (أطلقوا سراحه، فليس على المجنون حدّ!!).

ومن أهم الوسائل التي استخدمها الرومي لبثّ روح التفاؤل في نفوس الناس، مذهبه الخاص في قضية الجبر والاختيار. فالقول بالجبر يعني نكران نِعَم الله، وقدره، وغيره من الصوفية يقول (لو كان للجبر السيادة على الحياة، ما شُرّعت الأديان، ولا ظهرت أحكام العقاب والثواب). ويقول (نعم، حين ترمي سهماً فإنّ إرادتك من إرادة الله، لكن كما أن الصراخ على الميت دليل العجز، فذلك يُعد خجلنا من الصراخ دليلاً على قدرتنا على اتّخاذ القرار الموافق للعقل والحكمة، وهذا هو الاختيار. ولولا حقّ الإنسان في اختيار ما يُناسبه، هل كان المعلم يقوم بتربية الأولاد؟ وهل كان يمكن للأفكار أن تتبدّل ما بين عصرٍ وعصر؟ وهل كان الناس يتباينون في نزعاتهم وميولهم وأفعالهم؟ هاكم هذا المثل: رجلٌ يحرّك يده دوماً لأنه مصابٌ بالشلل، ورجلٌ يُحرّك يده ليُعلن رفضه لشيء من الأشياء، الحركة الأولى لا اختيار فيها، في حين تدلّ حركة الرجل الثاني على الإرادة، وإرادة الإنسان فيضٌ من إرادة الله على كل حال؟)

Twitter: @ketab_n

من الفضائل التي شغلت موقعاً كبيراً في قلب الرومي: الرحمة وأختها المغفرة، وما يتبعهما من التسامح والتحمّل وعدم التحيّز. لقد كان يؤمن بضعف الإنسان ونسبية الأخلاق، وأشدّ ما كان يكرهه وينفر منه ميل بعض الناس إلى القسوة وتعاملهم مع الآخرين بالخشونة والسلاطة، وما يتبعهما من تبجحٍ وتفاخرٍ معيبين. وكان لا يفتأ يُوبّخ المسؤولين عن تحقيق العدالة على سوء تعاملهم مع الضعفاء والمساكين من الرجال والنساء والأطفال، يقول «لو كنت متواضعاً لطيفاً فسوف تنطلق مرحاً مثل الحصان الحرّ القوي، لكنك حين تسعى إلى الغلبة والرئاسة، فسوف تضطر إلى الركوب فوق رقاب الناس كالجنازة أو كالمُصاب بداء النقرس!! لتكن سلطاناً في فضيلتك وجمال نفسك، وليس في جاهك ومالك».

عند الرومي، الدنيا ساحة حرب، يحتاج الإنسان فيها إلى أن يكون تامَّ الاستعداد للكفاح والعمل والسعي من أجل كسب الرزق. ومَن اختار الخمول والكسل بحجّة التوكّل، فقَد أساء الظنّ بربه، واضطر إلى الاستجداء المعيب الذي يسلب الإنسان كرامته، وكان يقول (باب الاستجداء قد أُغلِق في وجه العُشّاق)، يعني أنّ العمل والكفاح واجبان مُقدّسان. وكان ينصح مُريديه بتحصيل القوت من طريق الحرفة أو التجارة أو الخدمة لدى الحكومة أو العمل في الأرض والزراعة. المهم أن يكسبوا المال بعرق الجبين. ومن فوائد العمل، في رأي الرومي، أنه يُسلّي الإنسان، ويحميه من الكآبة والوساوس، ويُزيل عنه شعور الخوف المُبهم من المستقبل ومن المجهول.

لم تقتصر رحمة الرومي على الإنسان، بل تعدّته إلى الحيوان

Twitter: @ketab_n

والنبات، وحتى الجماد، ومثل السيد المسيح، يُحكى عن الرومي أنه كان يستطيع شفاء بعض الأمراض المُعدية، وقد أشرنا سابقاً إلى (المعارف السرية) التي اقتبسها الرومي عن الهنود والفراعنة، وغيرهم. وهكذا، تعلّم طرائق الإيحاء النفسي والتنويم المغناطيسي، والعلاج من طريق الارتخاء وضبط التنفس، وما إلى ذلك. فكان يستخدم هذه الوسائل وغيرها في العلاج، شأنه شأن غيره من المتصوّفة.

إنّ إيمان الرومي بالحبّ، كوسيلة خلاص للإنسان، وكسبيل أكيد لصقل طباعه، وتهذيب أخلاقه، ارتبط بموقف هذا المفكّر الإنساني من المرأة. فعلى خلاف كثيرٍ من مفكري القرون الوسطى، كان الرومي شديد الاحترام والتوقير للمرأة، عظيم الإعجاب بفواضل النساء، فقد اعتقد بأنّ المرأة أخت الرجل وشريكته في الحياة، بل أعلن بصريح العبارة أنّ للمرأة الفضل على الرجل. إذ إنها واهبةُ الحياة والمحافظة عليها، بعكس الرجل الذي لا يفتأ يُثير الحروب ويقتل الملايين. ولا شكّ أن ظروف عصره، عصر الهجمة المغولية، ساهمت في توصّله إلى هذا الرأي الإيجابي، ولعلّ الرومي اطّلع على دفاع الفيلسوف ابن رشد عن المرأة، ومن المؤكّد أنّ الرومي عرف أشياء عن ابن رشد، من طريق أحاديث ابن عربي عن الفيلسوف المغربي، كذلك أشرنا سابقاً إلى أنّ ابن عربي أثنى على كثيرٍ من متصوّفات الأندلس اللواتي انقطع إلى خدمتهن بنفسه أيام توجّهه الأول نحو التصوف، وفي أحاديثه ومواعظه، يُمجِّد الرومي دائماً الصوفية رابعة العدوية، ويعُدُّها من أعاظم أهل العرفان، فلا عجب أن تتفانى نساء قونيا وسيداتها الكريمات في الولاء للرومي

Twitter: @ketab_n

والحماس له. ويحكون عن هذا الحماس القصص المُمتعة التي تثبته، فحين اضطرّ أحد أسياد قونيا إلى تركها، والسفر إلى مدينةٍ أخرى، لم يهدأ بال زوجته حتى قام أحد الفنانين المشهورين برسم لوحة جميلة تمثّل جلال الدين الرومي بدقة، فاصطحبتها معها وعلّقتها في دارها كي تشعر أنّ بركات الشيخ الجليل ما زالت تنهال على أفراد عائلتها، وأنه ليس عنهم ببعيد.

ينسِب عبد الباقي غول بنارلي سقوط مكانة المرأة في المجتمع الإسلامي إلى شيوع نظام الحريم الذي اقتبسه العباسيون عن (الآداب) الساسانية وتقاليدهم، وإلى انتقال أسوأ عادات الإغريق والفرس إلى المجتمع الإسلامي، مثل حرص الأثرياء على اقتناء أعداد هائلة من الجواري والغلمان والعبيد والمماليك، وما يتسبَّب عن ذلك من انحراف في أخلاق الناس وشذوذ في طبائعهم، وخروج عن إنسانيتهم، وانتهى الأمر بظهور أدب المُجون المحتوي على أشنع المضامين البذيئة الخارجة عن كلّ حدود الأدب واللياقة، ولم ينتهِ الأمر عند هذا الحدّ، بل مضى الانتهازيون من بطانة الحكام يُقدّمون التبريرات الشرعية للشذوذ الجنسي، حتى تجاسَر كثيرٌ من الكُتّاب على تأليف المُصنّفات في هذا الباب!

غير أنّ موقف المتصوفة خضع لاعتباراتٍ أكثر إنسانية، فبسبب عقيدتهم بالمساواة بين الأجناس والأديان والعقائد، وحماسهم للتسامح الديني والمذهبي، فإنهم لم يخشوا التصريح بفضل النساء، والدعوة إلى إنصافهن، وجاهر كثير من الصوفية بالانتماء إلى شيخات صوفيات صالحات، والتباهي بأخذ الفيض منهن. هذا الموقف الخاص من النساء، شجّع كثيراً من الرافضات لجو

Twitter: @ketab_n

الانحطاط الذي غاصت في وحله نساء ذلك العصر، إلى التوجّه نحو ميدان التصوّف والاعتكاف في التكايا هرباً من الظلم، وحفظاً للكرامة، وطلباً للعرفان، وسعياً مخلصاً لهداية من أظلمتْ أنفسهم واسودَّتْ عقولهم بدنس الجهالة ودياجير هذه الخطيئة الشنعاء التي هي منبع جميع الرذائل.

هؤلاء المتصَوّفة تأوّلوا في دفاعهم عن المرأة تأويلاتٍ مُقنِعةٍ تماماً، قالوا إن القرآن الكريم لم ينُصّ على فَضْلِ الذكورة، وإنما أثنى على الرجولة. والرجولة فضيلة، يُمكن أن تكتسبها كثيراتٌ من فُضليات النساء، إذ هي تعني المسؤولية والصدق والحِمية والعزم والذكاء في وقت الحاجة، أي عند اتّخاذ الموقف، والقُدرة على الحزم والحسم، إضافةً إلى مساعدة المُحتاج، وإغاثة الملهوف، والحُلم عند الغضب، وحفظ اللسان، وأمثال هذه الفضائل التي تمتلكها كثيرات من النساء في كلّ زمانٍ ومكان. ومن المعلوم أنّ المرأة أساساً أقْدَرُ من الرجل في التحكُّم بنفسها وبحِسِّها وبنزعاتها، ولم يعلم بعدُ هل يعود هذا إلى طبيعةٍ فيها، أم إلى (القهر) الاجتماعي الذي خضعت له منذ ظهور الزراعة والمُلكية الخاصة. ولما كان التصوف يقوم على مسألة ضبط نوازع (النّفس الأمّارة)، من طريق تقوية الإرادة بالصوم، وقيام الليل، والرياضة الروحية، والجوع... إلخ. فقد استطاع عددٌ كبير من النساء في إحراز قصَب السّبق في هذا المجال. وهكذا، ظهرت النساء في تكايا الصوفية، وخانقاهاتهم، حين حُرِمت عليهن مجالِسُ الفكر والأدب والفن، بحُجّة التقصير والعجز حيناً، وباسم الدين والشّرع حيناً آخر، في حين تروي كُتب التاريخ المُختصّة بالعهود الإسلامية

Twitter: @ketab_n

المُبكّرة، أمتع الأحاديث والحكايات عن عُلُوّ مكانة النساء أيام العرب قبل الإسلام، وعلى عهد الرسول والراشدين والأمويين جميعاً. ولم تتغيّر الأمور، إلا مع قيام الدولة العباسية، على أكتاف الدُّعاة الفرس، أمثال أبي مسلم الخراساني، وأبي سلمة الخلال، وما تَبِع ذلك من اقتباس الخلفاء العباسيين لتقاليد البلاط الساساني وآداب مجتمعهم. وهكذا، أُلغِيت حرية النفس، ومُحِيت كرامتها، ورضِيت النفوس الأبية بالضيم والهوان، وتمرّغت كبرياء الرجل والمرأة سويةً بالرغام. أنا في هذا المقام، أتحيّن الفرصة **لأُوجّه القارئ**، الذي لا يمتلك الرؤية الكافية في صفحات تاريخنا القديم، **إلى المصنفات التاريخية الأدبية العربية**، التي تنقل تلك الأحداث بقدر ما سمحت به سُلطاتُ العباسيين أنفسهم، هناك **تاريخ الطبري والأغاني** للأصفهاني، **ووفيات الأعيان** لابن خلكان، **ومؤلفات الجاحظ**، **والكامل** للمبرد، وهناك مؤلفاتٌ أخرى مثل **العقد الفريد** لابن عبد ربه، **ومعجم الأدباء** لياقوت الحموي، ومئات أخرى من المؤلفات التي عُنيت بالتواريخ الإسلامية، يمكن أن يتفحّصها القارئ المعاصر بعين العقل البصير، وليس بالروح التقليدية الجامدة، ليتعرف إلى الماضي على حقيقته، وليس إلى ما يُشاع عنه!

يقول الرومي في مسألة المرأة (ليست المرأة إلا ما تعتقده أنت فيها، أي ما تتعلّمه المرأة منك أنت! فاعلم أنّ كلّ ما تصنعه أيها الرجل، تقوم المرأة، بحُكم سيادتك عليها، باقتفاء أثره، تُقلّدك فيه، وتُتابعك على طريقه)، ثم يمضي موضحاً رأيه (إن الإنسان مُولَعٌ بما مُنِعَ عنه، وما دُمتَ تخفي المرأة خلف حجابٍ صفيق، فإنك لن تزيد

Twitter: @ketab_n

الرجال إلا شغفاً بتلك الأسرار المحجوبة، ولو دفعوا أعمارهم قرباناً! هكذا، أنت تدّعي الحفاظ على القيم الأخلاقية، في حين لا تقوم إلا بتعليم الناس الإباحية، وتُوجّه قلوبهم نحو الفساد).

من أشهر مريدات الرومي بعض عقائل السلاطين السلاجقة، فضلاً عن زوجة معين الدين برواناه، الحاكم على الأناضول بعد سقوطها بأيدي المغول.

من أطرف الأفكار الاجتماعية التي بَشّرَ بها الرومي، حماسهُ للعيش في المدينة، وتفضيله المدينة على القرية بصريح العبارة، وهو يُعلِن رأيه بما يلي (إن سكان المدن هم أهل الأدب والذكاء والكياسة، أما القرية، فلا تصلح إلا نزلاً مؤقتاً للمسافر الغريب، يرتاح فيه من وعثاء الطريق، القرية تسلب ساكنها الذكاء والحِكمة والحس المُرهف، وتُحوِّله إلى بليدٍ أحمق. إنها تحفر قبراً لعقل المُقيم فيها. العالِم لو أقام في القرية شهراً واحداً، نقص عقله مقدار سنةٍ من العلم والعِرفان!!).

اكتشف الرومي أن عبادة (مامون) إله المال والذهب، هو سبب خراب نفوس البشر، وحبّ المال يقترن دائماً بالأنانية المُفرِطة، ويسبب البغضاء، ويزيل النوايا الحَسَنة، وكثيراً ما تقوم بين طُلاّب الثراء منافسات وضيعة، تُحوِّلهم إلى وحوش، تتصارع بضراوةٍ من أجل الاستئثار بالقدر الأكبر من المال، حتى لو أدّى ذلك إلى هلاك منافسيهم. يقول (إن التخلص من شراهة الذهب والفضة هما شرط السعادة في الدنيا، البخيل لا يعرف أبداً الشبع والاكتفاء. وليس هناك طريق للخلاص من الشّح والبُخل غير الحب. إن الإنسان الساقط الهمّة الواقع في شِراك الطمع، أشبه ما يكون بتمساحٍ فاغر

Twitter: @ketab_n

الفم، مُتحفّز أبداً لابتلاع الطير الواقع في الماء، فهل ترضى أن تتشبّه بالتمساح؟).

من هذا المُنطلق، يتحوّل الرومي إلى تقريب مفهوم الإنسانية إلى عقول أصحابه، ساعياً إلى تعليمهم حُبّ البشر جميعاً، دون تمييزٍ أو تفريق. المال عنده وسيلة تبادل اقتصادية، ومن السخف أن يُعادي الفرد أهله وأصحابه بسبب حسده لما يملكون من فضة، وذهبٍ، ومتاعٍ لا جدوى منه. فقد يأتي يوم يفتح فيه هذا الرجل عينيه، فلا يرى حوله إلّا أعداء يتربّصون الدوائر به، ويتحيّنون الفرص لتوجيه الضربة الساحقة إليه. والرومي يؤمن بقداسة الإنسان ورخص المال، لكن أغلب أصحاب العقول الضعيفة يسترخصون الإنسان ويتعبّدون لإله المال، مع (أن الإنسان أسمى من كلِّ كائن) في رأي الرومي. (والإنسان لا يرفعه إلا همّته ومسعاه نحو الكمال).

يؤكّد الدارسون المحدّثون أن مفهوم العشق الإلهي عند الرومي كان يتضمّن معنى الحب بصيغته الإنسانية المُطلقة. لقد اعتقد بأنّ الحب حين يؤلّف بين قلوب الناس، فإن اختلاف آرائهم وتباين اتجاهاتهم لن يؤدي إلى العداء والفرقة، ولا إلى قيام الحروب وخراب المجتمعات. ولذلك، شدّد على إعادة تقييم وضع الفرد في المجتمع الإسلامي، سواء كان رجلاً أم امرأة، ولما كان الرجل في وضعٍ أفضل من المرأة نسبياً، فإن الرومي ظلّ يتحيّن الفرص لإقناع معاصريه من الرجال بخطأ موقفهم من النساء، ذلك أن (النساء أفضل من الرجال في كثيرٍ من الأحوال، الرجال على الأغلب قُساة متصلّبون في معاملتهم للضعفاء، ينقصهم الرقّة، والشفقة والحب واللطف، وفي عالم الطبيعة تتغلّب الحيوانية على اللطف، والرقّة من

Twitter: @ketab_n

أوصاف الإنسان وحده، في حين تسود الحدة والعصبية والشهوة المجنونة في عالم الحيوان، لكنّ الإنسان يتمتّع، دون الحيوان، بالعقل والذكاء، والحلم، والقدرة على المحاكمة والنقد، وما إلى ذلك، والمرأة دون الرجل هي الرقيقة، وهي اللطيفة، وهي الحكيمة الصابرة المتحمّلة لمختلف أخطاء الرجل وجنونه، كيف لا تكون أفضل وأسمى منه؟).

يُعلّق البحاثة التركي عبد الباقي بنارلي على هذه الآراء قائلاً:

(مَن يقرأ هذا الكلام لا بدّ له أن يحار عجباً بجسارة الرومي في التصريح بمثل تلك الآراء غير المعهودة في القرون الوسطى، في حين لا يزال كثيرٌ من رجال مجتمعاتنا في هذا القرن العشرين يحجبون نساءهم تحت أغشية سميكة ويحبسونهن بين أربعة جدران بحجة صونهن، حارمين المجتمع، من هذا الطريق، من خدمات نصف عدد أعضائه).

ولم يكتف الرومي بالأقوال، بل قرنها بالأفعال، فلقد اعتاد أن يسجد للناس عند مقابلته لهم في الطريق، وكان يفعل ذلك إزاء الرجال والنساء دون تفريق بين الجنسين، كما أنه لم يُفرّق بين الغني والفقير، ولا بين الشريف والوضيع، وكان يسجد للمسلم والمسيحي واليهودي، وللبقال والحداد والجزار، وللمرأة المصونة والمرأة التي تبيع جسدها مضطرةً، وكلما انتقده أحدهم على هذا الموقف، أجاب بلا تردد (لولا هؤلاء النسوة المظلومات ما استطعتم أنتم أن ترفعوا رؤوسكم افتخاراً بالشرف!!).

من ناحيةٍ أخرى، رفض الرومي أن يتزوّج بامرأتين في آنٍ واحد، كما أبى التسري بالجواري، وامتنع عن شراء العبيد، وربما

Twitter: @ketab_n

كان الرومي في هذا كلّه متأثراً بآراء حكيم المعرة أبي العلاء، فقد أشرنا فيما سبق من الفصول إلى أنه نال إجازته الدراسية في حلب على يد القاضي ابن العديم المعروف بحماسه الشديد في الدفاع عن المعرّي وردّ كيد الجامدين المتحجّرين عنه.

ومما يرسم صورةً واضحةً للدور الإيجابي الذي أراد الرومي أن يلعبه في إصلاح المجتمع من طريق رفع المستوى الأخلاقي للأفراد «من رجالٍ ونساء»، دعوته المستمرة إلى الحب وإيثار الآخرين على النفس، ورسم أشنع الصور للأنانية المُفرِطة التي كانت سمة سلاطين ذلك العهد وحُكّامه وبطانتهم، يقول:

(في دنيانا هذه، لم نعقد مع أي سلطان أو حاكم اتفاقاً شخصياً من أجل مصلحةٍ فردية، نحن نرفض أن نمتلك بيتاً نسكنه، لأن بيتنا ومأوانا هذه الأرض الجميلة الواسعة تحت القبلة الأطلسية العظيمة).

قد يتساءل القارئ الفطن عن المقاييس الخُلقية، أو المبادئ الفلسفية التي استند إليها الرومي في دعوته الاجتماعية الأخلاقية، والواقع أن أقوال الرومي وآراءه ومسالكه ذاتها تُثبت تأثّره الشديد بالمذاهب الإغريقية الهيلينية الشهيرة: (الكلبية) و(الأبيقورية) و(الرواقية)، فضلاً عن (الأفلاطونية المحدثة) التي يعتمد التصوّف عليها اعتماداً جوهرياً.

فيما يلي نُشير بشكلٍ مختصر إلى أهمّ العناصر التي اقتبسها الرومي عن هذه المذاهب إتماماً للفائدة، وسداً لفراغٍ يحسّه قارئ كتب التصوف دائماً، لأن هذه المؤلفات تتغافل عن التطرّق إلى المذاهب الفلسفية المذكورة، اعتقاداً من مؤلفيها بأنّ التصوف لا

Twitter: @ketab_n

صلة له بالفلسفة، وربما تكوّن هذا الاعتقاد بسبب العداء الصريح الذي يُجاهر به المتصوفة نحو الفلسفة والفلاسفة، في حين يسهُل على كل دارس للفلسفة وتاريخ الفكر الإنساني أن يكتشف مدى اعتماد التصوف على المذاهب الفلسفية الفكرية الشرقية والغربية على السواء.

1- المذهب الكلبي (Cynicism):

اعتقد ديوجينس (Diogenes) (مؤسس هذا المذهب الذي ازدهر في القرن الرابع قبل الميلاد) بأنّ الدين شيء فطري في النفس، من ثم، فهو في غنىً عن المظاهر الشكلية والطقوس الخاصة، وأعلن أن اختلاف الشعائر وتباين المعتقدات الدينية هو السبب الأول في نشوب الحروب بين البشر. وذلك، دعا إلى التمسّك بالفضائل الحقيقية، كالشجاعة، والحِكمة، والبساطة، ونهى عن الجري خلف الأوهام، أي القيم الزائفة التي يبتدعها الناس لأنفسهم، ثم يُصدّقونها، كالثراء والجاه والسلطة والجبروت، وما إلى ذلك. وهكذا، رفض ديوجينيس فكرة التمايُز بين البشر، وسخر من تفضيل الناس لأنفسهم على الآخرين، لمثل الاعتبارات المذكورة، ودعاهم للعودة إلى الفطرة التي يحكم بها العقل ذاته، وأعلن أن العقل هو الله في نفوسنا. فهو خير مُرشد وأفضل دليل.

في رأي ديوجينيس، إن الإنسان السعيد، هو الذي يتصرّف بما توحيه إليه فطرته، وليس بحسب أعراف الناس وتقاليدهم وأوهامهم، وكان يضرب مثلاً على هذا بقوله إن البِدائي لا يُعذّب نفسه بفكرة الخطيئة الأولى التي وردت في كتب اليهود، بل إن البدائي يحقق

Twitter: @ketab_n

رغباته الأصيلة كما تفعل الحيوانات جميعاً، سواء بسواء! وهكذا، فهو سعيد ناعم البال أبداً.

أطلق ديوجينيس على الحياة التي يُريدها لأتباعه اسم (حياة الكلب)، ولذلك سُمّي مذهبه بالكلبي، فالكلب جسور مخلص، وطبيعي لا يعرف التكلُّف والتصنّع، يفعل كل ما يعنُّ له، دون شعورٍ بالحياء، والكلب لا يحمل أفكاراً ولا نظرياتٍ زائفة كما يصنع البشر، وهو لا يملك من الرغبات إلا أقلّها، المهم عنده أن يسدّ حاجاته الأساسية الطبيعية، فهو في غير حاجةٍ إلى المسكن والمتاع والأثاث، وهو لا ينتمي إلى عشيرة أو طبقة أو دولة، وهو لا يلتمس ملكاً أو نفوذاً أو جاهاً، أو رتبةً أو سلطة، كل ما يحتاجه يتلخّص في الطعام والشراب، وما إلى ذلك، ثم الدفاع عن النفس، وهو يقوم بكلّ ذلك بنفسه دون الاتّكال على أحد، أو إجبار أحد على أداء تلك الواجبات بدلاً عنه. هكذا، فأتباع ديوجينس يجب أن يكتفوا بغطاءٍ لدفع البرد، وعصاً لدفع الوحوش الضارية، وإناء يُستعمل للطعام والشراب في وقتٍ واحد، ذلك هو متاع الشحاذين، ويجب أن يكتفي به الإنسان! وكان ديوجينيس ينام في المقبرة أثناء البرد والمطر، ويأخذ طعامه من البشر كلما جاع، دون أن يقوم بأي عمل!

جحد ديوجينيس جميع دساتير البشر وقوانينهم، وسخر منها، ولم يعتَرِف بأية دولة أو سلطة على وجه الأرض، وعدّ نفسه مواطناً للأرض كلّها، وأعلن أن جميع البشر وكل الوجود أخوةٌ له.

يروي المؤرّخون أن اليونان كلها راحت تتناقل حكايات ذكاء ديوجينيس وأقواله اللاذعة، وذاعت حكايته مع الإسكندر المقدوني

Twitter: @ketab_n

الكبير، فقد جاء الإسكندر بنفسه ليُقابل الفيلسوف المتمرّد، ووقف أمامه ساكناً، كان ديوجينيس ساعتئذٍ مفترشاً الأرض في الهواء الطلق، فسأل الإسكندر إن كان يتمنّى أو يطلب شيئاً، فقال ديوجينيس:

- نعم تحرّك شيئاً لأنك تحجب عنّي الشمس!

سكت الإسكندر قليلاً ثم قال:

- لو لم أكن الإسكندر لتمنّيت أن أكون ديوجينيس!

كان ديوجينيس يسير في ضوء النهار حاملاً مصباحاً مضيئاً ومشتعلاً، وحين يسأله الناس متعجّبين عن سبب ذلك، كان يُجيب:

- أنا أبحث في الدنيا عن رجلٍ واحد!!

ظلّ ديوجينيس نموذجاً ثابتاً للمُناضل الشجاع ضد أهوال الحياة، كان شعاره ما يأتي (لا تخف من شيء ولا ترغب في شيء ولا يكن لك شيء). ومن طبّق هذا الشعار في حياته فلن يتذوّق مرارة خيبة الآمال.

تلك هي أهم الخطوط الرئيسة للمذهب الكلبي الذي أسّسه ديوجينيس، والخطأ الأساسي في هذا المذهب يكمن، بحسب رأي المفكر جلبرت موراي (Murray) في سيكولوجيته الزائفة، التي شاعت بين جميع حكام العالم، في القرون التي سبقت ميلاد المسيح، واستمرّت طوال القرون الوسطى، أي الاعتقاد بأنّ خلاص الإنسان لا يكون إلا بتحرّره من ضغط رغباته وعواطفه وأحاسيسه، في حين تثبت السيكولوجيا الحديثة أن الحياة بدون المشاعر والنزعات والانفعالات وما إليها، شيء مستحيل من الناحية البيولوجية، وديوجينيس ذاته لم يعِش مجرداً من الأحاسيس

Twitter: @ketab_n

والانفعالات والرغبات، ذلك أنّ أي ناقد ذكي، قادر بسهولة أن يكتشف بأن ديوجينيس كان شخصاً طموحاً طالباً للشهرة وذيوع الصيت، وقد حقّق مطلبه بغرائب مسالكه وعجائب أقواله، فاستطاع أن يبلغ شهرة الإسكندر المقدوني، وهو ما زال على قيد الحياة، وهل هذا قليل؟!

أما الأسباب التي حدَت بديوجينيس لاتخاذ ذلك الموقف الرافض للمدينة وللأعراف الاجتماعية، فيمكن فهمها إذا ما تذكّرنا أنه عاصر احتلال المقدونيين لبلاده: اليونان، وأن شعور الذل أو الهوان الذي ظلّ يُعذّبه ويقضّ مضجعه ربما كان المسؤول الحقيقي عن فلسفته الساخرة كلها.

كما هو واضح، تبدو كثير من آراء الرومي وكأنها مقتبسة من فلسفة ديوجينيس، لكن الرومي لم يأخذ المذهب الكلبي بحذافيره، بل انتقى منه ما رآه مناسباً من الآراء!

قبل أن أختم هذا الحديث عن المذهب الكلبي، أرى من المفيد أن أُقدّم للقارئ مقارنةً طريفة عقدها جلبرت موراي[1] بين أفلاطون وديوجينيس. ذلك أن أفلاطون جحد أيضاً المؤسسات الاجتماعية كمؤسسة الزواج ونظام الحكم في أثينا، وديانة الإغريق، لكنه برفضه للنظام الاجتماعي والسياسي لم يشأ أن يهدم فحسب، وإنما حاول البناء، بأن رسم الخطوط الكاملة للمدينة البديلة (الجمهورية)، أما ديوجينيس، فإنه حين هدم كل شيء، لم يُقدّم أية خارطة للبناء الجديد. وتلك هي مشكلته التي لم يتوصّل إلى حلّها.

---

(1) كتاب: *Five Stages of Greek Religion*, by Gilbert Murray.

Twitter: @ketab_n

أقتبس فيما يأتي بعض أقوال الرومي التي تنطبق على أفكار ديوجينيس تماماً:

1- العالم، عالم الناس، يدور على الخيالات والأوهام، فحطِّم القيود، وحرِّر نفسك منها جميعاً.

2- كنا جميعاً جوهراً واحداً، كنا مثل الشمس، ومثل الماء، بلا قيود، ولا عُقَد.

3- ابعِدوا عن أصحاب المذاهب وأهل الأفكار، فليس من عاقبةٍ لخلافاتهم غير مسيل الدماء أنهاراً.

4- لا تلجأ إلى الكذابين، حَمَلة السيوف المصنوعة من خشب، فما هم إلا جلودٌ جافة، أحاديثهم زائفة، كالفقاقيع الطافية فوق الماء، وطباعهم جوفاء كالهواء، ودفاترهم تقطر منها الألفاظ مثلما تنسكب قطرات الماء. فمزّقها أيها الحبيب، فسُرعان ما يفنى كل ما يكتبون.

5- من كثرة مجاملة المُتملّقين، تجبّر فرعون وتبختر، فكُن مُتواضعاً ذليل النفس.

6- يا حلقة العميان أحضروا بينكم مبصراً واحداً!

7- أنا أسكن الأرض معك في موضعٍ واحد، لكنني أنطلق دونك إلى السماء مثل زُحل! أما جناحي فقد نبت من ذاتي أنا، ولستُ ألصق جناحاً بالغراء!

8- إذا وضَعت أمام عينيك زجاجةً زرقاء رأيت الدنيا كلها زرقاء!

9- اعلم أنّ خوفك وبأسك، هما صوت الغول الذي يجتذب أذنيك إلى قمامة القاذورات.

Twitter: @ketab_n

10- لا تأسر الهواء داخل الحروف.

ربما ينبغي لنا هنا أن نُوجّه القارئ إلى التشابه الظاهر بين عناصر المذهب الكلبي، والمبادئ التي اعتنقتها طائفة الملامتية في المشرق الإسلامي، أثناء الحكم العباسي، تلك المبادئ التي تعود في الواقع إلى عهود أقدم بكثير، فقد أشرنا سابقاً إلى ظهور دراويش الملامتية بين طبقة الحِرَفيين «الأصناف» الذين كانوا على صلةٍ بالعيارين والشطار والفتوة، وكل هذه الفئات كانت تنتمي إلى فئات أو نقابات كانت موجودة في العهد الساساني قبل الإسلام.

من ناحية ثانية، فإنّ تأثير هذه المعتقدات الشرقية في الفكر الإغريقي لم يعُد خافياً على الدارسين المحدثين. وهكذا، فالمذهب الكلبي، والمدرسة الرواقية، وحتى فلسفة الأفلاطونية الجديدة، كل ذلك نتاج أكيد لامتزاج الفكر الشرقي القديم بالمذاهب الثقافية الإغريقية التي سبقت المسيحية، وهو الذي أطلق عليه في النهاية اصطلاح (الفلسفة الهيلينية).

2- الرواقية (Stoicism):

إن (زينون) مؤسس هذا المذهب، كان يؤمن بأنّ الفضيلة هي أسمى غايات الإنسان، وأن الحياة أشبه ما تكون بدراما وُزِّعَت فيها الأدوار على البشر، ليؤدي كلّ منهم دوره فيها كاملاً، بأقصى ما في طوقه من إجادة. الرواقية إذن تضع للحياة هدفاً أساسياً، وتزامنت هدفية الرواقية باكتشاف الإغريق بأنّ النجوم أجزاء من نظام كوني هائل القوة سرمدي الزمان، وأن هذه النجوم تخضع لنظامٍ جبّارٍ مُتكامل، لا يعرف الخطأ، ولا يحيد عن الهدف. من ثم، فالبشر

Twitter: @ketab_n

الذين هم أيضاً جزء من هذا النظام، مُلزَمُون بأداء أدوارهم المنتظرة منهم، وفي ذلك العهد ظهرت مقولة (الإنسان عالم أصغر مُمثّل العالم الكوني الأعظم).

من ناحيةٍ أخرى، قال الرواقيون بأنّ (الغاية) التي يسعى الكون إلى تحقيقها ليست ثابتة أو جامدة، بل هي في تغيُّر ونُموٍ أبديين، وأطلقوا على هذا اسم Phasis، وتعني باليونانية (النمو والتبدّل)، لكن الرومان أخطأوا حين ترجموا هذه اللفظة إلى كلمة (الطبيعة)، وبذلك حوّروا معناها، وسلبوها أفضل خصائصها، وهو (النمو)، أو ما نُسمّيه اليوم بالارتقاء. والارتقاء يتّجه لدى الرواقيين نحو تحقيق الكمال، فكلّ شيءٍ في الكون يسعى إلى تنفيذ هذه الغاية، مثلاً: الغزال الضعيف يتحوّل في المدى البعيد إلى أيل قوي، الفأرة الصغيرة تصير جرذاً كبيراً، وعلى ذلك، فواجب الإنسان أداء ما عليه من واجباتٍ عُظمى. الحاكم مثلاً مسؤول عن ازدهار مدينته، وإسعاد أهلها، وحمايتهم من كل الأخطار، الصانع عليه إتقان عمله، الفنان واجبه إبداع الجمال الخلاّق، والأم واجبها حفظ صغارها وتربيتهم، وهلم جراً.

من خصائص الرّواقي أن يتحمّل العذاب إذا اقتضى الأمر، في سبيل تحقيق الواجب المُقدّس. هكذا، فإن الرواقية ساعدت الناس على أن يتقبّلوا الواقع بخيره وشرّه معاً. وبهذا، مهّدت السبيل للمذهب الواقعي في الفن والأدب.

ولما كان هذا المذهب قد أثّر في عقول كثيرٍ من أباطرة العالم القديم، فإنّ (الرواقية) استطاعت أن تنشر بين البشر فكرة الإخاء العالمي، تحت راية الواجب المُقدّس، كما أن الرواقية علّمت الناس

Twitter: @ketab_n

كيف (يتوسّطون) في عواطفهم وانفعالاتهم، فلا يجوز المبالغة في الحزن، ولا المبالغة في الفرح، كلاهما لا يليق بالإنسان المحترم لنفسه.

هكذا، رفعت الرواقية مركز الإنسان في الكون، إذ وضعت على عاتقه عبء بناء المجتمع، وتنظيم الحياة، من أجل تحقيق الهدف الأسمى.

لو راجعنا **المثنوي**، لوجدنا الرومي يشدّد على الفضيلة، لا سيما الفضائل الاجتماعية الإيجابية، مثل العمل، والسعي، وتحمّل المسؤولية، والحمية، والحماس، والشهامة، والكرم، إضافة إلى رهافة الحس، ورقة المشاعر، والإخلاص، وعشق كلّ ما في الكون، والإحساس بعظمة الحياة، وكل هذا مقتبس كما هو واضح من أفكار الرواقية ومبادئها.

نقتبس الآن بعض أقوال أو أشعار **المثنوي** التي تنحو هذا المنحى:

1- من كان بلا أدب، فلا يقتصر أذاه على ذاته، بل تحوّل شرّه إلى نارٍ مُحرقة تعُمّ الآفاق وتزرع الكوارث في كلّ بلاد.

2- في الحديث الشريف «الناس معادن» فتعلّم كيف تُميّز بين الذهب والنحاس وبين الماس والحصى.

3- النوايا الفاسدة سبب هلاك البشر.

4- اللغة الواحدة لا تعني بالضرورة التفاهم والوفاق، لأنّ تشابه القلوب أصدق وأحلى من تشابه الألسن، فابحث عن الروح، ولا تثق بالشكليات.

Twitter: @ketab_n

5- من السهل أن يصول الأسد، ويمزّق الصفوف، لكن الأسد الحقيقي هو الذي يقهر نفسه ويتغلّب على ضعفها.

6- ما دامت عصا الاستدلال والقياس أصبحت آلةً للحرب، فلتحطّمها أيها الأعمى!

7- لا يكن همُّك الطعام والشراب مثل الكلب!

8- الحرص والطمع مظلمان، والشمعة المضيئة هي العقل.

9- الروح لا تُصاب بعلة أخطر من توهّم كمالها!! فيا أيها المدل بذاته حاذر أن تخدع نفسك.

10- الروح رفيقة العلم والحكمة، ولا شأن لها بالتركية أو العربية أو الرومية.

11- ما أسعد ذلك الذي يغتنم أيام شبابه ليؤدي فيها دَيْنَهُ للحياة. بادر إلى اغتنام أيام قوتك قبل غروب شمسك، أي حين يتجعّد وجهك مثل ظهر الحرباء ويعجز لسانك عن النطق وتسقط أسنانك ويفنى ذوقك، حينئذٍ لن يُجديك الندم شيئاً.

12- الطيّب تبقى أعماله بعد موته، نضرة حية لا تموت.

3- الأبيقورية (Epicureanism):

هي المدرسة الكبرى الثالثة للقرن الرابع قبل الميلاد، وقد ناقضت أختها «الرواقية» في مسألة الأخلاق.

واجهت الأبيقورية هزيمة أثينا على يد المقدونيين، بروحية مُخالفة لموقف الرواقيين، فقد وجد أبيقور أن الناس يعذّبون أنفسهم دائماً بدون مبرِّر، وتنتابهم المخاوف والوساوس التي لا تقوم على أسبابٍ معقولة. فكان عليه أن يُعلّمهم الشجاعة والقوة، والقدرة على

Twitter: @ketab_n

التحمّل. ولما كان أشدّ ما يخشاه الناس في عصره: آلهتهم خاصةً عندما تغضب، فقد أعلن أن الآلهة مباركة، والمُبارك لا يمكن أن يحقد أو يُصيب الناس بشرٍّ أو أذى.

أما شرور البشر أنفسهم، فالتخلُّص منها يتمّ من طريق سيادة العدل والإنصاف، ورفع الظلم، ومنع الجور، فضلاً عن ضرورة تعلّم كل فرد التجلّد والصبر والقدرة على التحمُّل.

الناس يخشون الموت، والموت في رأي أبيقور حالة مُماثلة للنوم، والنائم مرتاح ولا يخاف. والناس يخافون الموت لأنهم لم يُجرّبوه، فمن الواجب على كلّ إنسان ألا يتوقّع الشر والألم قبل حدوثها.

والحسد هو الشيء الثالث الذي يُعذّب البشر ويسلبهم الراحة والفرح، فما عليك أيها الإنسان إلا أن تُخلِّص نفسك من هذه الآفة القذرة قبل أن تسير بك إلى الهلاك، ولو استعاض الناس عن رذائل الحسد والغيرة والحرص، بفضائل الحنان والشفقة والحب، لفاض بهم السرور، وامتلكوا ناصية السعادة.

مثل الكلبيين والرواقيين، دعا أبيقور إلى القناعة والزهد، وحذّر الناس من عبادة المال، ومن الأنانية المُزرية، ونادى بمبدأ تغليب المعنوي على اللذائذ الحسية (بعكس ما يُشيعه أعداء الأبيقورية).

آمن أبيقور بأنّ المعرفة مُمكنة من طريق الحواس، أي بالتجربة والتطبيق، بعكس المتشككين الذين زعموا أن المعرفة في هذا العالم مستحيلة، مُشيرين إلى خداع الحواس وتضليلها، وهذا رأي قديم يُخالف العلم، وقد أسقطته الحضارة الحديثة، وأثبتت فساده. اكتشف أبيقور بأنّ حواسنا لا تخدعنا، لأن وظيفتها الأساسية هي

Twitter: @ketab_n

أنها تعكس ما ينطبع عليها من مُحفّزاتٍ خارجية موضوعية. قال بأنّ الرؤية مثلاً تتم بسبب حدوث تياراتٍ من موضوعٍ خارجي، والتيار يقع على قرنية العين، فتحدث الرؤية بعد ذلك. ومثل هذه التيارات تفيض من جميع الأشياء، ومن كلّ اتجاه، وتتساقط على حواسنا. وهكذا، تحصل المعرفة. فيما عدا الحواس، نحن نتعلم من طريق ما يُسمّى بالمفاهيم العامة التي تُساهم أيضاً في تقديم المعارف إلينا، فنحن نعرف كلّ حيوان نسمع عنه مثلاً، دون أن نراه بأعيننا أو نلمسه بأيدينا.

يعتقد المفكر المعاصر آرثر رودجرز[1] بأنّ فلسفة أبيقور يمكن أن تكون مصدراً لفلسفة جان جاك روسو، حين دعا هذا الأخير إلى فكرته الشهيرة بالعودة إلى الطبيعة، والابتعاد عن تعقيدات الحضارة، والكفّ عن الانهماك بصغائر الحياة اليومية. وقد فصّل أبيقور رأيه بأن نصح الناس بنبذ طرقهم المعقدة في الطبخ، وتجنُّب استخدام التوابل الضارة بالصحة، والاعتماد على الطعام الطبيعي مثل الألبان والحبوب والخضر والفواكه دون طبخها.

ومن أطرف آراء أبيقور، استخفافه بمناهج وطرق التعليم في عصره، قائلاً إن إنفاق العمر في حلّ ألغاز الرياضيات، وإتعاب المخّ في البحث عن أسرار الكون، مضيعةٌ للوقت، فضلاً عن أن ذلك (لا يقودنا إلى السعادة المنشودة)، ذلك أن الإنسان، بحسب رأيه، لا يحصل على هدوء البال وراحة النفس إلّا بمجالسة الأحبة، ومعاشرة المهذبين من الناس، أولئك الذين خلّصوا أنفسهم من

---

(1) كتاب: *A Student's History of Philosophy*, by A. K. Rogers.

Twitter: @ketab_n

الحرص والحسد والطمع، ورفضوا مُجاراة غالبية الناس في جريهم خلف أسباب الثراء والجاه والنفوذ.

أما التُّهمة التي وُجّهت إلى أبيقور في أنه كان يدعو إلى التحرُّر من الفضيلة، فإنها تُهمة باطلة، إذ ليس في سيرته النبيلة ولا في كتاباته المُدوّنة ما يُشير إليها إطلاقاً. بالعكس، فإنه كان يُعلن دائماً بأن الإنسان لا يكون سعيداً إذا كان خلواً من العقل والفضيلة، لأن السعادة تتطابق مع الفضيلة دوماً.

بشّر أبيقور بأن الكون عقلاني، وأن الإنسان حرٌّ في اختيار طريق الفضيلة، غير مُضطرٍّ إلى ارتكاب الآثام، كما يقول المتشائمون، وأنه قادر على تجاوز عبودية المجتمعات الظالمة.

أما الحملة الظالمة التي شُنّت على أبيقور في حياته وبعد موته، فتعود إلى أسبابٍ، كان أهمها، حمايته للعبيد الآبقين والنساء المظلومات، فقد فتح (حديقته) الشهيرة لكل مظلومٍ من البشر دون تفريقٍ بين سيّدٍ وعبد، أو امرأة ورجل، أو شيخ وحَدَث، مما أثار عليه أصحاب المصالح التي تضرّرت مصالحهم بهذه الدعوة إلى المساواة التي لم تكن معهودة في تلك العصور.

من المبادئ التي بشّرت بها الأبيقورية، الدعوة إلى نبذ الخرافات، وضروب الشعوذة والسحر، وما إلى ذلك، فقد شنَّ أبيقور حملةً شعواء على جميع أشكال الخرافات والأوهام وخيالات الناس الأميّين السُذّج، في الوقت ذاته الذي بشّر فيه بآراء (ديموقريطس) العلمية التي تؤكد على حرية إرادة الإنسان.

يقول المفكر (جلبرت موراي) أن الرواقية والأبيقورية تُكمّل كلٌّ منهما الأخرى، ولا تتنافران. وحتى يومنا هذا، فهذان المذهبان

Twitter: @ketab_n

يقتسمان بينهما كلّ أفاضل البشر، وكل المفكرين، وعلى الأخص في العالم الغربي.

لكن النقد الأساسي، الذي يُمكن توجيهه إلى فلسفة أبيقور، بحسب رأي جلبرت موراي، هو ذلك الحزن المُخيّم على عقيدته كلها، ففي مذهبه يبدو الكفاح غير مُجدٍ، ويعجز الفرد تماماً إذا حاول تحسين العالم، وأحسن نصيحة يُقدّمها للناس، الهرب من الحياة، فلسفته إذن فلسفة ضعف وليست فلسفة قوة. ومن هنا، كانت دعوته إلى تخفيف الانفعالات وتعديل العواطف الحادة، وسكب الماء البارد على الأحاسيس الشديدة، والانحراف عن سُبُل المطامح الكبيرة. كان همّه الأعظم التخفيف عن الناس وقت الكوارث العُظمى، مثلما حدث أيام هزيمة أثينا تحت أقدام أعدائها المقدونيين. كان همُّه مُنصباً على تقليل رغبات الإنسان، وألا يتوقّع الكثير من هذا العالم.

تجاوزت الأبيقورية منافستها الرواقية في المشكلة الأخلاقية، ففي حين ترى الرواقية أنّ مَنْ لم يكُن خيراً، فلا بد أنه شرير، أعلنت الأبيقورية أنّ للخير درجات، وللشر درجات، وأنّ هناك ما يُسمّيه العرب بـ (أهون الشَّرَّيْن)، يقول شاعرهم (حنائيك بعض الشر أهون من بعض). ذلك أن الإنسان لا يكون خيِّراً مائةً في المائة، ولا شريراً مائة في المئة، بل هناك درجات ومراتب ومعايير، قد تتباين وظروف كثيرة تُخفّف من أحكامنا أو تُعدِّلها.

لكنّ هذين المذهبين يعودان ليتّفقا في إيمانهما بالنُبل المطلق للحياة الروحية، وأرجحية جمال النفس ولطف الطباع، على امتلاك الأشياء المادية، وتكديس المال والفضة والذهب، والحرص

Twitter: @ketab_n

والمحافظة على كل ذلك. لقد آمن فلاسفة هذين المذهبين بأنّ الحكمة والفضيلة أشرف وأثمن من جميع مجوهرات العالم، وأن غاية الإنسان العظمى هي الحصول على الانسجام والوفاق مع نفسه ومع الآخرين.

وقد ظلّ أعاظم رجال ونساء العهود القديمة يتصرّفون جيلاً بعد جيل بحسب هذا المفهوم الفلسفي، وكان الناس يحترمون أولئك الحكماء الأفاضل أشدّ الاحترام، ويرفعون من قَدَرِهم، ويتّخذونهم القدوة العظمى في جميع مسالكهم وتصرّفاتهم، وفي تراثنا الإسلامي يمكن أن نعدّ الفارابي أصدق مثل لهذا الاتجاه.

نقتبس الآن شيئاً من أشعار **المثنوى** التي تُوضّح تأثره بالمذهب الأبيقوري:

1- القول بالجبر معناه النوم أثناء السفر، ممّا يُوقع المسافر في المهالك.

2- الدنيا سجن كبير، فخلّص نفسك من قيودها.

3- ليكن بحثك مُنصباً على الحقيقة، وليس ظلها.

4- ما استطاع الإنسان أن يتغلّب على جميع المخلوقات إلا بالعقل والعلم.

5- الدنيا في تجدّدٍ مُستمر، وكل شيء لا بدّ أن يتحوّل إلى شيءٍ آخر.

6- الحياة تآلف بين الأضداد، والموت يبدِّد تلك الألفة.

7- إنّ (تحت) و(فوق) و(أمام) و(وراء) أوصاف للجسم المحدّد الذي تراه العين، أما الروح المتلألئة فليست ذات اتجاهٍ معين.

Twitter: @ketab_n

8- لكل نبيّ ولكل وليّ سبيله الذي اتّخذه لنفسه كي يصل إلى الحقيقة، المسالك مهما اختلفت، تُوصلنا إلى غايةٍ واحدة.

9- ليس دفتر الصوفي سواد الحروف، إنما دفتره قلبٌ أبيض شفاف كالثلج.

10- طالما شغلتَ نفسك بتقديم الدسم والحلوى لبدنك، فلن يتهيأ لك رؤية جوهرك الجميل.

11- ذلك المنافق يضع المسك فوق جلده، لكنه يرمي روحه داخل وعاء القمامة!

12- لا بد لنا من نورٌ بريء من صدأ التقليد والتضليل، نور ينفذ إلى أعماق القلب من طريق تيار الفكر، فنعرف بواسطته حقيقة الدنيا، نعلم أن ملّة العشاق مفصولة عن جميع الملل والعقائد.

13- اختلاف الخَلق يقع في جراء الأسماء، فإذا تقدّموا نحو المعنى ساد الوئام وانتهى الشقاق.

14- ما مرآة الروح إلا وجه صديق، حين رأيتك قلت لنفسي: لقد وجدتُ في عينيه شُعلة الحق.

فيما عدا المذاهب الفلسفية المذكورة، تُظهِر أقوال الرومي وأشعاره دلائل أكيدة على تأثّره الشديد بنظريات الفلاسفة الذريين، لا سيما هيراقليطس، وديموقريطس. ولا شكّ أنّ إتقانه للغة الإغريقية، فضلاً عن اللغة اليونانية الدارجة، في عصره، سهّل له الاطّلاع على أفكارهم، ونظرياتهم، ويبدو أن أهم ما أثار اهتمامه من تلك الآراء، مبدأ الحركة في الكون، وانتفاء السكون، وفكرة تجدّد الحياة باستمرار. يقول الرومي في بعض أشعاره:

Twitter: @ketab_n

(في كل شهقة تخلق الحياة وتتحول إلى شيء جديد بعد قليل، يجري ذلك دون توقف إلى الأبد. غير أننا لا نرى أن ثبوت الأشياء في أماكنها، ولذلك يصعب علينا أن نتصوّر وجود الحركة والتحوّل. ومع ذلك، فنحن نحس بجريان العمر في أجسادنا، في عظامنا وجلودنا وأعضائنا. هذا يدلنا على وجود الحركة، الواقع أنه ليس هناك في هذا العالم العظيم كله شيء ثابت أو ساكن على الإطلاق، فكل عالم يلد في كل لحظة عالماً جديداً، التراب يمتص الماء بفمٍ لا نراه، فتشق النباتات طريقها نحو الهواء، والحيوان يتغذّى بالنباتات، فينمو، والإنسان يأكل النباتات والحيوانات فيحيا، وهلم جراً). وفي موضع آخر يقول:

(رأيت ذراتٍ كثيرةٍ تتصارع فيما بينها في حربٍ أبدية، ذرة تتحرك نحو اليسار، وأخرى نحو اليمين، وثانية تهبط إلى الأسفل، فانظر يا صاحبي وافهم هذه التناقضات، وسوف ترى دوام تلك الحركة المريعة التي بدونها لن تكون الحياة).

هكذا آمن الرومي بنظريات هيراقليطس في الصيرورة الدائمة للخلق، وتوصّل إلى أن الأجساد عند الموت تتحوّل، أي تتجدّد، فهي غير مُعرّضة للفناء، وهذا التحوّل يؤدي إلى تحسين الحياة وارتقائها، فلا عجب أن يدعو مُريديه إلى عشق الجديد، لأنّ التجدد سُنّة الحياة.

لعلَّ من المناسب في هذا النظام أن أعرض بعض أفكار هيراقليطس التي وَجَدَت صدىً حسناً في نفس جلال الدين الرومي، وانعكست بوضوح في أشعاره.

Twitter: @ketab_n

من آراء الفيلسوف الإغريقي الديالكتيكي هيراقليطس[1]:

1- الكون المنظم (Kosmos) هو عالم أزلي أبدي، تقوم فيه النار بتحريك جميع الأشياء، ويقوم هذا الكون على فكرة التضاد (الديالكتيك)، المؤدي إلى الحركة والارتقاء، والحركة عند هيراقليطس هي المُطلق، واكتشف أنّ المادة لا تكون بدون حركة. وأن هذه المادة المتحركة هي أساس الوجود.

2- كل صفة تتحول إلى نقيضها، فالبارد يصبح حاراً، والحار يصبح بارداً، والرطب يصبح جافاً، والعكس بالعكس.

3- المادة تفرّق وتجمع، وتزيد وتنقص.

4- لا يمكن النزول في ماء النهر مرتين، لأنّ مياهاً جديدة تغمرك دائماً. (يقصد أنّ كل شيء في الكون مُتغيّر، كل شيء في الكون هو نفسه وفي الوقت ذاته ليس هو).

5- التّنازع (التضاد) وليس الانسجام (الهارموني)، هو سِرُّ الوجود، لأن التضاد هو سبب الحركة، ولولاه لسيطر السكون والجمود على العالم وانتهى العالم إلى الفناء.

6- الحمير تؤْثِر التبن على الذهب!

7- أغلى ماء وأرخصه هو ماء البحر. إذ إن السمك يشرب ماء البحر فيحيا به، في حين يهلك الإنسان إذا شربه، فالأمور إذن نسبية، وليس ثمة حقيقةً مطلقة أو ثابتة عند هيراقليطس، الأمطار مثلاً مفيدة في وقتها، مضرّةً زمن الحصاد، وهذا القانون يصحّ على كل

(1) تصور الديالكتيك عبر التاريخ، نسيب نمر، بيروت.

Twitter: @ketab_n

شيء، فكل شيء يُمكن أن يكون مُفيّداً ومضراً، وذلك بحسب الظروف والأشخاص والأحوال.

8- ما كان للعدالة أن تُعَدّ فضيلة لولا وجود الأضداد.

9- الطريق إلى أعلى وإلى أسفل واحد.

10- البداية والنهاية في محيط الدائرة واحدة. (يقصد أن العالم بلا بداية وبلا نهاية).

في بداية هذا الفصل، ذكرنا أن المواضيع التي شغل الرومي نفسه بها هي المواضيع ذاتها التي انهمك فيها جميع مفكري القرون الوسطى، ثم أننا قدّمنا شرحاً مختصراً للمذاهب الفلسفية التي استند إليها فكر الرومي. وعلى ذلك، فليس من الضروري تفصيل الحديث عن حكايا **المثنوي**، أو عرض مختلف الأفكار الواردة فيه. خصوصاً، وأن الرومي شأنه شأن جميع المتصوفة، كان يتعكز على مذهب الأفلاطونية المحدثة التي لا أجد أية فائدةٍ من التعريف بها، ما دامت كُتُب ومؤلفات التصوف تفيض شرحاً وتفصيلاً، وتوضيحاً لها، دون كل المذاهب والنظريات الفلسفية!

في ختام البحث، أتمنى أن أكون قد وُفّقت لإبلاغ القارئ الفكرة الأساسية التي توصّلت إليها، وهي أن جلال الدين الرومي اتّخذ التصوف ستاراً أراد به أن يشفّ عن اتّجاهٍ مُبكّرٍ لرومانتيكية مُتحرّرة النزعة، شبيهة برومانتيكية القرن التاسع عشر في أوروبا. فكثير من «غزلياته» و«رباعياته» و«قصائده» تستدعي إلى أذهاننا أناشيد شيلي وكيتس وجيته وشيلر، وترتسم أمام أعيننا رسوم وليم بليك ولوحات تيرنر ومناظر فان غوغ، وموضوعات دولا كروا، وتُستثار

Twitter: @ketab_n

في أسماعنا ألحان بتهوفن وشوبان، وتشايكوفسكي، وهلم جراً. بالطبع، فليس المقصود بهذه المقارنة التمثيل المتطابق الدقيق، إنما أرى أن المُعجبين، بكل هؤلاء الرومانتيكيين من الشعراء والرسامين والموسيقيين، لا بد أن يضيفوا جلال الدين الرومي إلى خانتهم دون تردد، ذلك أن الرومي كان ذا أهداف فنية واجتماعية قريبة من أهداف هؤلاء الرومانتيكيين، وكان مزاجه الانفعالي مشابهاً لأمزجتهم، هذا فضلاً عن امتلاكه لخيال محلق إبداعي لا يقل عمقاً وبعداً عمّا كانوا يمتلكون.

من ناحيةٍ ثانية، عدّ جلال الدين الرومي نفسه مسلماً للناس، للأفراد بشكلٍ أساسي، معتمداً السيكولوجيا، وسيلة أساسية في التأثير في النفوس، وبهذا كله، فهو **أشبه ما يكون بأبناء عصرنا الحديث**. قلباً ومزاجاً وطموحاً[1].

---

(1) تأثر الرومي بأبي بكر الرازي، رائد الروح الثورية في القرون الوسطى. ربما كان إعجاب الرومي بالرازي الفيلسوف، هو المسؤول الحقيقي عن الروح التحررية الثورية في فكره، ذلك أن طائفةً كبيرة من التعاليم والمبادئ التي نادى بها جلال الدين الرومي وتتردد بكثرة في مؤلفات الرازي، وتأخذ منها حيّزاً واسعاً.

الرازي نادى بالمساواة بين البشر، دون النظر إلى ألوانهم أو أجناسهم، أو طبقاتهم الاجتماعية، وشملت دعوته إلى المساواة، وقوفه ضد استعباد الرجل للمرأة، وضد العبودية والاسترقاق، وكان الرازي من أوائل الفلاسفة المسلمين الذين اكتشفوا تأثير العامل الاقتصادي في بناء المجتمعات، ومن أجرأ دعواته مُناداته بإلغاء الحكومات وإبطال شتى المؤسسات التابعة للسلطة أو التي تدعم السلطة، كالمؤسسة الدينية مثلاً، وربما كانت هذه الآراء الثورية هي المسؤولة عن فقدان كثير من مؤلفاته وسكوت أغلب الباحثين عن ذكره، وقد يتساءل السامع: كيف تهيأ للرازي في ظلمات =

Twitter: @ketab_n

يرد في **الموسوعة التركية** *Meydan Larousse* التعليق الآتي المؤيِّد لما أقول:

(كتاب **الديوان** الذي يفيض بقصائد الحب الذي عاشه الرومي، يقابل كتاب **المثنوي** الذي تحتشد فيه أفكاره وفلسفته. في **الديوان الكبير**، نجد أن الفكرة الأساسية هي الحب، الحب الذي يتجلّى في الإنسان، وفي الحيوان، بل حتى في كلّ مظاهر الطبيعة، من أجل ذلك، لا يرى الرومي أي معنى للتفرقة والتمييز بين البشر، بسبب اختلاف أعراقهم وأجناسهم، وأديانهم، وطبقاتهم الاجتماعية، ثم إن الحب، في رأي الرومي، وضعية أو حالة غير قابلة للشرح، لأنها تجربة أو خبرة شخصية. لا يعرفها إلّا مَن عاشها. وحين اعترضه

= القرون الوسطى أن يكتب بهذه الجرأة؟ والجواب، أنه عاش في ظلّ الدولة السامانية فترة، وهم الذين قدّموا الرعاية اللازمة له، ولولاهم لما أفلت من رجال الدين في الدولة العباسية، أما عن عمله لدى العباسيين، فقد اقتصر، على الأغلب، على الطبابة وإدارة البيمارستان وعمل الأدوية، والكتابة حول ذلك. وحصل عندهم على المكانة الرفيعة من هذا الطريق.

والرازي تأثّر بمذهب الذريين وعلى الأخص بديموقريطيس وأبيقور، ومع أن الرازي رفض منطق أرسطو، إلا أنه استفاد من طريقته التجريبية، لأن الرازي كان كيميائياً إضافةً إلى تخصصه الطبي.

فيما يلي نقتبس عن نيكلسون قطعةً من مترجماته عن **الديوان الكبير**، وهي تعكس ما كان للرازي من تأثير في شعر الرومي:

(يا عجباً أنا عند نفسي مجهول، فبالله ماذا أفعل الآن؟ لا أعظم الصليب ولا الهلال، لست مجوسياً ولا يهودياً، لا الشرق ولا الغرب، لا البر ولا البحر لي دار، وليس بيني وبين الملائكة سبب، ما تربيت في الهند ولا في العراق أو خراسان، لا أقيم في هذه الأرض أو تلك، تنزّهت روحي واستعلت في محبوب هو الواحد الأحد).

Twitter: @ketab_n

أحدهم قائلاً (الحب.. دائماً الحب.. ما هذا الحب الذي لا تفتأ تترنّم به دون مللٍ أو كلل؟) أجابه الرومي: (كُن مكاني وسوف تعلم!) على أن جهود الرومي لم تقتصر على تغيير الأمزجة الانفعالية للأفراد، وإنما تعدّت ذلك إلى محاولة رفع مستوياتهم الخُلُقية، من طريق تدريبهم من جديد على عاداتٍ إنسانيةٍ كريمة، تستند أو تقوم أساساً على مفاهيم الأدب والذوق، وحُسن المعشر، وكرم النفس، وسِعة الأفق، وتعلّم التسامح، والإدراك القلبي لمتاعب الآخرين، والميل إلى المساعدة، والتراحم، وحلو الكلام... إلخ. باختصار، كان الرومي مشغوفاً برفع قيمة الفرد، شديد الحرص على إعادة الانسجام إلى روح الإنسان الذي فقَد راحته النفسية، وانطوى على ذاته غريباً متقوقعاً كالحلزون الضعيف!

بالإضافة إلى كل ذلك، توصّل الرومي إلى اكتشاف خصائص سيكولوجية للغة، ربما لم يتهيأ لأحد من قبله أن يفهمها مثله. فقد وجد أن الناس يُستثارون بالكلمات، أي أن للألفاظ قُدرة خفية على تحريك الانفعالات النفسية، ودفع الإنسان إلى العمل والفاعلية، كذلك أدرك أن تأثير الكلام في عقل الإنسان يتمّ بصورةٍ أوتوماتيكية، وأن النشاط العقلي للبشر يتحدد بمقدار أو عدد الألفاظ التي يعرفونها ويستخدمونها في أحاديثهم وكتاباتهم.

ومن محصلة أقوال الرومي، نستطيع أن نرى أنه اكتشف قبل (سبينوزا) أن الأنبياء جميعاً اعتمدوا على اللغة في توصيل رسالاتهم إلى الناس، لأنهم عرفوا ما للغة من تأثير سيكولوجي عميق في النفوس، وما للألفاظ من طاقة تهييجية قادرة على استثارة مختلف الحوافز لدى البشر. ولا شك أنّ إتقان الرومي للغات الإغريقية

Twitter: @ketab_n

والفارسية والعربية، فضلاً عن لغة قومه أي التركية، ساعده على التوصُّل إلى تلك الاستنتاجات التي لم تكن معروفةً بين مُفكّري الحضارات القديمة. إن إدراك الرومي لهذه الحقائق العلمية هو الذي يُفسّر اعتقاده الذي ردّده في **المثنوي** في أن الأديان، مهما اختلفت عن بعضها، لا بد أن توصل البشر إلى الأهداف والغايات ذاتها (الهدف واحد والسُبُل مُتعددة) على حدّ قوله. وقد لاحظ أن الشعوب في أيام بداوتها، كانت تُعدّ الشاعر كاهناً أو ساحراً أو نبياً، وذلك بحسب درجة تطوّرها الحضاري، والكاهن والساحر والنبي يستخدمون اللغة واسطةً أساسيةً في تبليغ أفكارهم ومطالبهم وأوامرهم إلى الناس. إن استنتاجات الرومي هذه يجب ألا تُثير دهشتنا، فالصوفي والساحر والكاهن، على أية حالة، لهم أهداف متقاربة، ويستخدمون وسائل متشابهة أيضاً. على أنّ المهم في هذه القضية أن جلال الدين الرومي تجاوز جميع المتصوفة حين فهم حقيقةً خارقةً أو هكذا بدت له، فلقد أدرك أن الناس في واقع الأمر يعبدون (الكلمة)، وربما تعلّم من المعتزلة أن آلهة الشعوب جميعاً ذات صفاتٍ لفظية أكثر منها تجريدية. فآلهة كل شعب من الشعوب تتميّز بخصائص لا تتجاوز قدرات لغة ذلك الشعب. ولكي يوضح الرومي هذه المسألة لمُريديه، قصّ عليهم في **المثنوي** حكاية راعي ساذج قابله النبي موسى في البرية ورآه يُناجي ربّه بانفعالٍ شديد، فمضى يستمع إليه. وإذا بالراعي يُخاطب ربّه بصورةٍ غير لائقة، كان يمنّ على الله بالأطعمة اللذيذة، التي قدّمها له قرباناً: الجوز واللوز والفواكه والعسل، إلى آخر هذه الأفكار الضحلة التي تُجَسِّد سذاجة الراعي. عند هذا، لم يطق موسى صبراً، فمضى يُوبّخ الراعي، ثم

Twitter: @ketab_n

شرع يُعلّمه طريقة مخاطبة الرب، بحسب جلاله وعظمته، لكنّ الراعي المسكين لم يستطع أن يفهم من كلام موسى حرفاً، ولم يستطع أن يعرف موضع الخطأ في دعائه ونجواه، فأطرق محزوناً، ثم انصرف يائساً من غفران الله. عند ذلك نودي موسى: «هل أمرناك يا موسى أن تُبعِد الناس عن سبيلنا؟ أهذا ما أرسلناك من أجله؟ ذلك الراعي المؤمن كان يُناجينا بقلبٍ مُخلصٍ صادق لا يعرف الكذب ولا التكلّف، فلماذا زجرته؟ وها أنت تُبعده عن عبادتنا» بكى موسى واستغفر ربه بعد أن أدرك خطأه.

هذه الحكاية قصد بها الرومي أن يُوضّح للناس دور اللغة في إبلاغ الرسالات الدينية، وهي تُثبت فهمه الحقيقي لهذا الدور، فلنُصغِ إلى ما يقول بعد ذلك (كثير من الصوفية يتوهّمون بأنهم يعشقون الذات الإلهية، وما هم في الحقيقة إلّا عشّاق الأسماء والصفات الموهومة)!! ثم يمضي شارحاً مقصده (ماذا ينتج من الأسماء والصفات؟ الخيال والوهم. وإنما يتعيّن على العاشق أن يتجاوز الاسم والصفة، ويبحث عن صاحب الاسم، أي عن المدلول).

لم يفقد جلال الدين الرومي إيمانه بارتقاء الإنسان وتقدّم الحياة بكل أشكالها وأصنافها، وظلّ مُصراً ومؤكداً لأهمية دور الإنسان في هذا التقدم، يقول العالم جوليان هاكسلي أول رئيس لمنظمة اليونسكو العالمية (إن ارتقاء الإنسان ليس بيولوجياً، بل سيكولوجياً اجتماعياً. إن تقدّم العلوم والتكنولوجيا، قد قفزا بالإنسان في مئة السنة الأخيرة، قفزاتٍ لم يعرف الإنسان مثيلاً لها خلال ملايين السنين الماضيات، وهذا دليل أكيد على أهمية دور الإنسان نفسه، في تقدّمه وارتقاء نوعه).

Twitter: @ketab_n

كان جلال الدين الرومي واحداً من أوائل المُبدعين الذين فهموا هذه الحقيقة، فهو، من ثم، رائد الفلسفة الإنسانية الأخلاقية التي يدعو إليها أعاظم فلاسفة عصرنا، الفلسفة التي تُشدّد على العبء المُلقى على عاتق الإنسان، من أجل أداء دوره الإيجابي النبيل، في سبيل تقدّم الإنسانية، وتكييف الطبيعة، بهدف تحسين شروط الحياة لجميع الكائنات.

Twitter: @ketab_n

المحتويات

مقدمة البحث: التصوف - جذوره - ثماره 5

الفصل الأول: مدينة بلخ - حاضرة خراسان 23

1- الأرض والتاريخ 23

2- الأديان القديمة في إيران وخراسان 27

الفصل الثاني: القرن السابع الهجري أو الثالث عشر الميلادي عصر جلال الدين الرومي 33

1- الخلافة العباسية في بغداد 34

2- الأوضاع في مصر والشام 48

3- شرقي الدولة الإسلامية 55

4- دولة الموحدين في الأندلس 60

الفصل الثالث: سيرة موسوعية عابرة للزمان والمكان 65

1- مصادر سيرة جلال الدين الرومي 65

2- سيرة جلال الدين الرومي 70

أ- المولد والنشأة في بلخ 70

Twitter: @ketab_n

ب- فترة الأسفار 81
ج- المستقر الأخير في قونيا 87
1- عهد التدريس والوعظ والإفتاء 87
2- اللقاء بشمس الدين التبريزي 95
3- ما بعد شمس الدين 140

الفصل الرابع: مذهب جلال الدين الرومي 161
مدخل 161
1- تأثيرات حركة الملامتية في مذهب الرومي 171
2- صحبة الرومي لشمس التبريزي 179

الفصل الخامس: تعاليم الرومي وأهدافه التربوية 197
1- المذهب الكلبي (Cynicism) 215
2- الرواقية (Stoicism) 220
3- الأبيقورية (Epicureanism) 223

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

إحسان الملائكة

جلال الدين الرومي
صائغ النفوس

يَرْجعُ الفَضْلُ في نَشْر هذه الدراسة إلى الأستاذ مُلهم الملائكة؛ ابن إحسان الملائكة (إعلاميّ بإذاعة دوتشي فيلي بمدينة بون الألمانية). إحسان هي أخت الشاعرة العراقية نازك الملائكة. وقد كان لها، إلى جانب الشاعرة، إسْهامٌ بيِّنٌ في الحياة الثقافيّة بالعراق، وأبانت أبحاثُها عن معرفةٍ أدبيّة وتاريخيّة واسعة، غير أنّ دور نازك الريادي في الشِّعر العربيّ المُعاصر في النِّصف الثاني من أربعينيّات القرن الماضي وصدى كتابها النقديّ عن هذا الشِّعر جعلَ اسْمَها أكثر تداوُلاً من اسْمِ إحسان.

الدراسة التي أنجَزَتْها إحسان الملائكة عن جلال الدين الرومي تُجسِّدُ نَمَطاً من أنماطِ تلقّي الخطاب الصوفي. نمطٌ مَشروطٌ بزمَنه المعرفيّ وبمُوَجّهاته، كاشِفٌ عن مُنطلَقٍ ضِمْن تعدُّد المُنطلَقات التي تحكّمت في دراسةِ هذا الخطاب وفي إضمار تصوّراتٍ عنه.

يبدو التصوّر، الذي أضْمرَتْهُ هذه الدراسة عَنْ مَوْضُوعها، مُستنِداً إلى المُقاربات التي تأوّلت التصوّف من خارجه وَفق أحكامٍ علّلتها هذه المقاربات بالارتكاز، من جهة، على الخلفيّة السياسيّة، وعلى العِلم الحديث من جهة أخرى. غير أنّ هذا التصوّر، المُقيَّد بزَمنه المعرفيّ، بدا، في بعض أطوار الدراسة، كما لوْ أنّه آخِذٌ في الانفصال عن مُوجِّهاته كلّما كانت الباحثة تتوغّلُ في خبايا التجربة الصوفيّة لجلال الدين الرّومي. إنّه الانفصال القائم على المُراجَعَة التي يُمْليها هذا الصوفيّ على دارسِهِ وهو يَستضيفُهُ في المعارج العُليا للعِشق.

ISBN 978-9953-68-731-5
9 789953 687315

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com